ما لا تعْلمون

الطبعة الأولى
1440 هـ
2019 م

اسم الكتاب: ما لا تعْلمون
التأليف: د. أحمد السّعيد مراد
موضوع الكتاب: رواية
المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 216 صفحة
عدد الملازم: 13.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/1560
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 638 - 5

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

د. أحمد السّعيد مراد

ما لا تعْلمون

روايـة

دار البشير للثقافة والعلوم

نصف ما سنعلمكم إيّاه خطأ، والنّصف الثّاني صواب،
المشكلة أنّنا لا نعرف أيّ نصفٍ هو الخطأ وأيّه الصّواب!

تشارلز بورويل

عميد كلية الطب

بجامعة هارفورد

الفصلُ الأوّل

الكائِن

كانت المركب البدائية- بشراعها البسيط- تنساب برفق لتشقّ طريقها عبر زرقة المياه المتقاطعة مع الكثبان السماوية المتفاوتة بين اللّونين الأبيض والرمادي مع سطوع الشمس البديع المتألق في الأفق بعد الظهيرة، نسمات الهواء الرّفيقة الرقيقة تعانق الوجوه بلطف لتوسمها بانتعاشٍ جميل معبّق باليود، ليبعث بالخدرِ في الأجساد، والجفونُ تصارع- بكسلٍ ودلالٍ- أهدابَ الوسن، ولأوّل مرّةٍ منذ بدءِ رحلة الصّيد البسيطة التي اعتادوها وألفوها منذ سنين عمرهم القريبة؛ تراخت الأذرعُ وسكنت الأجسامُ، ولم يتبقّ سوى رحلةِ صعودٍ وهبوط صدورهم بأنفاسهم المتردّدة بها مع ارتعاشاتٍ خفيفة تتموّج بوسطِ جفونهم لتؤشر أنّ عوالمَ أحلامهم تكتظّ الآن بالكثير.

كم مضى من الوقت؟ وكيف اغتالهم النّومُ بما يشبه فقدان الوعي؟!

لا يدْرون!

فالعلامةُ الوحيدة الدّالة على ساعة النّهارِ بالنسبة لهم قد اختفت خلف غيومٍ كثيفةٍ خالفت كلّ القواعد البحرية التي ألفوها وتربوْا عليها، كيف أتتْ وظهرت هكذا بلا أيِّ مقدماتٍ؟!

لا يدْرون!

فقد انتزعهم من بسطةِ أحلامهم تقاذفهم بمنتهى القسوة عبرَ أرجاءِ المركب التي تتلاعب بها الأمواج يمينًا ويسارًا كقشّةٍ تتقاذفها الريح أينما شاءت، دهشتهم المغدورة بسرعةِ التحرّك لتجنبَ الهلاك وسط هذا الهول الذي استيقظوا عليه لم تستغرق كثيرًا، فعلى الفور كان الشّراعُ قد هبط، وتمّ ربطه جيدًا كي لا ينساب مرّةً أخرى لتنتزعه الرّيح متلاعبة به وبمصير المركب، التماسك والتآزر مع الكثير من الخوف والرعب يشكّلون لوحة لم ترِدْ بخيالهم أبدًا، فكلّ العواصف التي مرّوا بها لم تكنْ بمثل هذه الهوجائيّةِ العشوائية المنتقمة، ولم تكنْ فيها السّماءُ بمثل هذه القتامة الغاضبة الساخطة، الصراعُ لأجل البقاء داخل المركب وعلى قيْدِ الحياة عبر التّلاطم والتصادم والجذب والشدّ لمدّة ساعة انتهك قواهم التي خارتْ، وعزيمتهم التي وهنتْ ووقف اليأس ليقهقه على رؤوسهم معلنًا زعامته وامتلاكَه لهم.

ولكن يشاءُ قدرُ اللهِ التدخلَ في وقت النهاية ليخبرهم بأنّ أمرهم ليس كما يظنّون، وليسحق غرورَ اليأس الذي لم تطلْ سطوته عليهم، فإذا بمرْكبهم يصطدم بشاطئ برزَ لهم من بين الغيوم ليحتضنهم ويُؤويهم مرفقًا بهم، هبطوا من مرْكبهم الذي تحطّم جانبه الأيمن بشكلٍ شبه تامّ على إثر الاصطدام، وأجسادُهم تئنّ ألمًا وتشكو من الوهن، تكاتفوا حتّى سحبوا مركبهم المتهالك بعيدًا عن بقايا موجات المياه التي قد تتلاعب به، وتُغريه بالذّهاب تاركًا إيّاهم بلا منجاة، حاولوا رصدَ ما تبقّى معهم من مئونة قد يقتاتون أو يلتحفون بها وسط برودة الجوّ العجيبة، ولم يجدوا إلّا النّذرَ اليسير، فكان

قرارُهم الأوّل باستطلاع المكان لرؤية ما به من مكوّنات قد تنفعهم وتحميهم أو تُؤويهم حتى يستقرّ الحال وتذهب غضبةُ الجوّ التي جاءت بلا مبشراتٍ أو إشاراتٍ مسْبقة، تحسّسوا طريقهم وسط الأشجار الكثيفة المبتلة بآثار المطر الذي سبقهم ليضعَ بصمتَه قبل أن تمسّها أيديهم، والوجل يسكن صدورَهم، ساروا مسافةً لا تتعدّى مائتي مترٍ حتى انتهت الأشجار إلى ساحةٍ مستديرة بانتظام عجيب يُوحي بأنّ صانعها أعدّها كمسرحٍ لشيءٍ ما يتناسب معها، وقبل أنْ تخطو أرجلهم خطوةً واحدة داخلها، إذا به يخرج في مواجهتهم، وبخطواتٍ قليلة بلغ منتصف الدائرة وتوقّف عندها بجسمٍ مشدودٍ ورأسٍ مرفوعٍ كأنما يعلن ملكيته لها وقدسيّتها له، ارتجفتْ أوصالهم وذهلت أعينُهم المتّسعة، والتي عجزت عضلاتُ الانقباض أن تعود بها لوضْعها الطبيعي، وهُم لا يستطيعونَ الذّهابَ ببصرهم عنه، إنّه ذلك الكائن الضّخم المهيب، ولم يكن ذلك المصدرُ الوحيد لذهولهم ورعبهم الذي ألمّ بهم، بل للمكوّنات الغريبة التي تظهر عليه، ومن أعماق سحيقة أخيرًا استطاعوا أن يروا لمعةَ عينيهِ التي تحدقُ بهم بمثل ما يفعلون نحوه.

***

نزعتْ سميرة مرسي نظارتها ذات الإطار السّميك لتفركَ عينيها بقبضتيْها بقوّةٍ، حتّى كادت تتسبّب في تفجيرهما داخل محجريهما وهي تتثاءب بشدّة، وما إنِ استقامت لها الرّؤية بعد الخيوط الكثيرة المتداخلة بعدّة ألوانٍ متنوعةٍ على إثر ضغطها السابق على كرتي العينين أعادتِ النظارة لتستقرّ في موضعها

الأبدي المميز لها بملامحها الهادئةِ وبشرتِها القمحية وحاجبيها الكثّين مما يعطيها جَمالًا محدودًا تحرصُ على إبقائه هكذا غير ملفتٍ بحجابها الذي تتعمّد أن تدسه دومًا أسفل ياقةِ معْطفِها في الشتاء أو ردائها العادي بالصيف، وعادت لتقلبَ في الصّور التي كانت تُشاهدها على جهازها اللوحي.

أخذت تسترجعُ أحداثَ المؤتمر العلمي الذي دُعيتْ لحضوره بالعاصمة الإنجليزية لندن، كان أسبوعًا رائعًا خارج حدود الزمن خرج بها عن رتابةِ حياتها العجيبة التى لا تتناسبُ أبدًا مع ما تحمل من علوم ومعارفَ بعقلها، وقفتْ كثيرًا تتأمّل لحظة تسلمها لشهادة التقدير الخاصّة بها عقب انتهاءِ المؤتمر تقديرًا لجهدها والمحاضرة الكبرى التى ظلّت تلقيها بلا كللٍ لمدّة ساعتين كاملتين وبلا دقيقةٍ واحدةٍ من الانقطاع والعيون نحوها مشدوهة بقوةٍ، والأنفاسُ متوقفةً تخشى مقاطعة السيلِ المنْهمر من العلوم التي تلقيها بمنتهى السلاسة والبساطة، وكأنما تقرأ من كتابٍ خفيّ لا يراه غيرها، ورغم الرّصَانة التي يتّسم بها الحضور لم يتمالكو أنفسهم من التصفيق الحار عندما خلعت نظارتها في حركةٍ عفوية وهي تبتسم قائلةً:

– هكذا قد انتهتْ محاضرتى البسيطة، ومستعدّةٌ لأيّ سؤال.

وكأنما كانَ مشهدُ شهادة التقدير قد قذفَ بموجةِ حنين إلى ذكرياتها البعيدة، فذهبت لتفتح ملفّ صورٍ قديمة لها بكلية العلوم عندما كانت طالبةً بها، ظلّت تشاهد صورَها برفقة صديقاتها وزملائها وتجترّ معها ذكريات

أربع سنواتٍ كاملة، كانت تمتاز بنظارتها الضخمة التي يتمّ معايرتها بأنها قاعُ كوبٍ مميز للعباقرة المجانين، التحقتْ بالفيزياء الطبيعية انبهارًا بشخصية العالِم العالمي صاحب نوبل أحمد زويل،كانت ترغبُ في أن تصبح ذات بصمةٍ خاصة يذكرها بها العالم في علوم الكون التي لا يدريها ويعلّمها إلّا المتخصّصون جدًّا، ولكن في الفرقة الأولى درست مادةً غيرت مسارَ حياتها بالكامل، جعلتها تركت علومَ الليزر والفضاء التي كانت تحلمُ بها، كانت مادةُ الأنثروبولوجيا الطبيعيّة والمختصّة بدراسةِ طبيعة الإنسانِ التشريحية والفيزيائية وتقسيمه إلى سلالاتٍ حسب تطورها وتنوعها.

رغم أنّ المادةَ كانت بالصعوبة الكبيرة التي جعلت جميع الطلبة يكرهونها ولا يُطيقون محاضراتها، ويرون أساتذتها مُسوخًا متحرّكة فاقدي الإحساس معقّدي النّفوس، هوايتهم تعذيب الطلبة بالطلاسم التي يترنّمون بها في كلّ درس، إلّا أنها قد شدّتها بشكلٍ عجيبٍ واستثارت بداخلها الرّغبةَ الكبيرة في المعرفة والغوصِ في عمقٍ ما تتحدّث وتبحث عنه، لهذا كان استيعابها لكلّ ما يُقال وأسئلتها مصدرَ ذهولٍ لأساتذتها قبل زملائها، فبعد أن اعتادوا على اللامبالاة والضّجر دهرًا، واضطرارهم لجعل الأسئلةِ في مستوى الطالب المتخلّف مع منح الكثيرَ من الدّرجات غيرِ المستحقَّة لهم حتى لا تتأثر النّتيجة العامّة للكلية بسببِ مادةٍ واحدة يرى الجميع لا أهمية تذكر لها، بعد كلّ هذا تظهر نابغةً متلهفةً ومتعطشةً كشجرةٍ في صحراء لقطراتِ الندى أو زخات المطر، وبهذا فقد لمعت وظهرت وتألقت واحتضنها أساتذتُها

بالرعاية والتشجيع، وإمدادِها بمصادر تتخطّى المقرّر التافه والمبسّط الذي يشكو منه الطلبة، حتى تشرّبت وارتوت بمحبّة وعشق هذا المجال، ورغم الصّدمة الكبرى التى تعرضت لها عند تخرّجها بتقدير عامّ جيد جدًّا مع مرتبة الشرف وترتيبها الثالث على الدّفعة، جاء إعلانُ تعيين المعيدين لهذه الدّفعة لطلب اثنين فقط، رغم أنّهم في كلّ عامٍ كانوا يطلبون ثلاثة بشكلٍ مُنتظم وثابت، وبعد فترة من الكمون والإحباط وعودتها للكلية لطلب التسجيل بقسم الدّراسات العليا في قسم الأنثروبولوجيا الطبيعية لنيل درجة الماجستير به على نفقتها الخاصّة، وأثناء ذلك؛ اكتملتْ أركان الصدمة لديها حينما علمتْ بصدور إعلانٍ لمدّة يوم واحد فقط لطلب معيدٍ ثالث وتمّ لصقُ الإعلان بمكانٍ ناءٍ لكي لا يراه أحدٌ، حتى سارع أحدُ أبناء الأساتذة الكبار بالتقدّم واستيفاء كلّ الأوراق المطلوبة في زمنٍ قياسي، وبعد تقدّمه مباشرة أُغلق الباب وتمّ قبول تعيينه لأنه الوحيد الذي تقدّم للوظيفة، ودونَ أيّ خلل قانوني، وعندما علمت بمَن هو بصقتْ وقد طال أنفُها أولى بشائرِ عفن الفساد المستشري في جميع أركان الجامعة، تجاوزت الصّدمةَ واستكملت دراستها لتحصل على الدّرجة في وقتٍ قياسيّ جعل أساتذتها يتحسّرون كيف تخسر الجامعة- وهي المركز البحثي المتخصّص-.. كيف تخسرُ مثل هذه العقلية وتُبتلى بمثل ذلك الشابّ الرّقيع المستهتر، والذي يضطرّون لمنحه الدّرجاتِ المطلوبة مجاملةً لزميلهم، ولكنْ فورَ حصولها على الدرجة لم يبخلوا عليها بالمساعدة المطلوبة فتوسّط أحدهم لتعيينها بالمركزِ

القومي للبحوث، وأخبرها الآخر بالإعلان عن منحة لدراسة الدّكتوراه بجامعة أكسفورد في علم الأنثروبولوجيا الطبيعية، فتقدمت لها مع الكثير من التّرشيحات الموثقة من أساتذتها بأحقّيتها في هذه البعثة، وبعد استكمال أوراقها وتخطّيها كلّ الاختبارات المبدئية للقبول لها تمّ تسجيلها للحصول على الدكتوراه بأعرقِ جامعةٍ درست هذا العلم على مستوى العالم لتحصل عليها بتقديرٍ كبير ووعي فائق أذهلَ أساتذتها الإنجليز كذلك، وخرج بحثُها في رسالة الدكتوراه بنتيجةٍ تمّ تسجيلها باسمها في أحدِ أهمّ المراجع العالمية المعتمدة في هذا المجال. وأخيرًا، عادت إلى القاهرة تحملُ شهادةً مستحقّةً متفرّدة، وما زال الأملُ باقيًا في قلبها؛ أنها يمكنها الكثيرُ عبرَ المركز القوميّ للبحوث.

وأيضًا، لم يبخلْ عليها أساتذتها بأكسفورد في المساعدة، وذلك بدعوتها للحُضور كلّ عامٍ للمؤتمر السنوي الذي تعقدُه الكلية لتطرح ورقة بحثيّة جديدة غالبصا ما تبهرُ جميعَ الضّيوف بمثل ما حدث مُؤخّرًا.

استفاقتْ على سؤالِ جارها، وهو يطالعُ الصّورة التي توقفت أمامَها كثيرًا عندما سبحت في ذكرياتها، كانت صورتَها بمنطقة الأهرامات في آخر رحلةٍ لها بالكلية مع زملائها من المحافظات الأخرى.

كان يسألها بلهجةٍ خليجيّة قائلًا:

- الأُخت من مَصر؟

الرّحلة الطويلة من لندن إلى مصر جعلتها تبتسمُ وتردّ بودّ؛ آملةً في حديثٍ ثريّ يشغل حيزًا كبيرًا من مللِ الجلسة، فقالت له:

- نعم، ومِن القاهرة ذاتها.

ظهر الانبهارُ جليًّا على وجه الرّجل بملامحه التي- رغم غلظتها وكبرها- تُوحي أنه لم يتخطّ الأربعين بعد، وقال بحبورٍ شديد:

- بلد الهضبة.

لوهلةٍ لم تفهم مقصدَه، لقد كانت الصّورة أمام الأهرامات فقالت مُستفسرةً:

- عن أيّ هضبةٍ تتحدّث؟

قال الرجل متعجبًا جهلَها:

- الهضبة.. الأسطورة.. عمرو دياب!

رفعت حاجبيْها حتى تخطّيا حاجزَ نظارتها العلوي رغم سمكه الكبير، وهزّتْ رأسها دلالةَ تعجّبها- هي نفسها- مِن مدى جهلِها بأهمّ ما يُميّز البلد. وقالت بصوتٍ حاولت قدْرَ إمكانها أن تنزع منه كلّ المشاعر الحقيقية التي تختلج بها:

- نعم، بلدُ الهضبة!

ولم تستطع الاحتفاظ بالبسمة المصْطنعة العجيبة التي رسمتها على وجهها؛ فأغلقَتْ جهازَها اللوحي، وعادت برأسِها للخلف، وأدارت وجهَها نحو النّافذة دلالةَ انتهاء الحديث الذي تمّ بترُه قبل أن يبدأ.

وأخيرًا بعد عدّة ساعات، وبخطواتٍ مُتعثرة، وصلت لتقف أمام ضابط الجوازات الذي تناول جوازَ سفرها، وبه يظهر مؤهّلها، وأنها حاصلة على الدّكتوراه في علم الأنثروبولوجيا، والتأشيرة القديمة التي تظهر أنها تتبع جامعة أكسفورد مع التأشيرة الجديدة الجلي بها أنها في مهمّةٍ بحثيةٍ، ولكن بمنتهى الصّرامة أعطى جواز سفرها لمَن يجاوره، وقال لها:

- لو سمحتِ تفضّلي بالانتظار قليلًا جانبًا.

ولم ينظرْ نحوها مجدّدًا، وهو يمدُّ يده لمَن خلفها ليأخذ منه جوازَ سفره ليمنحه بسرعةٍ ختمَ السّماح بالعودة ودخول البلاد، بلا مبالاة تنهّدت وأخرجت جوّالها وأعادت إليه الشّريحة الإلكترونية لإحدى شركاتِ الجوّال المحلية، وطلبت رقمَ ابن خالها، وكيل النيابة، وقالت له في جملةٍ مقتضبة:

- محمّد.. ليس لديّ الاستعدادُ للوقوف ساعةً مجدّدًا للبحث في تشابه الاسم، والذي يوقفوني بسببه كلّ مرةٍ.

سمعتْ ردًّا قصيرًا، ثمّ شكرته وأغلقت جوالها، وبعد خمس دقائق فقط كانت تحمل حقائبَها وتوقِفُ إحدى سيارات الأجرة المكيفة لتهرب من حرارة القيظ التي لفحت وجهها منذ أن وطئتْ قدمُها أرض البلد.

وقبل أن تعتدل بجلستها به، ارتفع رنينُ جوّالها لتنظر لاسم المتصل وتضحكُ ضحكةً صامتةً، وتجيب قائلةً:

- أهلًا يا ميرفت، كيف حالكِ؟ وكيف شعرتِ بوصولي هكذا؟!

جاءها ردّ زميلتِها ميرفت، وهي تقول لها بلهفةً:

– حاولتُ الاتصالَ بك كثيرًا منذ أمس، وكان يعطيني رسالته الصّوتية أنه غيرُ متاح، وعندما قمتِ أنت بتشغيل الخطّ أخبرني بأنكِ متاحة للاتّصال الآن؛ فاتصلت بكِ.

هزّت رأسها متفهمةً، وقالت لها:

– كيف حالكِ أنتِ وزوجكِ وأولادكِ؟

قالت ميرفت بسرعةٍ:

– دعْك منّي الآن. كان المفترض عودتك للعمل أمس، وتأخّرت أنت في سفرك وما زلنا مبكّرين؛ الساعة الآن العاشرة، فلتُسرعي بالمجيء للعملِ الآن؛ لقد انتهى رصيدُ أجازاتك، وبعد خصم الحوافز منك لشهْرين قد يتمّ تحويلُكِ للشئون القانونية.

لمْ تستطع سميرةُ منعَ القهقهة التي غمرتها، وقالت لها:

– حسنًا يا ميرفت سأطلبُ من سائق التاكسى التوجّه مباشرةً إلى المركز.. وشكرًا لاهتمامك.

وفوْرَ أن أنهتِ المكالمة معها تنهّدت بقوةٍ للمرة المائة منذ عودتها، ولم تتحمّل رؤية المشاهد المتتابعة بسرعة عبر النافذة المجاورة لها؛ فأخبرت السّائق عن وجهتها الجديدة، وعادت برأسِها للخلف وأغمضت عينيها محاولةً رسمَ صورة بذهنها قد تمنحُها بعضَ الهدوء النفسي الذي ترغبُ فيه.

***

كان الصّباح التالي ينْتشي بتألقٍ غير عاديّ بمبنى المركز القومي للبحوث، الحركة الدّؤوبة والسريعة والتي تخالف السّكون والصمت اللّذيْن اتّصف بهما واعتادَ عليهما، البساط الأحمر اللامع بقوة ونظافة والممتدّ من الباب الرئيسي حتّى مقْدمة المِصعد الذي أُضيئت مصابيحه على غير المعتاد، وظهر له عاملٌ من العدم، أواني الزهور ونباتات الظلِّ التي تتباهى بصورتها المبهجة على امتداد البهو والطرقات بمختلفِ الأقسام.

كلّ ذلك؛ جعلَ سميرة تتلفّتُ حولها وتغمضُ عينيها وتفتحُها مرارًا للتأكّد من أنّها دخلت المبنى الصّحيح، وزال عجبها عندما استقرّت خلفَ مكتبِها وأخبرتها زميلتُها الأثيرة ميرفت بالسّر العجيب لكلّ هذا التّغيير المفاجئ والكامل، إنّها الزيارةُ غيرُ المتوقعةِ لوزير البحث العلمي، والتي سيُفاجِئ بها المركز في تمامِ الحادية عشرة صباحَ اليوم!

فلم تهتزّ سميرة أو تندهش لعلمها التّام أنّه من رابعِ المستحيلات طرق أيّ مسئول- ولو على درجة وكيل وزراة- بابَ مكتبها المشترك مع ميرفت، فالقسم الذي تعمل فيه ربما لا يعلم مخلوقٌ به، وحتمًا لن يطرق اسمه أذنَ هذا الوزير أو أيّ مسئول رفيع أو عديم الدرجة، قسم الأنثروبولوجيا أو علمِ دراسة ملامح الإنسان، قسمٌ لا شأن له وسط الكثير من الأقسام المتعدّدة، والتي تحتفظُ بالكثير من المجلدات لحفظِ أرشيفٍ ضخمٍ للأبحاث والابتكارات الجديدة التي قام بها شبابٌ تألّقت أعينهم ظفرًا وسعادة عندما توصّلوا إليها، ومات هذا التألق وانتُهِك هذا الظفرُ بمُضيّ الوقت وتراكمِ

أكوم الغبار على ملفّاتهم التي قاموا بتسجيلها لدى المركز، وما زال بعضُهم يحتفظ بقصاصاتِ الصّحف التي تبرز اكتشافَه وبحثه ووصفَه بالمخترع العبقري الذي بهرَ العالم بما وصلَ إليه، وأصبح هذا كلّ ما يملكُ نِتاج ما فعل، وقد استأنسه اليأس بالردّ الدائم وكأنّه خاتمٌ ثابت يتمّ وضعه على كلّ الأوراق والاستعلامات الدّائمة منهم: (نشكركمْ على جهدكم العلميّ المُميّز، وسوف يبدأ العملُ على تنفيذه عمليًّا فورَ توفرِ الميزانية المُخصّصة له).

ولم تستطعْ سميرة أن تفلتَ من تقليد زملائها الذين يتحركون بنشاطٍ جمٍّ لترتيبِ وتنسيق ملفّاتهم وأماكن حفظها، فقامت للصّوانِ الصغير المُخصّص لها وفتحته، ولم تستطع منعَ البسمةِ الكبيرة التي التهمت وجهَها عندما وجدتْ به ملفًّا واحدًا صغيرًا به البحث البسيط الذي تقدّمتْ به كمُسوغٍ لترقيتها التّرقية الأخيرة التي نالتها بالمركز.

أمسكتْ بالملفّ ونفضته ليتطاير الغبارُ الكثيف عنه، ثمّ مدّت يدها بمِنديلٍ ورقي، ومسحتْ ما تبقّى على غلافهِ وأعادتهُ لموضعهِ، وعادت لكرسيّها الخشبي، وجلست عليه لتراقبَ بقيةَ زملائها المندفعين عبر الطّرقات أمامها من خلال بابها الواسع والمفتوح، والذين يحسدونها لحسْنِ طالعها الذي لا يثقلها بكثيرٍ من المهام مثلهم.

ضربتْ رقْمَ ساعي القسم الذي تعمل به، فجاء إليها مُسرعًا فطلبت منه إفطارَها المعتاد؛ شطيرتيْن من الفول والفلافل مع كوبِ الشاي الثّقيل قليل

السّكر، فانطلقَ وهو يتعجّب من أنها الوحيدةُ رائقةُ البال التي تطلبُ منه الطلبَ المعتاد للجميع في غيرَ هذه الأحوال الطارئة.

وبعد نصفِ السّاعة، كانت سميرة تمضع طعامها ببطءٍ كما اعتادت، بينما زملاؤها يُتابعون عبرَ الجوال حركة الوزير الذي قيل بأنه الآن قد تخطّى البوابة الرئيسية واستقلّ المِصعد بصحبةِ مدير المركز، وهي تنظر ضاحكةً لميرفت المتوتّرة بترقّبٍ وقالت لها من بين إحدى القضْمات من شطيرتها:

– اطمئنّي لنْ يأتي لهذا القسم أبدًا.

ولدهشتها، وبينما هي تنتهك القضمة الجديدة، وعلى غير المتوقّع فجأةً كان الوزيرُ بصُحبةِ المدير في مواجهتها تمامًا.

زجّت ببقية طعامها في درج مكتبها، وقامت واقفةً بسرعةٍ كأنها تلميذة ابتدائي تمَّ ضبطُها بفعلٍ نهاها عنه مُدرسها القاسي مُحاولةً ابتلاعَ ما تبقّى بفمها بسرعةٍ وصعوبة.

دخل الوزيرُ ببطءٍ وهو يستطلع أرجاءَ القسْم، ثمّ برصانةٍ وهو يتطلّع إليها، هي وميرفت، قال:

– منْ هي دكتورة سميرة مرسي؟

ابتلعتْ سميرة ريقَها الخالي من الطعام هذه المرّة، وهي لا تُصدّق بأنّ الوزير ينطق باسمها هي، وقالت بصوتٍ مرتعشٍ مع ابتسامةٍ شاحبة مندهشة:

– أنا سميرة مرسي حضرتك!

تقدّمَ الوزير نحوها مادًّا يده مُصافحًا إيّاها بوجهٍ مُبتسمٍ ومُستبشر، ووسط الدّهشةِ التي اعترتِ الجميع قال لها:

– أهلًا بكِ يا دكتورة، لقد رفعتِ رأسَنا في أرجاءِ العالم كُلّه.

اعتادت سميرة على الاحتفاءِ بها خارج حدود الوطن، ولأوّل مرّة منذ أمدٍ تسمعُ كلمة إطراءٍ، ومن مسئولٍ كبيرٍ وصلَ لدرجةِ وزير؛ لذا كان اتّساعُ عينيها وذُهولها الكبيران طبيعيًّا جدًّا، وامتدت يدها المرتعشة لهوْل المفاجأة مُسلّمةً عليه، وقد تناست تمامًا أنها في الغالب لا تُصافحُ الرجال، وانعقد لسانها ولم تجدْ حرفًا لتبوحَ به ردًّا على جملته السّالفة.

فضحك قائلًا:

– فلتستريحي كما كنتِ؛ لنا جلسةٌ وحوار خاصّ.

للمرّة الثانية تبتلعُ سميرة ريقَها الخاوي إلّا من لعابٍ شحيحٍ بعد جفافِ حلقها، وكالممسوسة بذهولٍ أشارتْ نحو الكرسي البسيط، والذي كم شكى من بطالته أمام مكتبها العتيق الذي ما زال دُرجه الأول يبرزُ مفتوحًا وتفوحُ منه رائحةُ شطيرتها الأخيرة التي لم تنْتهِ منها.

نطق مديرُ المركز قائلًا:

– يمكنك تشريفُنا في قاعة الزّوار أو بمكتبي الشخصي والمكيف يا أفندم.

تقدّم الرجلُ بمنتهى البساطة وجلسَ على الكرسي الذي أشارتْ نحوه، ثمّ التفت للجمْع المتشكّل في لوحةٍ هزليةٍ سيريالية عجيبة تحمل عنوانَ الدّهشة المغلفة بالبلاهة مُستطردًا، وقائلًا لهم:

- تفضّلوا أنتم، كلّ لعمله، فما جئتُ إلّا لمجالسةِ الدكتورة، وبشكلٍ شخصي.

حاول المديرُ أن ينطقَ بأيّ جملةٍ تملّقية، ولكنْ قاطعته نظرةُ الوزير الصارمة وهو يقول:

- تفضّل يا دكتور، لا تشغل بالكَ بي وبزيارتي.

أشارَ المديرُ بصرامةٍ للجميع لينفضّوا بناءً على تعليمات السيد معالي وزير البحث العلمي، وعلى الفور استجابة لعصا السّاحر اختفى الجميعُ ولم يتبقَ إلّا ميرفت التي ذهبت إلى مكتبها المجاور لمكتب سميرة وهي تحدقُ منتظرةً لفقرةٍ جديدة للسّيرك الذي تشكّلَ أمام ناظريها بصورةٍ حتمًا لن تتكرّر.

تنحنحتْ سميرةُ وهي تدفع درْجها المفتوح بأعلى ركبتها حتى تختفي تلك الرّائحة النفّاذة لبقية مأكولاتها، وجاهدت لرسمِ ابتسامةِ مجاملةٍ جديدة وهي تقول:

- أهلًا وسهلًا بك يا أفندم، لقد تشرّفنا جميعًا بزيارتك المفاجئة هذه.

قهقهَه الوزيرُ، ثمّ قال:

– تخفّفي من الرسميات يا دكتورة، تعاملي معي كما كنت تتعاملين مع العلماء الحقيقيّين هناك بلندن بمنتهى البساطة والتلقائية، فما علمت بكِ ولا سمعت باسمك إلّا بعد أنْ جاءني خطابٌ رسمي من كبرى الجامعات هناك يحتفي بك وبجهدك العلمي معهم، وبالبحث علمتُ كلّ شيء عنك، أعلمُ تعجّبك ودهشتك لتصرّفي هذا، وسوف أزيله عنك بجملةٍ واحدة.. أنا مثلك تمامًا أحملُ بين جنبي مثلما تحملين من علمٍ لا يلقى تقديرًا يليق بمقامه، ولهذا جئت إليك.

إنْ كان الوزيرُ قد ظنّ أنّ جملته هذه ستزيل دهشةَ سميرة؛ فقد جانبه الصّواب لأنها ارتفعتْ بذهولها لآفاقٍ لا حدّ لها، أعلى منصب مسئول في البلد عن البحث العلمي يقول هذا!!

تردّدت وارتبكت، ولكن تمالكتْ نفسها بعد أن تغلّبت على حرجها وهي تقول متعجبةً:

– أنتَ بمقولتكِ هذه تنشر خبرَ إعدام البحث العلمي في مصر!!

تنهّد الرجلُ وقال:

– البحث العلمي في مصر إذا لم تُخصّص له ميزانيةٌ كبرى وضخمة قد تفوق الوزارات السيادية سيظلّ كما هو جنينًا مُشوّهًا لا يكتمل نموّه أبدًا.. وهذا ما ليس بيدي رغم منصبي الرفيع.

ضحكتْ سميرة بسخريةٍ وواتتْها شجاعةٌ عجيبةٌ لم تتّصف بها يومًا وهي تقول:

– لستُ أدري هل من المناسب أنْ أُعزّيك أم تواسيني أنت كما أردتَ مِن زيارتك.

ضحك الوزير قائلًا:

– لقد جئتُ إليك يا د. سميرة كي أشعرك بأنّ هناك مَن يُقدرك ويثمّن علمك، وليس الخارج فقط. قد تعطيك زيارتي هذه لمحةَ أملٍ وسْطَ بحرِ اليأس الذي تسبحين فيه، وقد تشعُرين أنّ هناك مَن يُشاركك الهمّ ويتحينُ الفرصةَ التي قد تتأخّر قبل أن تلوحَ لنا كي نحصلَ على شيءٍ يبسط لنا بساطَ الأمل أمام الحلم الذي إنْ تحقّق بتقديم العلم والعلماء فحتمًا سيتغيّر الحال للجميع.

قالت سميرة بتجهّمٍ:

– لقد أتتْ بالنقيض يا سيدي؛ لقد كان هناك أملٌ بأنّ الكبار لديهم كلّ شيءٍ، وربما يأتي أحدُهم ليحملَ الراية ويتقدّم المسيرةَ، ولكنّ مقولتَك أخبرتني أنّ الكبار أنفسَهم لا شيء بيدهم.

ابتسم الوزير وقال:

– لا تفقدي الأملَ يا دكتورة، لا تعلمين ماذا يحملُ الغدُ.. تفضّلي هذه بطاقتي تحملُ أرقامي الخاصّة، يمكنك الاتّصال بي في أيّ وقت إذا احتجتِ لأيّ مساعدة في أيِّ أمرٍ إداري.

وقام الوزير ليُحيّيها وينطلقُ إلى الجمع الذي كان يقف مُتلهفًا أمام بابِ الغرفة التي خرج منها مُتجهّمًا، والمديرُ عاد لاستكمالِ مسيرة التملّق، ومحاولًا جذبه لزيارة أقسامٍ أعدّها لتعجِبَه، بينما أمسكت سميرة بالبطاقة وقالت متهكمةً:

- أيُّ أمرٍ إداري!! شكرًا يا سيادة الوزير!!

تقدّمت ميرفت نحوها، وقالت لها بغيظٍ:

- هل تعلمين أنّك كنتِ قليلةَ الذّوق بشكل فجٍّ معه؟

بلا اعتناء ردّت سميرةُ باقتضابٍ قائلةً:

- أعلم.

جذبتْ حقيبتها وألقتِ البطاقة داخلها بلا اهتمام.. وفتحتِ الدّرجَ لتستكملَ مضغَ طعامها، ولكنْ بقوّةٍ تولّدت من غيظٍ مقيت ألمّ بها.

***

تغيّر الحالُ كثيرًا عقب زيارةِ الوزير المقتضبة للمركز، فقد تمّ تبديل الأثاث الخاصّ بسميرة بآخرَ جديدٍ وأكثر فخامة، المكتب الخشبي الكبير نسبيًّا وبطاقمه الجلدي الأنيق، الكراسي الوثيرة، حتى الصوان الذي لا يحوي إلّا ملفًّا وحيدًا تمّ تبديلُه بآخرَ معدنيٍ، مُتألق بألوانه، وبالطّبع أصبحتِ المعاملة أكثرَ تبجيلًا واحترامًا واحتسابًا لها.

ولأوّلِ مرةٍ يرتفعُ رنينُ هاتفها المُجدّد كذلك ليتمّ استدعاؤها لمكتب المدير.

طرقت البابَ بهدوئها المعتاد لتدخل إلى مكتب السكرتير ليصطحبها مباشرةً إلى البهو الخاصّ بالمدير، والذي انتصب واقفًا فورَ رؤيتها مرحّبًا بها، ومُشيرًا إليها لتجلس قبله.

تنحنحَ قليلًا ثمّ قال:

– معذرة يا د. سميرة على التّجاهل نحوك في الفترة السابقة، أنتِ تعلمين مسئوليات المركز وكثافة العاملين به، بإذن الله سيتغيرُ كلّ ذلك بعد الآن، ويكفينا شرفًا أنّ معالي الوزير ما جاء إلينا إلّا لأجلكِ أنتِ، فهذا فخرٌ كبيرٌ لنا.

ابتسمتْ سميرةُ مجاملةً وقالت:

– لا عليك يا دكتور، أعلمُ بأنّ قِسمي واختصاصي ليس به ما يُشغل البال، أو يستوجبُ الاهتمام، يكفيني معاملتكم الطيبة.

ارتفعَ حاجبا الرجلِ وقال:

– ومَن قال ذلك؟! لديّ الآن مأموريةٌ هامّة جدًّا لك، ستذهبين إليها ولن تستغرقَ منك أكثرَ من نصف السّاعة، ويُمكنكِ الذهاب بعدها إلى المنزل دونَ العودة إلى هنا، وسوف تُصرف لكِ مكافأةٌ خاصّة نظير ذلك.

لم تلتفتْ سميرة إلى محاولاتِ التّملق الظاهرة في كلامهِ بالتساهل ومنحها ما ليس بحقّ لها، ولكنْ جذبها بقوةٍ جملة "مأمورية هامّة" هذه، فقالت متسائلةً:

- أيّ مأمورية هامّة هذه التي قد تقع تحت اختصاصي؟!!!

قال الرجلُ بحماسٍ:

- لقد تمّ الإمساكُ بقردٍ غريبِ الشّكل عند الغابةِ المتحجرة بالمعادي، وهو الآن تحت الحجزِ بحديقةِ حيوان الجيزة، ستذهبين فقط لتصنيفهِ لأيِّ فصيلةٍ يتبع هذا القردُ، وبهذا فقد انتهتْ مُهمّتك.

لم تستطعْ سميرة منعَ الضّحكةِ المتهكمة، وقالت:

- ولكنّ هذا ليس اختصاصي، أنا مُختصّةٌ بعلمِ دراسةِ ملامح الإنسان وليس الحيوان!!.

قال الرّجل ببساطة:

- يا دكتورة لا تُصعّبي الأمور، غالبًا هناك يعرفون الفصيلةَ، ولكن يُريدون التّوقيعَ منكِ فقط على أوراقهم حتى يُصبح الأمرُ رسميًّا وقانونيًّا، وقد تكون هذه المُهمّة بدايةَ خيرٍ يتبعها الكثيرُ من المهمّات المُماثلة.

امتعضتْ سميرةُ للغابة الكثيفة غيرِ المنطقية التي تُعيش فيها، ولكن بما اعتادت عليه مُؤخّرًا من اللامبالاة قرّرتْ تغييرَ جِلستها المُملة والحوار

حولَ العريسِ المرتقب وأنواعِ الأكلات وسُبل طبخِها مع ميرفت، فأعلنتْ موافقتها للمدير ومنحتْه الشّكرَ الذي كان ينتظرُه.

***

انطلقتِ السّيارةُ المكيفة والفخمة بسائقِها المُهذّب، وميرفت التي أصرّتْ سميرةُ على اصطحابِها معها إلى أوّل مهمّةٍ كاريكاتورية تنطلقُ فيها لفعلِ شيءٍ جديدٍ أشبه بحصاةٍ تقاذفتها الرّيحُ لتُلقي بها في جدولٍ راكد المياه، فأثارت به موجةً بسيطةً ولكن مهْما كان صِغرُ تأثيرها فهي أفضلُ من السكونِ الذي اعتادت عليه.

ولجتِ السيارةُ بابَ حديقة حيوان الجيزة المتواجد بشارعِ مراد، والجميع يفسحُ لها الطريق بهيئتها التي توحي بأنها حتمًا بداخلها مسئولٌ رفيع المستوى بزجاجها القاتِم، والذي لا يُظهر مَن بداخلها، تطلّعت سميرة بسرعةٍ للّوحة التي تشير إلى افتتاح الخديوي إسماعيل لها عام ١٨٩١م، وانطلقت السيارة وهي تُحاول الهروب من بعض الشباب المشاكس والذين يتجمّلون بوقاحةٍ أمام الفتيات اللاتي برفقتهم، ولم تستطعْ تفادي الكرةَ التي اصطدمت بزجاجها الأمامي والتي اندفعت نحوها عقب تسجيل أحد الفريقين هدفًا مستحقًّا بالمباراة المقامة بين أرجاء الحديقة التي تفوحُ رائحة روثِ الحيوانات بها من كلّ اتجاه.

تمعّضت سميرة، والتفتت نحو ميرفت قائلةً لها:

- هل تعلمينَ أنّ هذه الحديقة تمثل منحنًى موازيًا للتطوّر الإنساني في مصر؟

رفعَتْ ميرفت حاجبيها متساءلةً وهي تقول:

- كيف هذا؟!

اعتدلتْ سميرة في جِلستها، واستعدّت لمحاضرة تنوي إلقاءَها على سمع رفيقتها قائلة:

- في بداية إنشاء الحديقة تمّ الاهتمام بها بشكل ملكي، وخُصّص بها مبنى أنيقٌ يُعدّ أثرًا هامًّا الآن يسمّى الاستراحة الملكية، حتى الجبلاية اسمها الجبلاية الملكية، والزيارات الرفيعة على مستوى القادة والرؤساء والملوك لمصر كان يشملُ جدولها المرورَ بحديقة الحيوان هذه لما بها من نباتاتٍ وحيوانات نادرة وربما متفرّدة لدينا فقط، وما زال حتى الآن الكشك الياباني يُعدّ متحفًا صغيرًا رائعًا يحوي صورًا قديمة ونادرةً للحيوانات بالحديقة منذ إنشائها، تمّ افتتاحه خصيصًا باسْم ولي العهد الياباني، والذي زارَ مصر عام ١٩٢٤ حين كانت اليابان في أوجِ مجدِها، وبدأ الانهيار للحديقة منذ عام ١٩٥٢ والذي استشرى بالإهمال والفساد، وصلَ إلى حدّ تربّح أحد مُدَرائها منها بمبلغ وصل لأكثر من ثلاثين مليونًا عام ٢٠٠٧، وكان طبيعيًّا جدًّا بعد أن كانت هذه الحديقة معلمًا عالميًّا مصنفًا على أعلى مستوى أن تخرج من عضوية الاتحاد الدولي لحدائق الحيوان عام ٢٠٠٤ ولم تعد إليه حتى الآن، مع عشوائية القرارات التي تتناسب مع مزاج المسئولين والنوبة التي تعتريهم.. مرةً يقرّرون نقلها إلى مدينة ٦ أكتوبر، وأخرى يُطالِب فيها محافظ القاهرة ضمّها إلى محافظته؛ فلديه خطة لتطويرها وجعلِها مزارًا أثريًّا وسياحيًّا

هامًّا، ويتمّ رفض طلبه من قِبل رئيس الوزارء، وهكذا وصل بُؤس الحال بالحيوانات التي تجلس وتتحرك أمامكِ بكسلٍ كما ترين.

قالت ميرفت بحماسٍ:

– لقد أثرتِ فضولي، سوف أستغلّ الهيبة التي نحن فيها الآن وأُطالب بزيارةِ الاستراحة الملكية والكشك الياباني هذا، بينما تنهين أنت مهمّتك.

ضحكتْ سميرة ضحكةً قصيرة واعتدلت في جِلستها دون أن تردّ عليها في نفس اللحظة التي وصلت فيها السيارة إلى المبنى الإداري والذي يسمّى البيت الحكومي، وبه الإدارة المركزية لحدائق الحيوان على مستوى مصر.

التّرحاب المبالَغ فيه من إدارة الحديقة مع تقديم المشروبات الباردة التي طلبتها سميرة وميرفت كان أمرًا طبيعيًّا، وأخيرًا نطق المسئول وهو يمدُّ يدَه إليها بملفّ صغير يحوي وريقاتٍ قد لا تتجاوز الثلاث قائلًا:

– الأوراقُ مُعدّة وجاهزةً للتوقيع مباشرة يا دكتورة، هل ستوقّعين الآن أم لكِ مطالبُ قبلها؟

تنحنحَتْ ميرفت وهي لا تجدُ سبيلًا لمطلبها وقد انتهت المهمّة قبل بدئها، وحاولت قولَ شيءٍ ما، ولكن قاطعتها سميرة بمطلب منحها ما تريدُ حين قالت مبتسمةً:

– أطلب فقط رؤية هذا الحيوان، حتى يمكننا استحلال المال الذي سنحصلُ عليه مقابل هذه الزيارة.

ابتسمَ الرجل بدبلوماسيةٍ وأشار لأحدِ مرافقيه بالذهاب معها إلى القفص المخصّص للحيوان، وأعطاه الملفّ الصغير لتقرأ سميرة ما به إن أرادت أثناء مشاهدتها، في حين قالت ميرفت بخجلٍ مصطنع:

- هل يمكنني طلبُ شيءٍ خاص؟

وبالطبع لم يتردّد الرجل في الموافقة على طلبها، وأرسل معها آخرَ يستعرض لها ما أرادت حتى تنتهي سميرة من مهمّتها القصيرة والسّريعة.

وقفتْ سميرة أمام الحيوان الذي لم ترَ له مثيلًا من قبل تستطلعه بتعجّب وهي تتسائل: كيف أمكنهم تصنيفُه قردًا؟!

فهيئتُهُ معتدلةٌ تمامًا ومتناسقةٌ لحدّ كبير، وبشرته تخالف ما اعتادت عيناها عليه عند رؤية القرود، ولكنْ لضعف خبرتها في هذا المجال وليقينها بأنهم خبراء أكثرَ منها لم يطلْ تساؤلها أو تعجّبها، ونظرت في الورقة لتجد أنّه مصنفٌ كإنسان الغاب.

ولحُسْن طالعها وأثناءِ بحثِها عن معلومات تخصّ حديقة الحيوانات والقرود وفصائلها قبيل الزيارة، كانت قد قرأت ورأت بعض الصور لإنسانِ الغاب هذا، وتذكرُ ملامحَه جيدًا بوجهه الممسوح وشفتيه الرّفيعتين واللتين لا تكادا تبرزان، وكذلك جمجمته شبه المنحرفة بزاوية حادّة للخلف والزلقة من أعلى، على نقيض ما تراه عيناها الآن.. فالجمجمةُ مكتملة ومستديرة وكبيرة الحجم جدًّا مقارنة بما رأته، والشّفتان غليظتان وبارزتان تمامًا، والشّعرُ

الكثيفُ يغزو وجهه بشكلٍ كبير، بالكاد تظهر عيناه مع منطقة بسيطة حول فمه وأنفه، حتى يداه رغم أظافرها البارزة والطويلة ولكنّها كانت متناسقة جدًّا، والقدمان عريضتان بشكلٍ أكبر، وكانت أعضاؤه التناسلية مختفيةً تمامًا خلف الشعر الكثيف بشكلٍ مُبالَغٍ فيه.

فالتفتَتْ نحو مرافقها وسألته قائلةً:

– مَن الذي صنّف هذا الحيوان على أنّه إنسان الغاب؟

قال الرّجل بسرعةٍ:

– إنّه الدكتور محسن.

هزّت رأسها بتعجّبٍ، وقالت لنفسها:

– حتمًا هو أعلمُ منّي بدرجة الدكتوراه التي لديه في هذا الشأن.

فذيّلت الأوراق بتوقيعها ومنحتْها للرجل وهي تنظر للمأكولات التي تتناثرُ حول الحيوان والمكوّنة من مَوزٍ وفول سوداني وبعض قطع البسكويت، لتجدَه قدِ التهم أغلب المَوْز والبسكويت ولكنّ أكوامَ الفول السوداني ما زالت كلّها محتفظةً بقشرتها الغليظة، ولا توجد حتّى واحدة متكسّرة وملقاة جانبًا تُظهر بأنه اقترب منها، وأخيرًا ألقتْ نظرةً سريعة نحو وجْه هذا الحيوان البائس وهي تستدير منطلقةً بعد أن أتمّت مهمّتها بنجاح.

ولكن..

كصاعقةٍ أصابتها الْتَفتت بسرعةٍ مرّة أخرى بكلّ كيانها تجاه الحيوان وهي تحدقُ نحو وجْهه بذهولٍ حتى إنها خلعتْ نظّارتها السميكة وكأنها قد حجبتْ عنها شيئًا ما، واستمرّت في التدقيق أكثر بعد أن ارْتدتها وظلّت على نظرتها الثابتة نحو وجهه، ممّا دفع مرافقها لأنْ يقول لها بتساؤل كبير:

– ماذا هناك يا دكتورة؟!

قالت سميرة دونَ أن ترفع بصرها عن الحيوان:

– في أيّ مجال كانت الدّكتوراه التى حصل عليها د. محسن هذا؟!

قال الرّجل بترددٍ:

– إنه طبيبٌ بيطريٌ معين بشهادةِ تخرجه ولم يحصل على الدكتوراه أو أيّ شهاداتٍ أخرى.

التفتَتْ نحوه سميرة بعينين متّسعتين، وقالت:

– واعتمدتم تصنيفَه هكذا بمنتهى البساطة!! لماذا تمّ استدعائي إذًا؟!!.

قال الرجل بتوترٍ:

– إنّها مجرد أعمال روتينية يا دكتورة، ولا نريد صداعًا، فالحيوانُ سيتمّ وضعه بقفصٍ للعرض، مثله مثلَ آلاف الحيوانات، وليس هو ما يمثّل فارقًا في أيّ شيء.

امتعضَتْ سميرة وقالت له:

– هيّا إلى المدير. هذا المخلوقُ الذي تستهين به قد يكون سببًا في تغْيير تاريخ الأرض كلّها.

ولم تكنْ تدري بأنّ جُملتها التي كانت تحاول المبالغة فيها، إنما كانت معبّرةً– ولأقصى مدى– عن حقيقته بالفعل!

***

– رجاء، أريد معرفة كلّ التفاصيل المتعلّقة بهذا المخلوق بعيدًا عن الكلام الرسمي المتواجد بالملفّ، كيف ظهر.. ومَن اكتشفه.. وكيف تمّ إلقاءُ القبض عليه.. وما هي ردودُ أفعاله.. وما يقوم به منذ جاء هنا؟!!

نطقتْ سميرة بهذه العبارة متسائلةً بها لمدير الحديقة الذي قال لها متعجّبًا:

– لماذا يا دكتورة كلّ ذلك؟!

قالتْ سميرة باهتمامٍ وحماس:

– أَشُكّ أن يكون منتميًا لأيّ فصيلة تتبع القرود أصلًا، لو حدث وأثبتنا ذلك سيكون اكتشافًا علميًّا مذهلًا، يفتح آفاقًا جديدةً ومثيرة للجدلِ بين كلّ الفئات، هناك مَن سيحاولُ بها إثباتَ نظرية النشوء والارتقاء لداروين، وآخرون سيقولون "ويخلق ما لا تعلمون"، وربما مِن خلاله نكتشف سرًّاً كونيًّا جديدًا.

قلّب الرجل كفّيه قائلًا:

– أنتِ بنفسك قلتِ إنّها ستثير المشاكل، فلمَ ذلك!؟ أرجوكِ يا دكتورة، نُريد الابتعادَ عن دائرةِ الضّوء والاهتمام الإعلامي الذي سيجلبُ لنا الكثير من المتاعب.

قالت سميرة وهي ما زالت محتفظةً بحماسها:

– يا سيدي، أتحدّث عن كشفٍ علميّ كبير، الجدلُ فيه ليس بمشاكل وإنّما إثراءٌ له سيكشفُ آفاقًا جديدة لكل الأطراف.

حاولَ الرجل التحلّي بالهدوء وقال:

– حسنًا يا دكتورة، ربما لو كانَ هذا القرد في دولةٍ أخرى لحدث معه مثل ما تقولين، إنما معنا لن يحدث كلّ ذلك، الجهات التي ستتنازع عليه، والموافقات والتّراخيص اللازمة والإمكانات المادية الكبيرة لأي بحثٍ علمي كبير غيرُ متوفرة، وفي لمحِ البصر سينسى الجميعُ كلّ هذا، ولن يصير إلّا وقفته في قفصه ليمرح الأطفال بقذفه بفائض مأكُولاتهم، وستبقى فقط جولاتُ الصحفيّين بكاميراتهم التي ترصد سلبياتٍ كثيرة لا يدَ لنا فيها وخارجةً عن سيطرتنا، فلمَ كلّ ذلك؟!

بدأت حماسةُ سميرةَ في الذّهاب وهي تقول برجاء:

– أرجوك، دعْ لي هذا الأمر، وسوف أُنسّق كلّ شيءٍ، وهذا البحث سيكون تحت مسئوليتي الشخصية.

عندما وجد الرجلُ تشبّثها برأيها بالغًا؛ أراد أن يظهر لها جانبًا يثنيها عمّا تريد فقال:

– يا دكتورة، نحن في حديقة الحيوان، ومجيئك أصلًا خطأ إداريّ تجاوزنا عنه، فهذا ليسَ بمجالك.

قالتْ سميرة وهي تحاولُ التشبّث بآخرِ خيطٍ رفيع من الأمل:

– هل تريد أمرًا رسميًّا وصريحًا بذلك؟

جاوبها الرجل بنفس الصّرامةِ وبوجهٍ جامد خالٍ من التعبيرات قائلًا:

– لدينا الأوراق التي تثبت أنكِ عاينتِ القرد، وقمتِ بتصنيفه بالفعل يا دكتورة، ومهمّتك عندنا قد انتهت، وأيّ أمرٍ يخالف ذلك أنتِ أوّل مَن يُحاسب على أخطائه.

نظرت سميرة نحوَه مليًّا بصمت، وقد أدركت أنّ الأمل قد لفظ أنفاسه الأخيرة، والمناقشة قد انتهت، فقامت واقفةً وهي تُخرج جوالها لتتّصل بميرفت تستدعيها لأجلِ الانصراف، والتي كان ظهورُها على الباب عائدةً من رحلتها قد لبّى لها مطلبَها قبل أن تفعل.

***

– يا دكتورة سميرة، لماذا تثيرين القلاقلَ في أوّل مهمّةٍ ميدانية لكِ؟! أخبرتك بأنها قد تكون بداية خيرٍ كبير في مهمّات كثيرةٍ مشابهة!!

نطقَ مدير المركز بهذه الجملة وهو يحاول كظمَ غيظٍ كبير يكتنفه بعد استشعاره بأنه قد فتحَ بابًا كبيرًا لمتاعبَ جمّة بتعامله المريح والفائق معها، فقد اكتنفَهُ الندمُ لعدم اكتفائهِ بتجديد تأسيس مكتبها وفقط، أو حتى نقلها منفردةً لمكتبٍ جديد، به وسائل الراحة والتسلية التي تُلهيها، وتنسيها أيّ مطالب أخرى مرهقة، لقد فتّح عينيها على ما لم يخطرْ ببالها، وها هي قد عادت إليه بأولى المشاكل ولم تتصرف بحنكةٍ وواقعيةٍ كبقية زملائها!

قالت سميرة بمنتهى الحماس:

– يا دكتور، أحدّثك عن كشفٍ علميّ مُبهر سيزلزلُ العالم، أقسم لك بأنّ هذا الكائن ليس حيوانًا، ولديّ احتمالٌ كبيرٌ بأنه بشري.. هذا تخصّصي، سبحان الله قد تكون هذه صدفةً وهدية إلهيّة لنا بأن أذهب أنا خصيصًا لها لأكتشف ذلك.

تنهّد الرجل وقال لها ببطءٍ دون ذرّةِ فضول:

– وما الذي جعلك تحكمينَ بذلك؟ لقد قيل لي بأنّكِ وقّعت الورق وكنت على وشكِ الانصراف، ما الذي قلب الموازين في اللحظة الأخيرة؟!

اعتدلتْ سميرة وقد وصل الحماسُ الذي يكتنفُها لمداه، وقالت:

– سبحان الله هذه صدفةٌ ومنحةٌ أخرى، بالفعل في اللحظة الأخيرة وحين التفاتي لمحت ردَّ فعلٍ على وجه هذا الكائن من المستحيل أن يصدر من غيرِ البشر، لقدِ ارْتسمت على وجهه ابتسامةٌ خاطفة!!

ارتفع حاجبا الرجل دهشة، ولكن لسببٍ مخالف لما تظنّه سميرة تمامًا وهو يقول:

– بالله عليك، لمجرّد لمحةٍ قد تكون وهمًا أو خيالًا كاذبًا تراءى لك تفتعلين كلّ هذه المشاكل؟!

فجأة، خبا حماسُ سميرة كشعلةٍ انطفأت دفعةً واحدة بإلقاءِ دلوِ ماء بارد عليها، وتجمّدت دفعة واحدة وقد أدركت بأنها– أبدًا– لن تجد مَن يشاركها نهمَها أو اهتمامها بهذا الأمر، تذكّرت قول مدير الحديقة بأنّ ذهابها كان خطأً إداريًّا، وبالتالي لا يمكنها سلوك القنوات الرسمية، كانت تعتمدُ على إثارةِ اهتمام المدير وفضوله العلمي المحتمل لتيسّر ما تريده من عمل دراسات لهذا الكشف غير العادي، ولكنها الآن اكتملتْ لديها جميعُ أركان الصدمة بفشل ذلك، لانت ملامحها وقد ارتسمتْ عليها آياتُ الإحباط وبصوتٍ خفيض مختنق بأيدي اليأس قالت له:

– شكرًا يا دكتور على كلّ شيء. استأذنك.

وجلست سميرة خلفَ مكتبها، ويدُها تنقر على سطحه نقراتٍ سريعة متتالية، وقد ألجمها الصّمت تمامًا، حتى إنها لم تسمعْ نداء ميرفت عليها والتي قامت إليها تهزّها لتفيقها من السِّنَة التي أخذتها لعالَم الذّهول، بجفونٍ مرتخية وملامحَ كسولةٍ قالت لها:

– نعم يا ميرفت، ماذا تُريدين؟

قالت ميرفت متعجبةً:

– ماذا بكِ؟ ولِم تغير حالُكِ هكذا بعد عودتكِ من مكتب المدير؟!

تنهّدتْ سميرة وزفرتْ زفرةً حارّة، وقالت لها:

– لا عليك.. لا جديد.. العجيبُ أني كنت قد اعتدتُ على ذلك، وجاءت هذه الزيارة لتقلب الموازين وتعيدَ لي أمرًا كنتُ أظنّه قد انزوى.

– هل ما زلتِ مُصرّةً على فحص هذا الحيوان مرةً أخرى؟ وأنه بشري!! لماذا تبحثين عن المتاعب؟! دعكِ من المثاليات التي تُصرّين عليها؛ أنتِ في مصر!

نظرتْ سميرة مليًّا إليها وهزّت رأسها، وهي تتذكّر أنّ ميرفت نفسها لمْ ترَ هذا الكائن، وبعد كلّ ما قصّته عنه أثناء عودتهم بالأمس لم ينتابها أيّ فضول حتى لرؤيته، وبالتالي الانفصام واختلاف الاهتمامات قد بنى حاجزًا عن التفاهم بينهما في هذا الأمر، فرسمت ابتسامةً بائسة ميتة وقالت لها:

– حسنًا يا ميرفت، أنتِ على حقّ.

وارتفع رنينُ جوّالها من داخل حقيبتها ففتحتها لتتناوله، ولكن اصطدمت عيناها بما أيقظ حماسَها من سُباته مرةً أخرى، لقد كانت البطاقة التي تحملُ الأرقامَ الخاصّة لوزير البحث العلمي.

***

عبرتِ السيارةُ الفارهة من نفس بوابة الحديقة وبداخلها نفس الثلاثة.. السائق وميرفت وسميرة الوحيدة التي قد تبدّل الحال لديها مائة وثمانين درجة، فقد كان الحماسُ يشتعل بجنباتها، وعيناها تتألقان جذلًا وشغفًا، شعورًا أنها تُؤدّي مهمةً علميّة كبرى قد تخرج منها بكشفٍ علميّ كبير، حتمًا يناقض إحساسها الرتيب بأنها خرجت في نزهةٍ مدفوعة الأجر تملقًا لمكانتها التي ظهرت عليها كما كان الحال في الزيارة السابقة، الآن تشعرُ بأنّ السيارةَ أكثرُ راحة والشمسَ مشرقة ببزوغٍ فائق، حتى أشجار الحديقة كانت تهتزّ وتتمايل بصوتٍ شجيّ حسِبتْه ترحيبًا كبيرًا بها، والحيواناتِ التي كانت تراها بائسةً أصبحتْ تتقافز وتلْهو بمرحٍ، ومَن يستكين منها إنما يستمتع بأشعة الشّمس التي أصبحت حانيةً عليه، وصلتْ لمكتب المدير الذي انتفض مِن موضعه وقد تلقّى مكالمة سابقة أغنَتْه عن الاهتمام بقراءة فحْوى الخطاب الرسمي الذي جاءت به، فألقاه جانبًا، ونطق بكلّ عبارات الاعتذار التي يعرفها لها عن تصرّفه في المرةِ السابقة، وأنّ الوطن يجب أن يُقدر العلم والعلماء، والحديقةُ مفتوحة لها في أيّ وقت تشاء وجميع إمكاناتها تحت أمرها، وسوف يوفّر لها أي طاقم بأيّ عددٍ تطلبه للمساعدة في إجراء دراساتها، بمنتهى البساطة أمسكت سميرة بقلمها، ودفْترها مفتوحٌ فوق رجليها وعدلت نظارتها، وقالت له:

– أريد أولًا معرفة تفاصيل قصّة الإمساك به، ووصوله إلى هنا.

ابتلع الرجل ريقَه بصعوبةٍ، وبعد تردّدٍ خفيف قال:

– بعضُ طلبة الجامعة الألمانية بالتجمّع الخامس تخطّوا السّورَ المفتوح للغابةِ المتحجرة من ناحية جامعتهم، وأثناء لهوهم بها اندفعوا عائدين وهُم يصرخون كأنما يُطاردهم شيطانٌ، وأبلغ أحدُهم عن وجود وحْش بها، ولكنْ ظنّ ضابط القسم بأنه لهوٌ من بعض الشباب العابث ولم يهتمّ إلّا بعد مجيء محضرَيْن آخرين بنفس الفحوى والشكوى، فتحرّكت قوةٌ مدْعومة بسيارةٍ لصيد الحيوانات الضّالة، وبها بعض المتخصّصين في ذلك، ووجدوه جالسًا في ظلِّ تَبّةٍ رملية في صمتٍ عجيب، حتّى إنهم كان سهلًا عليهم صيدُه بشبكةٍ كبيرة أُلقيت عليه وجرّته إلى داخل السيارة، وتمّ تسليمه إلينا.

توقّفت سميرة عن الكتابة، وقالت في دهشةٍ:

– غريبٌ أنّ هذا لم يردْ بأيّ صحيفةٍ أو مواقع إخبارية، ولم نسمع عنه مطلقًا!!

تنهّد الرجلُ، وقال وهو يضغطُ على حروفهِ:

– تجنّبًا للقلق والمشاكلِ التي لا داعي لها يا دكتورة.

فهمتْ سميرة ما يرمي إليه، ولكنّها تجاهلته وقالت له:

– حدّثني عن حركاته وردود أفعالهِ داخل قفصه.

هزّ الرجل كتفيه ببساطةٍ وقال:

– لا جديد، مثلُه مثل كلّ القردة العادية بنفس حركاتِها وردود أفعالها.

نظرتْ سميرة إليه مليًّا، وقالت:

- هل أنتَ متأكّدٌ من ذلك؟

- بالطبع.

- حسنًا، لماذا لم يأكلْ الفول السوداني كبقيةِ القرود إذن؟

- ومَن قال لكِ ذلك، لقد أكلَها كلّها.

- لقد رأيتُها بنفسي، ولم يقترب حتى منها، وإنما تناولَ الموز وقطع البسكويت الجافة!

- لقد أكلَها بعد انصرافك يا دكتورة.

شعرتْ سميرة بعدم جدوى الحديث، وقرّرت أن تبدأ جميعَ الدراسات من النّقطة صفر، فقامت واقفةً وقالت:

- حسنًا، أريد مشاهدته الآن مرّة أخرى مطالعة متفحّصة، وسوف أضعُ خطّة الدراسة المطلوبة، وأخبرك بالمطلوب بإذن الله.

قام الرجلُ من موضعه وتحرّك جانبًا من خلف مكتبه وهو يقول:

- كما تريدين يا دكتورة، سآتي معك بنفسي لأجْل هذه المعاينة.

ابتسمتْ سميرة ابتسامةً خاوية، وانطلقت بصحبته، ومعها ميرفت الصّامتة هذه المرّة، سارت الهوينى وهي تستنشق الهواء بانتعاش كأنما هي

ذاهبةٌ لموعدٍ غرامي، كان الوجلُ يلفّها والتّرقب يحتويها، أخيرًا ستنشغلُ بما تعشقه، أخيرًا ستعمل على ما تهواه، هذا هو المجال الذي لأجله درستْ وتعمقتْ وتعبتْ في العلمِ الذي بين جنبيها.

اقتربتْ من القفص، والكائن في ركنٍ قصيّ به، وظِلّه ظاهرٌ من بعيد وهو جالسٌ معطيًا ظهره للقادم، ومنشغلًا في شيء ما، ازداد الوضوحُ وهي تقترب منه، ولكن كان بعض التغيير واضحًا عليه، انحناء جسمه للأمام ليس لأنه منشغلٌ بتناول بعض طعامه وإنما بدرجةٍ مبالغ فيها تخالفُ ما رأته في المرّة السابقة، ازدادت تفاصيل الاختلاف أكثر مع كلّ خطوةٍ تقتربُ بها منه، وعندما توقّفتْ أمام القفص وطرقَ المدير بيدِه على القضبان واجهَتْها المفاجأة التي لمْ تخطرْ ببالها، فقد استدار نحْوها بوجهٍ يخالف تمامًا الذي رأتهُ في المرّةِ السابقة، لقد استبدلوه بقردٍ حقيقيّ هذه المرّة، وبهذا فقد نفّذوا أمرًا جاءهم من سلطةٍ عُلوية، ولكن احتفظوا بما يريدون.

***

كعادتها، طرقت سميرة البابَ بيدها ولم تستخدم الجرس، جاوبها الصّمتُ، وبعد برهةٍ تهادى إلى سمعها أزيزٌ خفيف لعجلات تجاهد لسرعةِ الوصول والإجابة عليها، انفتح البابُ لتشرقَ خلفه شمسٌ بهية ببسمةٍ واسعة أنارت الوجهَ المُضيء الساطع، إنها "منى" بملامحِها الرّقيقة الدقيقة ووجهِها الأبيض المستدير وشعيراتها النافرة أسفل الحجاب الذي ارتدته

على عجلٍ تُعطي لمحةً سريعة عن تاجٍ مُنسدلٍ حتى كتفيها بنعومةٍ وتألّق، وبصوتٍ متهدج بفرحة غامرة قالت:

– سميرة، يا لكِ من قاسية، أين أنتِ منذ شهرٍ كامل؟!

احتضنتْ سميرة كفّها بحنانٍ غامر، ومالت بجذعِها لتطبعَ قبلةً حارّة على وجنتيها، وقبل أن تنطق همّت بأنْ تمدّ يدها لتمسكِ بمقُود الكرسي المتحرّك الذي تعتليه "منى" بإعاقتها التي نالت من ساقيها بشكلٍ كامل، وجعلتها حبيسَته الدائمة، ولكن تذكّرت ما سينالها إن فعلت، فألجمتْ حركةَ يديها بسرعةٍ وابتسمت قائلةً:

– إنّه عذري الدّائم والذي لا أجدُ غيره.. مشاغلُ الحياة يا حبيبتي.

بحركةٍ سريعة وتلقائية استدارتْ "منى" بكرسيها لتنطلق أمامها بنعومة وهي تقول:

– تعالي يا أيتها العالِمة الذّكية، لدي ما لا أُطيق صبرًا لعرضهِ عليك.

سارتْ سميرة خلفها عابرةً الصالة البسيطة والصغيرة والتي تحوي أريكةً بدائية كبيرة حشْوها مغطّى بقماشٍ قديم منقوش بألوانٍ عدّة، ووسادةٍ مُلقاة بلا عناية فوقها يستخدمها أخوها لمبيتهِ اليومِي فوقَ هذه الأريكة، وعدّةَ مقاعدَ خيرزانية على جانبٍ آخر وتفترشُ أرضيتَها حصيرةٌ متهدّلة ومتقطّعة الأطراف، والجدرانُ يتساقط عنها الدهان الجيري بأكثرَ من موضع صانعًا أشكالًا تنافس ضربات فرشاة فاروق حسني بلوحاته الشهيرة، دخلت خلفها

للحجرةِ المزدحمة بسريريْن على الجانبين مع خزانة ملابس في الطرف المقابل، وبالكاد عبرتْ "منى" بين السريرين بكرسيها بمهارةٍ اعتادت عليها حتى وصلت إلى المائدةِ الخشبية العتيقة، والتي تحمل حاسوبًا حديثًا يخالف كلّ ما اعتادت عليه العينُ بهذا المنزل البسيط، وبضرباتٍ سريعة وماهرةٍ فتحت أحدَ المواقع، وجالت بين صفحاته واستحضرت صورة منها، وفتحتها ملء الشّاشة، وتراجعت بكرسيّها جانبًا وهي تشير لسميرة قائلةً:

- فلتباركي لي.

اقتربتْ سميرة من الشاشة وهي تعدل نظارتها، ومالت لتدقّقَ مُطالعة الصورة، واعتدلت وهي تقول بانبهارٍ:

- رائع يا "منى"، هذا ما توقّعته منكِ، وأنتظر المزيد.

انتشَتْ "منى" بفرحةٍ وقالت:

- لن أُخيّب أملَكِ أبدًا.

جلست سميرة على أحدِ الأسرّة، وسرحتْ ببصرها وهي تتذكّرُ لقاءَها الأوّل مع "منى"، كان ذلك عقبَ معرفتها بتعْيينِ المعيد الثالث بطريقةٍ ملتوية بديلًا عنها، مشاعرُ الألمِ والإحباط كانا يفترساها، شعرت أنّ الحياةَ خواءٌ ولا معنى لها، جهدهُا وعلمُها وآمالُها المغدورون دفعوها لتشعر كأنها أمّ فقدتْ جميع أبنائها تحت سيارةٍ ضخمة أمام عينيها فأُصيبت بيأسٍ مقيت بعد ذهابهم، خرجت لتتمشّى بلا هدفٍ لتُفرغَ طاقةً مكبوتة لا تستطيعُ التّنفيس

عنها، وبينما كانت تسير الهوينى بإحدى الحدائق العامة، وهي تضربُ بعض الحصوات بقدمها، إذا بها ترى "منى" وقد علَقَ كرسيها المدولب بين شجيرتين وهي تقاتلُ لتفضّ الاشْتباك الحاصل بينهما، بتلقائيةٍ اندفعت نحْوها لتمدّ لها يدَ المساعدة وقد آلمها مشهدُ "منى" بجمالها وجاذبيتها مع مناقضة نصفها السفلي لتألّقها العلوي، ما إنْ أمسكت بمقْوَد الكرسي حتى صرخت فيها "منى" قائلةً:

- تراجعي لو سمحت، لم أطلبْ منكِ المعونة.

بهتتْ سميرة لهذا العنفِ في الردّ، وارتبكت وهي لا تدري، هل تغضب منها وتصفُها بقلّة الذّوقِ، أم تشفق عليها بشكلٍ أكبر، فقالت بتردّدٍ:

- الكرسيُ عالقٌ، وبعض الأفرع متداخلة بين فرجات العجلتين.

مسحتْ "منى" حبّات العَرَق التي تفصّدت عن جبهتها، وقالت بصوت مُغلفٍ برجاءٍ هادئ:

- أنا شاكرة لك جدًّا، ولكنْ دعيني أُحاول تخليصَ نفسي.

هزّت سميرة رأسها، ووقفت جانبًا ترقبها عن كثبٍ، ومنى تُحاول مدّ يديها لتجذبَ الأفرع التي أخبرتها عنها، أو تكسرُ ما اشتبك منها بقوةٍ، وعندما حاولت دفعَ الكرسي تحرّك للأمام قليلًا، ولكن توقف فجأةً بصورةٍ كادت تُطيح بجليستهِ للأمام من فوقه، هبّت سميرة نحوها ولكنْ أوقفتْها

إشارةُ يدِ "منى" التي جاهدت لتبتسم وهي تتمسك بجانبي الكرسي بقوةٍ قائلة:

– ما زلتُ متماسكةً، شكرًا لك.

وظلّت "منى" تجاهد خمسَ دقائق بتحرّك للأمام والخلف حتى نجحت في تخليص نفسها بالفعل، ووجهُها يحملُ بسمةَ ظفرٍ كبيرة.

لم تستطعْ سميرة منعَ البسمة العريضة التي ارتسمت على وجهها كذلك، وتقدّمت نحوها قائلةً:

– كان من السّهل تخليصك بدلًا من كلّ هذه المعاناة، وليس في ذلك أيّ انتقاصٍ لكِ.

أخذتْ "منى" نفسًا عميقًا، وقالت:

– أجملُ ما في الحياة هو الصّراعُ فيها، ومنتهى اللذّة هي لحظة النصر حتّى لو كان في أمرٍ صغير أو تافه، ولم أردْ أن أحرمَ نفسي من ذلك.

كلماتٌ بسيطة ومباشرة نزلتْ على قلب سميرة بردًا وسلامًا، خففت ما بها وقضتْ على كلّ مشاعرها السلبية، وكانت سببًا فيما بعد لأن تجاهدَ وتذهب مباشرةً لنيلِ درجة الماجستير، وما أعقبها من تقدم أحْرزته، يومها جالست "منى" بالحديقة لمدةِ ساعة كاملة لتعلم بأنها قعيدةٌ منذ الصّغر بسبب مرضِ شلل الأطفال الذي اغتالها، وبرغم ذلك استمرّت في صفوف التعليم ولم

يمنعها عن الاستمرارِ سوى فقرِ الحال وبساطةِ أسْرتها التي دفعتها للحصول على أحد الدبلومات الفنيّة وكفى، فماذا ستفعل بتعليمٍ عال ومُرهقٍ لهم ماديًّا، وبلا عائدٍ فيما بعد، إن كان المعافونَ يتزاحمون على المقاهي فهل ستسبقهم هي بقدميها الفقيدتين؟!

وبعد تخرّجها، أرشدها البعضُ على طرقِ نيل مساعدات المعاقين الدّورية، ولكنها رفضت وبحثت عن سبيل الظّفر بإحدى الوظائف المستحقّة لهؤلاء المعاقين، وفازتْ بإحداها لدى أحدِ المصانع الحكومية، وظيفة مكتبية لا جُهد فيها يراها الكثيرون مُجرّد غطاءٍ لمنحِ مساعدةٍ شهرية مُقنَّعةٍ لها، ولكنّها قلبت لهم الموازين بنشاطها وتصميمها ووضعها لنظامٍ خاصّ وجديد للعمل في القسم الذي عُينت به، ومع ذلك لم تتوانَ، وكانتْ تحضرُ دروسَ تحفيظ القرآن الكريم، وتشارك إحدى الجمعيات الخيرية في دروس محْو الأمية، ويومها دومًا مليءٌ بالحركةِ والنشاط.

شعرتْ سميرة- في نهاية حديثها معها- أنها هي المعاقةُ وليست "منى" التي منحتها طاقةً هائلة كانت سببًا في دفعها كثيرًا للأمام، فتوطدت صلتُها بها وصاحبَتْها في كثيرٍ من أنشطة الجمعية الخيرية التي تشارك فيها، ولعلم سميرة بأنَّ أكثرَ ما يغيظ "منى" هو أنْ تَظهر شفقةٌ في عيني مخلوقٍ نحوها، كانت تتحسّس كثيرًا وهي تبحث عن سُبلِ مساعدتها، رأتْ في "منى" قدراتٍ كثيرةً تنتظر الصّقل، وعندما علمت أنّ أمنيتها للمرحلة القادمة هي تعلّم بعضَ اللغات قامت بعملِ دراسةٍ كبيرةٍ ببطء وتمْحيص حتى وصلت

للخطّة المتكاملة لمساعدتها دون إيذاءٍ نفسي، وبكلٍّ بساطةٍ عرضت على "منى" خطّتها دون مُواراة، أخبرتها بأنّها في حاجةٍ لحاسوبٍ حديث واشتراك رسمي في مواقع بعض معاهد اللّغات العالمية التي تقوم بالتعليم عن بُعد، وكلُّ ذلك يستلزمُ مبلغًا كبيرًا قد لا يكون في طاقة "منى" الآن؛ لذا ستقرضها المبلغَ على أن تقوم بتسديدهِ حين عملها بعد ذلك في مجال الترجمة، وبعد عناءٍ وافقتْ "منى" على ذلك، وفي زمنٍ قياسي أجادت الإنجليزية والفرنسية وأصبحت مُترجمةً رسمية بأحدِ مكاتب الترجمة بالقاهرة، والعملُ كلّه من خلال منزلها، يرسلون لها المادّة المطلوب ترجمتها فترسلُ لهم الترجمة عبرَ بريدها الإلكتروني والتسديد يكون في حسابها البنكيّ الذي خصّصتهُ لذلك، وكان من اليسيرِ عليها بعد ذلك ردّ ديْنِها لسميرة التي غابتْ عنها منذ ذهابها لمؤتمر لندن الأخير، وما أعقبهُ من أحداثٍ بحديقة حيوان الجيزة.

والآن، وبعد حصولِ "منى" على شهادةٍ رسمية معتمدة بإجادتها للغة الألمانية كذلك خرجت سميرة وقد تجرّعت منها الجُرعة الجديدة من الأملِ وعدم اليأس مهْما ألَمَّ بها.

***

كانت سميرة- كعادتها- جالسةً في ركنٍ قصي بتلك القاعةِ الصاخبة بالنغماتِ الصارخة عبر سماعاتٍ ضخمة تطلق تلك الأصوات الرقمية والتي أصبح الجميعُ على مختلف ثقافاتهم أو انعدامها يُلقبونها بحرفين من

الإنجليزية (دي جي) وهي ترقبُ زميلتها بالمركز تتمايل بجسدها فرْحةً وانتشاءً بجوار خطيبها الذي يرسمُ بسمةً وقورة يظهر عليها المجاملة أكثر من السعادة، كأنما هي من المراسم الواجبة أمام المدعوين.

ولم تتمالك سميرة كظمَ ضحكتِها القصيرة عندما تذكرت أنّ هذه هي الحفلة الثالثة لخطبة نفسِ زميلتها بعد فشل الاثنتين السابقتين!

جذبتْ ضحكتها هذه انتباهَ رفيقتِها الدائمة ميرفت فرفعتْ حاجبيها في دهشةٍ مصطنعة وقالت:

- أخيرًا، وجدت في هذه الحفلات ما يُسعدك؟!

حافظت سميرة على بسمتها وقالت:

- يسعدني!! أنا فقط أضحكُ على المفارقة، نفس الطقوس للمرّة الثالثة، وجميعنا يتمنّى أن تكونَ الأخيرة.

نظرتْ ميرفت إليها بعتابٍ قائلة:

- كان بيدكِ أن تكونِي في موضعها الآن، لقد ظلَّ الرجلُ يناجيك عبرَ أكثر من زميلةٍ ولم يجدْ منكِ إلّا الصدود!

- لا عليك يا ميرفت، الزّواجُ رزقٌ ونصيب، وما يهمّني فيه التوافق أخلاقيًّا وفكريًّا.

- وماذا يعيبه؟ الرّجلُ على خلقٍ بالفعل! وحتّى غيره الكثيرون عندما طلبوا نفس مطْلبِه لم يواجههم منكِ إلّا الرّفض وبلا مبرراتٍ، وآخرهم

طبيبُ حديقة الحيوان الذي فعلَ الأعاجيب، وكان على استعدادٍ لعمل (عجينِ الفلاحة) لأجلكِ كأفضل قردٍ هناك، لولا معرفتي الوثيقة بكِ لقلتُ بأنّ هناك مَن يستولي على عقلِكِ وقلبكِ ويغشى بصرَكِ عمّن سواه.

ابتسمتْ سميرة ولم تردّ، وتوجّهت ببصرها نحو العروسين محاولةً شغل نفسها عن هذا الحديث، وإنهاءَه في نفس الوقت، لقد أطلقت ميرفت سهمًا أصاب سويداءَ الهدف بمنتهى الدّقة دون أن تدري، فرغم عدمِ معرفتها بعصام وقصّته إلّا أنّها وصفت بمنتهى البراعة تأثيرَه على سميرة، فهو كما قالت تمامًا قد استولى على عقلها وقلبها وأغشى بصرها عمّن سواه.

كانت عيناها مصوّبةً نحو منصّة العروسين، ورغم أن العروسَ لم تتحمّل الجلوس فقط للمشاهدة، وقامت منطلقةً لتنالَ حظّها من الرقصِ والتّقافز إلّا أنّ ما يتراءى لسميرة يتجاوز الصّالة بكلّ ما فيها، فقد كانت ذكرياتها الحالمة الجميلة مع عصام تتماثلُ لها، وتمعرت ملامحها بألمٍ لم تستطعْ كبحَه حين تذكّرت موقف النهاية.

***

- هل هكذا سينتهي الأمر؟

مِن بين دموعها تقاطرتْ كلماتُها مغلفةً بكلّ ألمِ الدنيا ومعبرةً عن قلبٍ ممزقٍ عاجزٍ عن النبض وإمداد العقل بقطرةٍ تمنحه لمحةً من قدرة على التفكير.

أشاح عصام بوجههِ المستطيل الوسيم والهادئ الملامح، والتي تُوحي بالطّيبةِ الشديدة حتى لا تنكسر عزيمته أمام مشهدها الذي يمزق نياطَ قلبه، وقال لها:

- أنتِ مَن رفضتِ صُحبتي.

بصوتٍ مُتهدج قالت:

- لنْ أتركَ مصرَ يا عصام، بها ما بهَا، وفيها كلّ الرزايا، ولكن نحن نُساعد على تخريبها إن تركناها لمن يُضيعها.

- وماذا ستفعلين إن شاء الله حتى لا تضيع؟!

- إن لم أفعل، على الأقلّ لن أترك فراغًا يُسّهل لهم مهمتهم التخريبية.

- لا أملَ يا سميرة، أنتِ بنفسك عانيتِ أكثرَ منّي، هذا ليس بلدنا، ما المانع أن نتركَها لنصقل قدراتنا العملية والعلمية وعندما نجدَ البيئةَ بها صالحةً كي نتنفّس فيها؛ أن نعود إليها؟

- إنْ تركناها بأيّ حجةٍ؛ تلك البيئة لن تأتِ أبدًا.

- لنْ أتركَ الفرصةَ التي جاءتني بكندا لأجْل وهمٍ لا أملَ في تحقيقه.

- فلتجعلْها سنواتٍ معدودات تحصل فيها على ما يمكنك للعودة بمكانةٍ تؤهّلكَ للعيش هنا.

- لم يعدْ هناك ما يمكنُ أن نُطلق عليه المؤهل للعيش هنا، سأذهبُ للعلماء الحقيقيّين للتعلّم منهم والعمل معهم والمحافظة على عقلي وروحي،

المسألةُ ليست المأكل والمشرب يا سميرة حتى أحصلَ على مالٍ يمنحني إيّاهم وفقط، لو عاد أحدهم بعلم دقيق في النانو تكنولوجي واستخداماتِ الليزر، في الغالب سيكون مجالُ عملِه إزالةَ النّمشِ والشّعر الزائد، أمّا هناك فيمكنه اقتحامُ المجرّاتِ الأخرى به.

انتفضتْ سميرة عندما جذبَتْها ميرفت من يدِها، وهي تقول لها:

- سيفوتنا البوفيه أيّتها التائهة.

تنهّدت سميرة بمرارةٍ وهي تتذكّر أنّ هذا الحوار قد مرّ عليه خمسة أعوام حاولت فيهم التّواصلَ معه إلكترونيًّا، ولكنّه أغلقَ كلّ السُّبلِ التي تعرفها محطّمًا كلّ قواربِ العودة حتى لا ينالَ منه ضعفُ مشاعره نحْوها، ورغم كلّ شيءٍ كان الأملُ يحوي قلبها ولا يفارقها، ومع كلّ عوامل اليأس التي تثقل كاهلها تعتقد بأنّ حالَ البلد قد يتبدلُ في المستقبل القريب وهي تستعدّ له كي يكون لها نصيبٌ من الحِمل الثّقيل الذي سيقع على عاتقِ الجميع، وما زالت أيضًا رغم انقطاع كلّ الخيوط التى قد تُوصلها لعصام تثقُ بأنه سيعود حتمًا لأجلها، مشاعرُه الفياضةُ وقلبُه النقي وضميرُه الحي سيجتمعون عليه ويطوقونه بالرباطِ الذي جمع بينهما، فلمْ ترَ منه لمحةَ عبثٍ أو رغبةً نازقة أو نقصًا شعوريًّا قد يدفعه للتخلّي الكامل عنها، ما زالت تذكرُ المؤتمر الذي حضرته منذ عامين بلندن، وعندما انتهت من كلمتها لمحتْ شخصًا يقف، وصوتُ تصفيقه قد سبقَ الجميع وعندما لاحقته ببصرها كان قد اختفى كأنما

هو شبحٌ انبثق وعادَ إلى العدم بسرعةٍ، ورغمَ شحّ الإضاءة بموقعه إلّا أنها أجزمت بأنه عصام، يقينٌ لا نزاع فيه ملأ صدرَها بأنه هو بالفعل سببُه ليس الدّليل البصري الضعيف وإنما النّداءُ الروحي الذي احتواها، ظلّت تبحثُ عنه وتنتظره ولكن لم تجدْه، إنه عصام الذي تثقُ به وبعودته ولن تتخلّى عنه، رغم عقليتها العلمية وتسليمِها بالنتائج العملية، إلّا أنّها عند عصام تُلقِي بكلّ ذلك جانبًا، ولا تُعير كلّ القواعد والمسلّمات العقلية اهتمامًا، ولم تعدْ تلك الأقاويل تنالُ منها، بأنّ عمرَها ينتهكُه سرابٌ يحسبُه الظمآنُ ماءً، وما زالتْ تتمسّك بالحلمِ الجميل الوحيد الذي يُعطي لحياتها لونًا ومعنى.

استفاقتْ للمرّة الثانية عندما اصطدمت يدُها بطبقٍ فُخاريّ يمده أحدُهم لها كي تضعَ به ما تُريد من أطعمةٍ، وهمّت أن تشكر مانحَه ولكنْ عبست ملامحها عندما وجدتْه الطبيبَ البيطري من حديقة حيوان الجيزة في إحدى الملاحقات التي لا يكفّ عنها محاولًا استمالتها، همّت أنْ تسمعه جملةً قاسية كعادتها، ولكنّه سبقها بلهجته الموحية بأنّ الأمرَ جللٌ حين قال:

– عندي لكِ مفاجأةٌ تخصّ القرد الذي تبحثين عنه.

***

على مدى سبعةِ أشهر لم تيْأس فيهم سميرة بعد فقدان أثرِ ذلك الكائن تمامًا، منذ أنْ واجهت مدير الحديقة بمنتهى الثّورة عقب اكتشافها بتبديل الكائن بقردٍ حقيقي، صرخت فيه بأنّ هذا غشّ وخداع، وأنها لن تسكتَ

فهي مدعومةٌ من أحدِ الوزارء وهدّدته بالعزْل، وأخبرها المدير- وقتها- بأنّ الحديقةَ بالكامل أمامَها فلتبحث فيها عما تريد وأنّه لا يخفي عنها شيئًا، ظلّت تزور الحديقةَ في جميع الأوقات علانيةً وسرًّا، وترسل آخرين بحثًا عنه، وزير البحث العلمي أخبرها أنه ليس بيدِه شيءٌ ليفعله تجاه ذلك، وأنّ ما يَسَعه قدْ ّقدمه بالفعل، ولم تنس ضحكته المتهكّمة عندما قال لها:

- ألمْ أخبرك بأنَّ العوائقَ كثيفةٌ وتفوق الجميع، المشكلةُ ليست في الرأس وحدَها، وإنما الجسدُ السّقيم الذي استشرت به الأمراض ونالت منه حتمًا سيحيطُ العقلَ المتألق بشباكِ العجز، ولن يُنفّذ له أوامره بأداءِ المهارات التي يطلبها.

ورغم كلّ ذلك لم تفقدِ الأمل، وظلّت تبحث عنه بشتّى السّبلِ، وكان ممّا وقعت فيه تبسّطها مع ذلك الطبيب البيطري، والذي كان يصطنع المواقف ليلتقي بها، ويظلّ يحاورها ساعةً كاملة دون أن تخرجَ منه بمعلومةٍ واحدة مفيدة، وعندما زاد إزعاجه لها بالاتصال الدائم وبلا داعٍ، ثارتْ عليه وطالبتهُ بعدم التواصلِ المطلق معها حتى لو وجدَ هذا الكائنَ بنفسه، فانتقل من خانةِ الملاحقة إلى أمرِ طلب يدِها،وقابل رفضَها بمنتهى البساطة كأنما كان يتوقّعهُ، ولم يكفّ عن ألاعيبَ جمّةٍ للتقرب منها، جرّب معها كلّ شيءٍ من وُسطاءَ وإغراءاتٍ مادية وتلبية كلّ رغباتها كي تقبلَ به، وبالطبع كان الصّدودُ هو

الردَّ الدّائم، لذا عندما وجدته أمامها يخبرها بأنّ هناك مفاجأةً تخصّ الكائن، ولعلمها السابق بأنه أفّاقٌ في هذا الشأن؛ لم تلتفتْ له، ولكي لا تجذب الأنظارَ نحوها هزّت رأسها بابتسامةٍ شاحبة وقالت بصوت خافتٍ:

- شكرًا يا دكتور.

همّت بوضْع طبقها عازمةً الانصراف وتركَ الحفل بأكمله، ولكن بلهجةٍ كلّها تضرّع قال لها:

- أرجوكِ يا د. سميرة، أريدُ منكِ فرصةً واحدة.

كادتْ تصيح، ولكن تلفّتت حولها ورأتْ أثرَ صياحها إن حدث فتمالكتْ نفسها، وقالت بحروفٍ مكظومة:

- فرصةً!! لماذا يا د. محسن؟

- لماذا كلّ هذا الرفض؟ لا يوجدُ مخلوقٌ سيئ بالمطلق، فقط اسمحي لي بالولوج قدْ تجدين نقيضَ ما ترين الآن، اللهُ- عزَّ وجل- منحَ عبادَه العاصين الفرصَ المتتالية للتقرّب منه، أفلا تفعلينها؟! أقسمُ بالله أنا مستعدّ لأيّ تغييرٍ قد ترغبين به لأجلك، فقط أخبريني بالمساوئ التي تُنفّرك مني.

ارتبكتْ سميرة وتردّدت وهي لا تدري بما تردّ، هي بالفعل لم تمنحْه فرصةً أو ذرّة من تفكير في شأنه؛ لأنها متشبعةٌ بسواه، وهذا ما لا يُمكنها ذكْره الآن، أشفقتْ عليه وهي تتعجّبُ مِن تمسّكه هذا بها، والذي قد يحسدها عليه كلّ

بناتِ جنسها، فظنّها أنه لم يرَ منها ما يجذبه لهذه الدّرجة إليها، لم تستطعْ زجرَه ولم تجد مخرجًا مناسبًا يخلّصها منه بشكلٍ نهائي، فقالت بهدوءٍ:

- حسنًا يا د. محسن، هل من الممكن أن تمنحني الوقتَ اللازم والهدوء الكافي بلا أيّ إزعاجٍ منك مهْما طالت المدّة، فقد أفعل ذلك يومًا ما؟

آلمها كلّ علاماتِ الفرحةِ الفائقة التى ارتسمتْ على وجهِه وارتجّ بها جسدُه، وغلفت صوته المتهدج قائلًا:

- أعدُك، ولنْ أكفّ عن الصّلوات والدعاء لأجلِ هذا.

هزّت رأسها بابتسامةٍ مُصطنعة وهي لا تجدُ ما تردّ به، وكعادتها مع محدّثيها اجترّت جملتَه بعقلها مرّةً ثانية حين قال «لا يوجدُ مخلوقٌ سيئٌ بالمطْلق، فقط اسمحي لي بالولوج، قدْ تجدين نقيضَ ما ترين الآن، اللهُ- عزَّ وجل- منحَ عبادَه العاصينَ الفرصَ المتتالية للتقرّبِ منه، أفلا تفعلينها؟!».

فطافَ بخلَدِها خاطرٌ سريع، وتساؤلٌ تطاير بسرعةِ البرق عمّا إذا كانَ من المُمْكن منحَه هذه الفرصةَ بالفعل، هزّت رأسها بقوةٍ كأنما تساعد على نفضِ آثاره، ولم تجد بُدًّا في الانصراف الفعلي من الحفل وقد ارتبكتْ مشاعرها للمرّة الأولى منذ معرفتها بعصام.

***

بسيارتها الصّغيرة كانت تتهادى عبر شوارع القاهرة النابضة بالحياة دومًا، والتي لا تخلو من الرّواد مهْما كان تأخّر ساعات الليل فيها، ظلّت تسرح بأفكارها مرّةً أخرى نحو عصام، تذكّرت أحلامَه المغدورة وآمالَه المغتصبة، ولم تزلْ- حتى الآن- لا تستوعب كيف بحنانهِ ومشاعرهِ الفياضة وقلبِه الطيب؛ استطاعَ تركَ أمّه وأخته وحدَهما هكذا!! تعلم أنّ له أخًا آخر من المفترض عليه رعايتهما، ولكنّه هاجر بأحلامه هو الآخر نحو مدينة الإسكندرية، وبعد أن كانت زياراتُه لهم متناثرةً عدّةَ مرّات عبر العام أصبح يكتفي بتحويلِ بعض المال لهما عبر مكاتب البريد، وينام هنيئًا بأنّ هذا كافٍ جدًّا وقد أدّى ما عليه من واجباتٍ نحوهما، تذكّرت مكالمتها الأخيرة مع والدتها، والتي لم تستطعْ كبحَ جماحِ دموعها الحارقة وهي تقول لها:

- يظنّون أنّ همومَ الدّنيا كلّها تنحصرُ في المال، ولا يعلمون أنّ ضمةً واحدةً منهما لصدْري تمنحني ما لا يمكن حصرهُ بكنوزِ الدنيا.

ولأنّ النسيانَ هو المآلُ لكلّ ما هو غائب عنّا، فقد تذكّرت بأنّ مكالماتها لها قد تباعدتْ بشكلٍ مُطّرد حتى إنها لم تسمعْ صوتها منذ أشْهر، وبلا تباطؤ ركنت سيارتها جانبًا، وطلبت رقمها منتظرةً سماع صوتها الحنون الدافئ الذي يمنحها الكثيرَ من المشاعر، ويعطيها جرعةً ممّا افتقدت إليه مع عصام.

ظلّ رنينُ الهاتف بلا انقطاعٍ أو استجابة من الطرف الآخر، هذه أوّل مرّةٍ تفعلها!! لقد اعتادتْ منها الرّد حتى لو أيقظتها من أجمل الأحلام، ولو

كانت نائمة حقًّا في هذه السّاعة، فمعروف عنها أنّ دبيبَ النمل يوقظها فما سرُّ عدم الرّد؟!

انتابها القلق، وشعرت أنّ هناك حدثًا جللًا قد ألمّ بها، واللهُ أعلم بتوقيته، فهي لا تدري عنها شيئًا منذ أمد، لهذا ولتأخّر السّاعة ليلًا وعند عودتها من عملها في اليوم التالي، كانت تقف أمامَ شقتها، وبعد طرقاتٍ ظنّت أنها ستطول بلا ردّ على بابها العتيق انفتح لها عن مفاجأةٍ لم تكنْ في الحُسبان كادت تُفقِدُها وعيَها لشدّةِ ذهولها بها.. فمنْ فتحَ لها الباب كان عصامًا بشحمه ولحمه!

***

عدمُ العتاب على ما يستوجبُ العقاب أشدُّ ألمًا من اللّوم والتأنيب إذا كان المخطئُ يشعر ويدري بجريمته، وهذا ما احتلّ عصام ونالَ منه بجلسته أمام سميرة الباسمة الفرِحة، والتي لا يبدو عليها شيءٌ سوى السّعادة برؤيته، كان ينتظرُ منها الكثيرَ من الأسئلة المتعجبة المحاسبة اللائمة له على كلّ شيءٍ، ولكنها فقط لم يبدُ منها إلّا أنها قد تحقّقت أمنيتها، ولم تعدْ ترغب بأكثرَ من هذا، هل هذه مثاليةٌ مفرطة وسذاجة أمْ عقلٌ علمي يحسب خطواته وردود أفعاله جيدًا، ويعلم كيف ينال من خصمهِ دون أن يُطلق رصاصةً واحدة؟!

لا يدري..

كلّ ما يعلمُه الآن أنها قدْ أوقعتهُ في شباكها هذه المرّة بلا فكاكٍ، لقد ظلّ دهرًا يهرب منها كفريسةٍ تفرُّ بأقصى ما لديها مخافةَ السقوط في براثنها، وهي

كصيادٍ ماهر يعلم خطواته جيدًا، وبمنتهى الهدوء والبساطة، قام بحساباتهِ الدقيقة وعلِم أينَ النّقطةُ وما التوقيتُ الذي ستقعُ فيه تلك الفريسة، وهذه البسمة إنما هي بسمةُ ظفرٍ واثقة.

نعمْ إنّه يحبّها، ولمْ يحتلّ قلبَه سواها، وها هي كلّ الحصون التي حاول تشْييدِها قدِ انهارت فقط برؤيتها، كان يعلمُ سلاحَها الماضي، ولهذا فعل الأعاجيب لتجنّبها، وبالأمس عندما وجدَ اسمها يسطعُ بشاشةِ جوّالِ أمّه حاولَ توقيفَ ضرباتِ قلبِه الهاربة والمتسارعة واستحلفها إلّا تردّ عليها، فحتمًا سيكون مِن بين الحوار الدائر بينهنّ "وما أخبار عصام؟"، وبالطبع وقتها لن تتردّد الأمّ في إخبارها أنّه هنا في أجازة قَصيرةٍ لأوّل مرةٍ منذ خمسةِ أعوام!

ولكنْ إن كانت رنّات الهاتف ورؤية اسمها به قدْ حطّمَ أولى البوابات فقدِ انهارَ الحصنُ تمامًا برؤياها أمام البابِ المفتوح.

بصوتٍ متهدّج يُغْني عن كلّ الصورِ الجمالية التعبيرية التي تصفُ الفرحة، قالت سميرة أثناء جلستها الثلاثية معه وأمّه:

– وما موقعك الآن بكندا؟ هل حقّقتَ المرحلة الأولى من حلمك؟

ببصرٍ يحاول التفلّتَ من الوقوع في مجال نظرِها، وبحرجٍ يخنقه قال:

– أنتظر الردّ النّهائي الأسبوعَ القادم لأكون أحدَ أساتذة جامعة ألبيرتا المعتمدين بها، ولهذا جئتُ في أجازةٍ قصيرة قبل تسلّم العمل الذي قد يمنعني من المجيء لسنينَ أخرى عديدة.

بمنتهى البساطة قالت:

- مبارك نجاحك.

كادَ يهتف بها صارخًا، وقائلًا:

- ما بك؟ اخْرجي من هذا الثوب، حاولي مبارزتي ولا تتركيني هكذا أصارعُ نفسي، لِمَ هذا القتل البطيء؟

ولكنْ هزّ رأسه بابتسامةٍ خاوية قائلًا:

- بارك الله فيكِ.

اكتفى من الضربات التي تلقّاها منها، فقرّر الهجوم قائلًا:

- وما أخبار حلمك؟

هزّت كتفيها ببساطة قائلة:

- كما قلت لك سابقًا، أنتظر تحقّقه في التوقيت الذي يختاره الله.

لم تفلحِ الهجمةُ الأولى فقرّر الطّعن بقوة في السويداء قائلًا:

- وما أخبار حياتك الأسرية؟ لِمَ لَمْ تتزوّجي حتى الآن؟

ظهرَ على وجْهها أثر الطعنة المؤلمة هذه المرّة، فالألم البادي عليها كان ينبئه دون ردّ، هاتفًا به:

- كأنّك لا تعلم!

ولكنْ ما إن فتحت فمَها لتردّ عليه حتى قاطعها رنينُ جوّالها؛ ولأن التّفادي أسلوبها المفضّل بدلًا من الضّرب المتبادل، والذي يخرج منه الجميع خاسرون، اضطرّت أن تجيب على المكالمة الخامسة لمحسن الذي تجاهلتِ اتّصالاته الأربع السابقة منذ الصباح رغم وعده لها بعدم الإزعاج!

بصوتٍ حاولتْ منحَه البَساطة التي تعطي رسالة خاصّة للجانبين قالت:

- أهلًا د. محسن.

وكادَ قلبها يتقافزُ ويتراقص فرحًا عندما رأتِ انْعقاد حاجبي عصام وضيق عينيه، حتّى أنها تشعر بأذنيه قد انتصبتا اهتمامًا ورغبة في سماع التّفاصيل، لقد نالتْ من الجانب الأهمّ لديها، حاولت أن تخفي إشارات السّعادة هذه بالوقوف والذهاب قليلًا نحو النافذة مخفية وجهَها بالكامل، وبكلّ ما يرتسم عليه عن عصام وقالت:

- أين اتفاقنا بالأمس يا د. محسن؟

كانت تشعرُ بعصام الذي يتمنّى القيام والهجوم منتزعًا منها الهاتف وهي تستمع لمحسن الذي ردّت عليه قائلة:

- لقد كنت أقصدُ الاثنين معًا بما فيهم ما يخصّ القرد، فأنت قد استنفذت كلّ الفرص الخاصة به بالفعل.

أسعدَها الفضول والاهتمام الكبيرين اللّذيْن يكادا يلتهمَا عصام أمامها فقرّرت أن تتمادى أكثر، مستطردة وقائلة:

– ولكنْ سأمنحك الفرصة الأخيرة له غدًا.

استمعت اليه قليلا ثمّ قالت:

– لا، أريد مجيئك إلى المركز، فلتجعلها عندك أنت.

وبعدَ أن سلمت عليه وأغلقت الخطّ استدارت عائدة لتجد عصام يصارع انفعالاته التي فضحَه جسدُه بالتصريح بها باعتداله في مجلسه، والتمسّك بمقبضي مقعده وارتفاع نسبة رمش عينيه عن المعدل الطّبيعي، ولأنّها تثق في عدم قدْرتها على كتمانِ مشاعرها الحقيقية عنه صرّحت مباشرة قائلة:

– د. محسن طبيب بيطري بحديقة حيوان الجيزة.

بملامحَ صارخةٍ بأنه يريد تفاصيل أكثر قال:

– لا عليك، حياتك التي لا أعلم عنها شيئًا منذ خمسة أعوام لا تحتاج لتبرير أيّ موقف.

ضحكتْ ضحكتها القصيرة دلالةً تفهّمها لما يعتمل به، وقالت:

– معْرفتي به لا تتعدّى سبعة أشهر منذ اختفاء ذلك الكائن العجيب، وهو يؤكّد لي بقوّة أنه سيوصلني إليه غدًا.

بعيدًا عن ثقته بمشاعرها نحْوه، وبغضّ النّظر عن التبرير الجيد والمنطقي، وبعد أنِ استقرّت مشاعره القلبية النافرة، انتبهت واستيقظتْ مشاعرُ أخرى

عنده، وتحفّزت بعدما التقطت الإشارة المستحثّة لها، فأشار بيده للأمام كأنما يستوقفها وقال:

– لحظة.. ماذا قلت؟! عن أيّ كائن عجيب تتحدثين؟!

ابتسمتْ بثقة، لقد أصاب رمحُها الذي أطلقته هدفَه بمنتهى الدقّة، لقد استثارتْ حاسّته العلمية كما أرادت، فتنهّدت وعادت بظهرها للخلف، وهي تعلم أنّه على استعدادٍ لسماع كلّ ما ستقوله مهْما طالَ الوقت، وقصّت عليه كلّ ما مرّ بها بخصوص الكائن الفقيد بحديقة الحيوان.

وكمْ كانت فرحتُها بلا حدود حين قالَ لها في النهاية:

– لقد تعاملت مع الأمر بطريقةٍ خاطئة منذ البداية، سآتي معك لمقابلة هذا الطبيب، وسوف أرشدُك للوسيلة التي توصلك لبُغْيتك.

***

مدّ عصام يدَه مصافحًا محسن وهو ينظر بقوةٍ إلي عينيه قائلًا:

– د. عصام عبد الحميد، أستاذ الأنثروبولوجيا الطبيعية بجامعة ألبيرتا بكندا.

تمّ نسفُ كلّ مراكز تحصن العدو، وغبارُ المعركة يرسم كلمة الانتصار بقوّةٍ عبر ملامح محسن التي انقلبت من التمعّن بوجهِ عصام وتفحصه إلى الانكسار والانكماش والخسوف التّام، ولهذا لم يعدْ يتجرأ حتى على النّظر

نحو صيده المطارد منذ أمَد، وتركها تجلسُ أينما اختارت دونَما حتى محاولة الترحيب بها، ولم يخطر ببالهِ حتى المساءلة عن صلتهِ بها، فقد أتتْ إليه هذه المرّة في حمايةٍ مكثّفة مصحوبة بوسائلَ هجوميةٍ رادعة، ولهذا وسطَ ارتباكه لم يجدْ ما يبدأ به فبادره عصام قائلًا:

– هل علمتَ بالفعل المكانَ المختفي به هذا الكائن وبشكلٍ محدّد، أم هي ظنونٌ واستنتاجات؟

فرَكَ محسن يديه، وهو يفرُّ ببصره، وقال بصوتٍ يظهر عليه بوضوح محاولة اصطناعِ كذبةٍ جيدة يمكنه الفرارُ بها من هذه المواجهة بلا خسائر أكبر ممّا وقع فيها، وإن كان ما حدث لا يفوقه شيء:

– هذا القردُ ربّما انتقل لإحدى الحدائق الأخرى وليس بالضرورة أن يكون لدينا.

قال عصام بصرامةٍ أشفقت بها سميرة على محسن المنهار تمامًا أمامها:

– أكرّر سؤالي يا دكتور.. هل تعلم تحديدًا مكانه، أو حتى الحديقة التي ذهب إليها، أم ما زلت في مرحلةِ الظّنون والبحث؟

مسح محسنُ عرقًا وهميًّا وقال:

– لن يخرجَ الأمر عن خمسِ حدائق تمّ التعامل معها في الشهور الأخيرة.

تنازل عصام عن لهجتهِ الهجوميّة عندما استشعر هذه المرّة أهميةَ ما لدى محسن وقال:

– هل طالعتَ ملفّاتِ التعامل هذه في الشهور الأخيرة؟

بنفس التوتّر والتردّد قال محسن:

- نعم، ولكنْ للأسف لا يوجد بها أيّ تسجيلٍ رسمي لأي تبادل أو إرسالِ حيواناتٍ من فئة القرود.

قام عصام واقفًا معلنًا انتهاء الحوار، قائلًا:

- شكرًا يا دكتور لتعبك ومعاونتك للدكتورة سميرة الفترة الماضية، ورجاءً الاتصال بنا عند الوصول لمعلومةٍ جديدة وواضحة.

مدّ محسن يده مسلّمًا عليه وهو يجاهدُ لرسم ابتسامة على وجهه، ولكنْ تركه عصام وانصرف دون أن يعيرها اهتمامًا، وخلفه سميرة التي شعرت بشفقةٍ أكبر نحْو محسن الذي سحب يدَه بسرعةٍ وفور أن رآهما قد تخطّيا الباب حتى ارتسمت على وجهه كلّ أمارات النقمة وهو يسبّ قائلًا:

- اللعنة عليك، وعلى هذا القرد.

وإذا بعصام أمامه قائلًا:

- د. محسن..

كادَ قلبُ محسن المندهش من ظهور عصام فجأةً هكذا؛ يتوقّف عن النّبض مخافة أن يكون الأخيرُ قد طرقتْ أُذُنَه جملتُه الأخيرة وارتعد بقوة قائلًا:

- نعم!!

سأله باهتمامٍ شديد قائلًا:

– أليس لكلّ قفصٍ عاملٌ مسئولٌ عن تنظيفه وإطعام الحيوانات وترتيب خروجها ودخولها أمام الزوار؟

– نعم بالفعل.

– حسنًا، الخدمة الكبرى التي أطلبُها منك هي اسم العامل المسئول عن القفص الذي تمَّ وضعُ الكائن به أوّل مرّة.

قال محسن ببساطةٍ:

– إنّه عمّ عبد الباسط.

ابتسم عصام بقوةٍ وقال:

– شكرًا يا دكتور، لقد ساعدتنا الآن مساعدة كبرى وفعلية.

ومدّ يده هذه المرّة مسلّمًا عليه بقوةٍ، واستدار منصرفًا تاركًا محسن يتساءلُ عن وجْهِ المساعدة الكبرى في هذا.

*****

وقفَ عصام يرقبُ الكهلَ المسمّى عبد الباسط بملابسة المتهدلة والمتّسخة وهو يتصنّع الابتسام والفرحة لتعامله مع تلك الأسرة البسيطة المكوّنة من أبٍ ملول وأمّ تحمل صغيرها بعنايةٍ وهي تتطلع لقفزات القرود أمامَها بانتباهٍ شديد لتنفجر ضحكتها البسيطة الجميلة عندما دار أحدُ القرود

حول نفسه دورةً كاملة أثناء رحلة هبوطه من أعلى لأسفل، وبجوارها أحدُ الصّبية متّسع العينين ومنجذبًا بقوة لتفاعل القِرَدةِ معه، وصاح بقوةٍ وهو يتقافز فرحةً عندما ألقى بحباتٍ من الفول السوداني نحوها، ورآها تتسابق وتتصارع بصريخها الحادّ عليها، وسمع عصام جملةَ الكهل المستجدية للأب قائلًا:

- ربّنا يخلّيه لكَ يا بيه.

وبكلّ أمارات التأفّفِ من زفيرٍ وتحريكِ رأسه يمينًا ويسارًا محاولًا إنهاءَ هذه المهْزلة أخرج الأبُ الجنيهات الخمس، ودسّها في يد الرجل الذي تلقّفها وأخفاها بسرعةٍ اعتادَ عليها بجيبهِ منصرفًا بالكامل عنهم باحثًا عنْ مجموعةٍ جديدة لينال منها المزيد.

ابتسمَ عصام وقد وجد بغيتَه وعلمَ المدخل السليم للرجل فتقدّم نحوه ببطءٍ، وبسبب انشغال عبد الباسط التّام عنه مدَّ يدَه ليربّت على كتفه برفقٍ قائلًا:

- هل من الممكن منْحي بعضَ حبّات الفول السوداني؟

التفتَ الرّجل نحوه متفحصًا إيّاه بدهشةٍ، فوجوده بلا رفقة بمظهره المتأنّق ونظّارته السوداء الغامضة، لا يظهر عليه أي مبشراتٍ بأنه سيكون موردًا لبعض الجنيهات؛ فأغلبُ هؤلاء يظنون أنها خدمةٌ مجانيّة، فقال له بجفاءٍ:

- ولكنّها ليست مجانًا يا أستاذ.

اتّسعت ابتسامة عصام قائلًا ببساطة:

- أعلمُ هذا.. لا تقلق.

مدَّ عبد الباسط يدَه بحرصٍ شديد وبطء إلى جرابٍ يحمله وأخرج منه خمسَ حبّات فقبضَ عصام عليها بيدِه وهو يبتسم له واستدار ليقذفها نحو القِرَدة المتصارعة، ثمّ عاد إليه دون أن يعيرَ تفاصيل هذا الصراع اهتمامًا ليجده ينظر إليه بمنتهى الترقّب والتحفّز مستحضرًا قاموسًا كبيرًا من عبارات اللّوم والتقليل من شأن ما سيمنحه إن كان قليلًا ومُعِدًّا للإجابة على الجُمل الشهيرة بأنّ سعر الكيلو لا يجعل ثمن هذه الحبّات هكذا، وإذا لم تفلح سيلقي عبارة استجداء منكسرة في النهاية بأنّ أولاده الستّة مصاريفهم تفوق الخيال، بدقّاتِ قلب تنتظر إعلانَ الفائز بمسابقة ورقة اليانصيب لم تفارق عيني عبد الباسط يدَ عصام الممتدّة ببطءٍ إلى جيبه غيرَ مدركٍ بأنّ عصام يمنحهُ فرصةَ مراقبةِ انبعاجات جيبِه الناشئة عن تحركِ يده بالداخل مُنتزعةً ورقة نقدية ليدرس هو ملامحه التي تحمل ترجمةً مفْضوحة لما يختلج به من مشاعر، ولم يستطعْ عصام منعَ الضّحكة التي قاومها عندما رأى ردّ فعلِ الرجل وهو يستقبلُ الورقة فئة المائة جنيه، مزيجٌ عجيب من الفرحة وعدم التّصديق، ولكن صارعهما تفسيرٌ راوده بسرعةٍ فقال:

- ليس معي فكّة لها يا أستاذ.

فقال له عصام بمنتهى البساطة:

- لا أنتظر بقيّة منها؛ فكلّها لكَ.

انتزعها عبد الباسط ليدُسّها بسرعةٍ في جيبه مخافة تراجعهِ عن قراره المجنون، أو أن يرصدها أحدُ زملائهِ فيمسّها الحسد، أو الرغبة في التّقاسم، وأتبعها بسيلٍ من الدّعوات بأن يحفظ الله عصام وأن يزيده من النّعيم، فابتسم له عصام دون ردّ، وتركَهُ ومضى لحالِ سبيله، والرّجل يتحسّسُ الورقةَ بجيبهِ غيرَ مصدّقٍ، ولم يستطع منع نفسه من مراقبةِ عصام، وإلى أين سيتوجّه، ليجدَه وقد توقّف بالقربِ من قفصٍ آخرَ، ولدهشته وجدَه يكرّر فعلتَه ورصدتْ عيناهُ بمنتهى الدقة فئةَ الورقةِ التي منحها لزميله الذي أخذَ يتقافز كأفضل قردٍ رافعًا يديه مقدمًا عرضًا رائعًا يفوق عرضه على كيفية الدعاء الجيد لهذا المانح الكريم، وعندما رآه يقف متلفتًا حوله باحثًا عن شيءٍ ما، لم يشأ أن يُفوت الفرصةَ فصيدٌ كهذا لن يتكرّر كثيرًا فذهب إليه مسرعًا، وقال له:

- عمّا تبحث يا أستاذ، وهل تحتاج مساعدةً في أيِّ شيء؟

كاد عصام ينفجرُ ضاحكًا؛ فقد جاء الطعمُ بالصيد المرغوب تمامًا،

فقال له باسطًا شباكًا أكبر:

- شكرًا جزيلًا.. هل يمكنك إرشادي لمكانٍ هنا يمكنني الحصول فيه على فنجانٍ جيدٍ من القهوة مثل التي اعتدتُ عليها في كندا؟

ماتتْ كلّ أسئلة عبد الباسط المتعجّبة، وقد أجابت كلمةُ كندا عنها جميعًا بضربةٍ واحدة، وانفرجتْ أساريرُه أكثر وقد تيقنَ بأنه سيعود محمّلًا بالكثير في هذا اليوم، ولهذا انطلقَ برفقتهِ ليدلّه على المكان المطْلوب، وبالطبع لم يمانع عندما دعاه عصام لمشاركتهِ هذا الشراب.

***

– هل تعلمُ أنّ أكبرَ علماء الأرض يُؤمنون بنظرية النشوءِ والارتقاء؟

بعد أوّل رشفةٍ من كوبه نطق عصام بهذه العبارة والتي ردَّ عليها عبدُ الباسط بمنتهى البساطة قائلًا:

– ربّنا كبير يا أستاذ.

انمحتِ البسمةُ السّاخرة بسرعةٍ من وجه عصام وهو يقول له:

– هل تعلم عمّا تتكلّم هذه النظرية؟

– يا أستاذ، أنا رجلٌ بسيط.. منْ أين لي العلمُ بها؟

هزَّ عصام رأسَه متفهّمًا ومقدّرًا التلقائية التي ينطق بها الرجل، فقال له:

– بكلّ بساطةٍ، هي النظرية التي اشتهرت هنا بمقولة أنّ الإنسان أصله قرد.

هتف الرجل قائلًا:

– أستغفر الله العظيم، هؤلاء عالم كفّار، أولاد كلب.

انفجرتْ ضحكةُ عصام بقوةٍ هذه المرّة، وقال:

– منذُ متى وأنتَ تتعاملُ مع القرودِ يا حاج..؟

لحظَ الرجلُ تساؤل عصام عن اسمه، فقال له:

– اسمي عبد الباسط يا أستاذ، أعملُ مع قفص القرود منذ عشرةِ أعوامٍ بعد أن أصبتُ من أحد الأسود.

– حسنًا يا عمّ عبد الباسط، ما مدى ذكاءِ القردة التي تعاملتَ معها؟

– يا أستاذ، النّاصحُ من بني البشر نقول له (أنتَ قرد).. القرودُ ذكيةٌ جدًّا، ولا يخدعك حركاتها البهلوانيّة التي تُؤديها خلف القفص، فهو مكرٌ اعتادوا عليه للحصول على بعض الأطعمة الجيدة من الزوار، وستتعجّب إذا قلتُ لك بأنهم هُم مَن يشاهدون البشر وليس العكس.

أشار عصام نحوه بسبّابته، وقال له:

– بالضّبط يا عمّ عبد الباسط، لقد جئت بالخلاصة في جملة بسيطة ومباشرة، هذا هو المقصود وتلك هي البداية.

لم يفهم الرجل مقصدَه، أو ما يعني من هذا، ولكن أسعده اتفاقه معه في الرأي أيًّا كان، فابستم وهزّ رأسه معلنًا عن هذه الفرحة.

فاستطرد عصام قائلًا:

– هل تعلم أنّ رسالةَ الدكتوراه الخاصة بي، والتي قطعت بها شوطًا كبيرًا هنا قبل السّفر تركتها تمامًا، وغيرتُ موضوعَها بسببِ إدخال جزءٍ من بحثي

عن القُرود؟ وقد وصلتُ لنتائجَ مدهشة بالفعل غيّرت الكثيرَ من تفكيري الذي اعتدْنا على ربطهِ بالعاطفة والقناعات المسبقة دائمًا.

رغم أنّ عصام كان جديًّا جدًّا في عبارته، ولم يقصد بها شيئصا إلّا إفراغ طاقةٍ سلبية بداخله، إلّا أنّ كلامَه رغم عدم استيعاب عبد الباسط لأغلبهِ قد شحذَ انتبَاه الأخير بقوةٍ عندما سمع الجزءَ الوحيد الذي فهمه، وهو أنّه يقوم بعملِ دراساتٍ على القرود، فاهتزّ وجدانه وقد أدركَ بأنَّ الغنيمة ستكون أكبر ممّا توقّع بكثيرٍ وقال:

– هل تعني أنّك تحتاجُ قردة لتدرسها يا أستاذ؟

استفاقَ عصام من مشاعرِه التي غمرته، وعاد لهدفِه الذي جاء لأجله خصيصًا، وقد منحه الرجل المفتاحَ الجيد لما يُريد وقال له:

– هل يمكنك مساعدتي في ذلك؟ وبأيّ مبلغٍ تطلبه لن نتجادل أبدًا في هذا الشأن.

عادَ عبد الباسط بظهره للخلف، وقد فارقت ملامحَه مظاهرُ البؤس والحاجة، وبصوتٍ داخلتْه نغمةٌ جديدة من الثقة، وبخبرةِ تاجر قديم قال:

– اتّفقنا يا أستاذ، ولكن لا تعامل ولا كلام في هذا الشأن هنا.

ابتسم عصام بمنتهى الثقة وقال:

– لكَ ما تُريد.

وبعد قليلٍ كان يستقلُّ سيارة سميرة المرتكنة في مكانٍ قصي خارج الحديقة ليجلس بجوارها ناظرًا إلى وجهها المتسائل بقوةٍ عن النتيجة ليبتسم قائلًا:

- نجحت الجولة الأولى بامتياز.

***

بخطًى مُتثاقلة وجسدٍ منْهك، وصلت سميرة إلى بابِ شقتهم بالطابق الثّالث في أحد العقارات العتيقة بحيّ عابدين وسط القاهرة، ما إن ولجتِ البابَ وأغلقته خلفَها وعقبَ استدارتها وجدته يقف عاقدًا ساعديْهِ أمام صدره وعيناه تحملان نظرةً صارمة لا تتناسبُ أبدًا مع ملامحه الرّقيقةِ ببشرته البيضاء وعينيه العسليّتين متزينًا بلحيةٍ خفيفة، رغمَ كلّ أمارات التّكاسل البادية على ملامحها فقد اتسعت عينيها تساؤلًا، وأخيرًا انتهت المحادثة الصّامتة بينهما ونطق حسام بصوتٍ جافّ قائلًا:

- أين كنت؟

ضحكتْ سميرة ضحكتها القصيرة المعتادة، وقالت:

- بالخارج.

واستكملت طريقَها للداخل، ولكن استوقفها صوتُه العالي وهو يقول:

- لا يصحّ أبدًا ما تفعليه بنفسكِ وبنا.

توقّفت سميرة برهة، وتنهّدت والتفت إليه قائلةً بجمود:

- وما الذي أفعله بكم وبي يا حسام؟

أشاح حسام بيده وهو يقول:

– هل يصحّ لأيّ مسلمةٍ أن تخرج هكذا بصحبةِ مَن لا صلة لها به ودونَ محرم!؟

– إمممم.. إنها محادثةُ كلّ عام قبل سفري إلى لندن، حسام.. بالله عليك أنا مرهقةٌ ولا طاقة لي بأيّ جدال الآن.

هتف حسام قائلًا:

– واللهِ ما أقولُ ذلك إلّا مخافةً عليك من غضبِ الله، فما وضع سبحانه هذه القيود إلّا حفاظًا علينا جميعًا، واشتراط المحرم لم يتقيد بعلمٍ أو مُؤهل.

ربتتْ سميرة على كتفه بودّ، وقالت:

– لا عليك يا حسام، أنا أخافُ الله مثلك تمامًا، وأُحافظ على صلاتي.

همّت بأن تنطلق إلى حجرتها، ولكن استوقفها قائلًا:

– وما هو مصيرُ قصّتك البائسة هذه مع عصام؟

هزّت سميرة رأسها، وتنهّدت تنهيدةً خفيفةً وقالت:

– فلنترك الأقدارَ لصاحبِ الأقدار.

طرقَ أذنها صوتُ أمّها بالمطبخ، فوضعتْ حقيبتَها على سطحِ المائدة التي تتوسّط الصّالة العتيقة بأثاثِها البسيط والقديم والنظيف والمنظَم في نفس

الوقت، وذهبت إليها لتربّتَ على كتفِها الأيسر طابعةً قُبلة على خدّها الأيمن قائلةً:

– ماذا أعددت للغداء يا سيدة الكلّ، أتضوّرُ جوعًا.

ولم تنتظرْ ردّها، وانغمستْ معها لتساعدها فيما كانت تقوم به، وبعد دقائقَ كان ثلاثتهم يتحلّقون حول الطعام بعبقِه المميز وطعمِه الأخّاذ، ولكنْ كان الصمت هو الغطاءُ للبركان الذي يعتمل بثلاثتهم،

سميرة تكتوي بكلماتِ أخيها الذي أخرجها من سكرةِ الأحداث الجارية، لقد كانت تنتشي بالقربِ من عصام وتواجده في حياتها ولو إلى حين، ولكن ما المصير؟ لا شيء.. لقد كان متمسكًا بالهجرة قبل أنْ يتذوّق ويدرك الفارق بين حضارتين ومجتمعين متناقضين تمامًا، فما بالك بعد أن استقرّ وارتقى وبدأ مرحلة الحصاد وتحقيق الأحلام؟!

سيكون الأمرُ الآن إذا طلبت منه البقاءَ أشبه بطلبك من غريقٍ صعد إلى السطح واستنشق الهواء وعادت إليه الحياةُ؛ أن يعود إلى القاع مرّةً أخرى لأنه هو المآل!!

هل من الممكن أن تسافر هي؟ ولمَ لا؟ المثاليةُ في هذا المجتمع العجيب ضربٌ من الجنون، خمسُ سنوات مرّت منذ آخر محادثة حول هذا الأمر، كانت تحمل بين جنبيها آمالًا وأحلامًا وحماسًا لا حدّ لهم، ولكن ما مرّت به في تلك الأعوام العجاف جعلها تدرك بأنها تجدف ضدّ تيارٍ هادر أسفلَ

سيلٍ عَرِم، فلا هي تستطيع المقاومة أو التقدم، ولو استطاعت فالمصير هو استحالة الصعود ضدّ هذا السَّيل بعلوه الشاهق!! هذا على مستوى مسارها العلمي، أما على المستوى الاجتماعي فنظراتُ الشفقة من ميرفت وملامح البؤس التي تسكن وجه أمّها الآن وارتباك أخيها الأصغر نحوها، كلّ ذلك يجعلها تتمزق كلّ ليلةٍ، لماذا يربط الجميعُ مصير النجاح الوحيد للفتاة في هذه الحياة بالزواج وفقط؟!

نعم، المشاعر الاجتماعية والأمومة هي فطرةٌ تمّ زرعها بزيادة فيها ولكن إن لم يحدث هل هو الانهيار؟ هل فقدت دورها وأصبحت كمًّا وعبئًا على نفسها، ومَن حولها؟

تلك المطلّقة التي لم تجد مَن ينفق عليها وعلى أولادها الثلاثة بعد تنصّل الجميع من مسئوليتها بما فيهم زوجها الوغد الذي أجاد التّلاعب بالقوانين كي يفرَّ من نفقتهم، بعد أن باعت جسدها مبررة لنفسها أن هذا هو السبيلُ الوحيد لكي تستمر الحياة بها وبأولادها. لو خيرّت الآن بين أن تعيش وحدها بلا زواجٍ وبين هذا المصير، أيهما أفضل لها وللمجتمع الآن؟!!

الموازينُ مختلّة وسط مجتمعٍ مريض يحتاج إلى مسيرةِ علاجٍ طويلة ومعقّدة لكي يستقيم به الطريق.

لقد وصلت سميرة الآن إلى قناعة بأنها لن تتردّد في القبولِ بالسفر مع عصام إنْ طلب منها ذلك، ولكن بعد الانتهاء من الدراسة المرتقبة لذلك

الكائن، وأخيرًا بدأ الطعام في استرداد مذاقه الطبيعي بعد أن استكانت لهذه النّقطة فنظرت نحو والدتها بملامحِها الطيبة التي تَعُجّ بآثار صراع الزمن معها وقالت مبتسمةً:

- سلمتْ يداكِ يا سيدة الكل.

انتزعتها من شرودها لتردّ عليها بصوتها الهادئ قائلةً:

- بالهناء والشفاء يا حبيبتي.

همَّ حسام أن يتكلم بعد أنْ تمزقَ ستارُ السكون ولكن ما إن فتح فمه حتى قاطعه رنينُ الهاتف المنزلي، فالتقم كلماته وقام ليردّ عليه، وبعد عبارتي التّرحيب التي سمعها الجميع ظلّ ساكنًا لا ينطقُ بحرفٍ، ووضع سماعة الهاتف ببطءٍ دون أن يعقّب على ما سمع كأنما قد فقد لسانه وهو ينظر نحو سميرة نظرةً جعلتها ترفع حاجبيْها متسائلةً، وأخيرًا هتف قائلًا:

- سميرة، عصام سيأتي الليلةَ طالبًا يدك للزواج.

وأخيرًا، انفجرت قنبلة السعادة التي بدّلت كلّ المشاعر التي تعتمل بالجميع إلى نقيضها في لحظات.

***

تجاوزت مدّة انتظار عصام لعبد الباسط نصفَ الساعة وقد انتهى من قهوتهِ التي تناولها أثناء جلوسِه بذلك المقهى الشعبي، وأخذ ينظر يمينًا

ويسارًا مترقّبًا وصولَ الأخير على حسب الموعد الذي ضربَه له، أخرج جوّاله وفتح شاشته بحثًا عن رقمهِ ولكن قبل أن يصل إليه كان عبدُ الباسط جالسًا على المقعد المقابل له وهو يقول:

– معذرةً يا أستاذ، لقد تأخّرت عليكَ بسبب عسرِ المواصلات.

نظرَ إليه عصام ببساطةٍ وقال:

– حمدًا لله على سلامتكَ يا عمّ عبد الباسط.

بلا مقدماتٍ وكرجل أعمالٍ مُحنّك وبملامحَ ترتسم عليها الجديةُ التّامةُ؛ قال عبد الباسط:

– ما هي الكميةُ التي تريدها من القرود؟ وهل ستتخلص منها بعد انتهاء أبحاثك بمعرفتك أم تُريد مساعدةً في ذلك؟

اتّسعت ابتسامةُ عصام مُعجَبًا ومتعجّبًا للأسلوب العملي المنظم هذا، وصمتَ هنيهة مستجمعًا الخيوط التي رسمها للوصول إلى هدفهِ النهائي وقال:

– هل تعلم يا عمّ عبد الباسط أنَّ القرودَ متوفرةٌ بمتاجر الحيوانات الأليفة؟ بل ويوجد تسوّق لها عبر بعض مواقع الإنترنت؟

نظرَ الرجل إليه نظرةً ثاقبة، وقد ظنَّ بأنّ هذه مقدمةٌ للمساومةِ على الأسعار فقال:

– أعرفُ هذا، ولكن مِن الواضح أنك ستحتاج لكميةٍ لأجل الأبحاث التي حدّثتني عنها، واطمئنّ سيكون فارقُ السّعرِ كبيرًا بيننا، كما أنني قد أعطيك بعضَ الفصائل التي لا تتوفر لديهم.

تشبّث عصام بكلمته الأخيرة وأشار بسبابته نحوه وقال:

– لقد جئت بخلاصة ما أردت تمامًا، الفصيلةُ.. لذا أنا لي طلبٌ محدد إذا وفّيت به لكَ ما تُريد دون فصالٍ وأنا عند كلمتي.

ضاقتْ حدقتا الرجل وظلّ صامتًا مترقبصا، وعيناه مصوبةٌ إلى عيني عصام تسأله التّتِمة، فاستطرد عصام قائلًا:

– هو قردٌ واحدٌ له وضعٌ خاص، وأريده بأي ثمنٍ.

ارتفعَ حاجبا الرجل وقال مستهجنًا:

– قردٌ واحد؟!

قال عصام بمنتهى الحماسِ:

– سأمنحك ثمنَ خمسة قرود مقابلًا له.

قال الرجل متعجّبًا:

– أيّ قرد هذا؟

نظرَ عصام إلى عينيه مباشرةً وقال ببطءٍ:

– القردُ الذي أُثيرت حوله مشكلةٌ من الدكتورة التي تعملُ بالمركز القومي للبحوث.

اتّسعت عينا الرجل أكثر، وعاد بظهره للخلف وصمتَ مليًّا ثمّ قال بحذرٍ:

– لا أعرف عنه شيئًا يا أستاذ.

استشعرَ عصام خوفَ الرجل وترقّبه، ولكي يُطمئنه أخرجَ جواز سفره وتذكرة طيرانه، وعرضهما أمامه وقال له:

– اطمئنّ أنا لا أتبعُ أيّ جهةٍ رقابية، أنا بالفعل عائدٌ من كندا منذ أيام وعلى وشكِ السّفر، أريدُ هذا القرد لأغراضٍ بحثية بلا ضجيجٍ أو إثارة مشاكل.

نظر الرجل مليًّا إلى جواز السّفر والتذكرة دون أن يتناولهما وقد أدرك صدْقَ عصام التّام، وفكّر مليًّا ثمّ قال:

– هذا القردُ حوله الكثيرُ من المشاكل بسبب تلك الدكتورة المجنونة.

اشتعل صدرُ عصام حماسًا، وقد أدرك بأن قد وصل لبغيته وتجاوز وصفَه لسميرة بالمجنونة وقال:

– ولكنّك قادرٌ على تجاوز كلّ تلك المشاكل ولكلِّ شيءٍ ثمنه.

هزّ الرجل رأسَه، وقام واقفًا وقال:

– لا، لن أستطيعَ، يمكنني فعل أيَّ شيء بعيدًا عن الأنظار، أما هذا فكلّ العيون مصوّبة نحوه، وأنا لم أعتدْ هذا، ولن أتحمّل مشاكله الكثيرة.

تزايدت دقّاتُ قلب عصام، وقام واقفًا، وأمسك بيد الرجل وشدّها يستحثّه على الجلوس مرّةً أخرى، وهو يقول برجاءٍ:

– أرجوكَ يا عمّ عبد الباسط فلنتفاهم حوْل ذلك، ولنرَ ما المطلوب حتّى لا يمسّك أنتَ شيء، فلتستعنْ بآخرين وأنا مستعدّ لجميع النفقات.

تنهّد الرجل، ووجهُه يحمل أماراتِ الصّراع المشتعل بصدرهِ بين التردّد والخوف والرّغبة في هذا المكسب الكبير والمرتقب، فسارع عصام بإخمادِ هذا الحريق الذي يلتهمه، وقال:

– أخبرني فقط بالتفاصيل، أين هو؟ وما وضعه؟ وسوف أناقشكَ في كلّ ذلك.

عاد التردّدُ مرةً أخرى ليحتلّ مشاعر الرجل مع الخوف فقام واقفًا وقال:

– لا أعرفُ شيئًا يا أستاذ، البعدُ عن الشّر والغناء له أفضل.

للمرّة الثانية يتشبّث عصام بيده ويقول له:

– أرجوك يا عمّ عبد الباسط، خذِ التّدابير التي تريدها، وضعْ كلّ الشّروط التي تُؤمنك، ولكن لا تُضيعْ عليّ هذا القرد.

لم يتمالكْ عبد الباسط نفسَه من التساؤل قائلًا:

– ولِمَ هذا القرد تحديدًا؟ وكيف علمتَ به؟!

ارتبكَ عصام هذه المرّة وقال:

– أجبني أنتَ بنفسك، هل هذا القرد يُشابه البقية؟

شردَ الرّجلُ ببصره كأنما يتذكّرُ وقال:

– لقد كان مختلفًا، وربّما لأنّه جديدٌ على المكان، ولكنك لم تجب.. كيف علمت به؟!

قال عصام بسرعةٍ:

– أحدُ العاملين عندكم أخبرني عنه، وأنّه مختلفٌ بعد معرفته بموضوع بحثي، وهو الذي أعلمني أنّك الوحيدُ الذي ربما تعرف شيئًا عنه.

جلسَ الرجلُ ببطءٍ وقال:

– مَنْ هذا الرجل؟

التقطَ عصام أنفاسَه وجلس قائلًا:

– أنتَ لا ترغبُ في كشف الجاري بيننا الآن، وهو كذلك، وبالتالي لن أُخبركَ ولنْ أُخبر غيرك عنه أو عنك.

صمتَ الرجلُ طويلًا كأنما يدير الأمرَ بذهنهِ ثمّ قال:

– حسنًا، دعْني يومين، سأرى ما الموضوع وما الذي يمكنني تقديمه.

أخرج عصام تذكرتَه للمرّةِ الثانية وقال له:

– أقسمُ باللهِ سفري بعدَ ثلاثةِ أيام، وها هو تاريخُ المغادرة.

تناولَ الرجلُ التّذكرةَ منه هذه المرّة، وتمعّن كثيرًا في خانة التاريخ وسط كتاباتٍ كثيرة بالإنجليزية التي يجهلها، ولكنْ أمكنه تمييز الأرقام وقام بحساب التّاريخ على أصابع يده ليجدَه بعد ثلاثة أيام بالفعل، فتسلّلَ الاطمئنانُ إلى قلبه أكثر، فمالَ بجسده للأمام وقد انخفض صوتُه كثيرًا وقال:

– سأخبركَ الآن بما لا يعرفه غيري، ولكن لو تسرّبَ منك سيكون به إنهاءُ حياتي الوظيفية بالحديقة.

قالَ عصام بمُنتهى الاهتمام:

- أعدكَ بعدمِ تسرّبه، ولكلّ شيءٍ ثمنُه كذلك.

قال الرّجلُ بمنتهى الحرص:

- هذا القردُ بعد أن تمَّ تسجيله بالأوراق، كنّا على وشك نقلهِ لقفص مجمّع مع بقية القِرَدة للعرض على الجمهور، ولكن ما إن أُثيرت المشكلاتُ بشأنه تصرّف المدير بسرعةٍ لتجنّبها كلّها، كانت لنا ثلاثةُ قِرَدةٍ تحت العلاج بكلية الطبّ البيطري، فاتصل بالعميد وأخبره بأنه سيستردّ أحدهم ويرسلُ آخر مكانه وليبقى الورقُ كما هو بلا تحديث، ومنحني مائتي جنيه وأرسلني به شريطةَ إلّا يعلم مخلوقٍ بذلك، ولا حتى د. محسن نفسه، وبصلتهِ الشّخصية مع هذا العميد ترك ذلك القردَ هناك لأجلٍ غير معلوم، وبهذا لم يعلم طريقه مخلوق.

عادَ عصام بظهرهِ للخلف، وهو يبتسم ويقول:

- ياللذكاء!! ليتنا نستخدمهُ فيما ينفع.

ثمّ استدرك قائلًا:

- الأمرُ أسهل ممّا تخيلت يا عمّ عبد الباسط، مبلغٌ محترمٌ لك وللعاملِ القائم على حراسته هناك، ونُدْخل قردًا بديلًا له، وبهذا تكون المهمة قد مرّتْ بسلام.

- المشكلةُ أني لست على صلةٍ جيدة به.

- آنَ الأوان لتُوثق صلتك به وتحسنها.

- ولكن هذا يحتاجُ للوقتِ والمال.

- المالُ موجود والوقت هو المفتقد.

- حسنًا، دعني أنسّقها وأُرتّب لها وسوف أتّصل بكَ لأخبرك بالتالي.

مدّ عصام يده بجيبِه، وأخرج ورقتينِ فئة المائتي جنيه ومدّهما نحوه وهو يقول:

- تفضّل يا عمّ عبد الباسط تحت حسابِ مصاريف هذا الترتيب.

التقمهم عبد الباسط بيده ودسّهم في جيبه بسرعةٍ وهو يتلفت حوله كعادته، وقال:

- اتّفقنا يا أستاذ.

***

إنّها الفرحةُ التي تفوق كلّ شيءٍ، عندما ترى حلمك ماثلًا بين يديك، عندما يتراقص وجدانُك بهجة، وقد استقرّت كلّ خليةٍ من خلايا مخّك وارتاحت من عناءِ التّفكير في المستقبلِ الغامض وحساباته المعقدة، عندما يُتوج حبَّ حياتك بالرّباط المقدس الذي لم يكن له إلّا الزواج.

تلك هي مشاعرُ سميرة وهي تتألّق بين صويحباتها من رفاق العمل المقرّبين، وعلى رأسهم ميرفت التي كانت ترُجّ المبنى بزغاريدِها المتكرّرة، ومعهم "منى" التي تكاد تتراقصُ بكرسيها فرحةً وسعادة لها، وأخيرًا رأت سميرة جميعَ جاراتها اللاتي يشاركنها العمارة، وكنّ يخشينَ على بناتهنّ منها، ويمنعونهنّ من التواصل معها كأنما تأخّرَ زواجها وباءٌ مُعْدٍ قد ينتقل إليهنّ بالتعامل معها، في أقلّ من أربع وعشرين ساعة تبدّل موات الشقة الى صخبٍ مبْهِج بعد أن جاءهم عصام بالأمس برفقة أمّه وأُخته طالبًا يد سميرة للزواج، وتمّ الاتّفاقُ على كلّ شيء بسرعة؛ لأنّ سفرَه سيكون بعد أيام قلائل، كان الاتفاقُ على خطبة يسافر بعدها عصام ليهيئَ عُشّ الزوجية هناك لتلحق به سميرة بعد ذلك وقتما تشاء، ضحكت سميرة وقتَها وهي تقول له:

– ومِن أين لكَ الثقةُ بموافقتي على المجيء لكَ؟

ابتسم ابتسامةً أشرقَ لها وجهُه وقال:

– ليس لنا إلّا بعضنا البعض، والخمس سنوات التي مرّت كشفت لنا ذلك، سيكفيني الرّباطُ بكِ ولو بالخطبةِ فقط.

بكلّ سعادة الدنيا ردّت عليه لتُفاجئه بما لم يتوقعه قائلةً:

– وأنا لن أتأخّر في اللحاق بك.

كان عصام يريد حفلًا صاخبًا بإحدى القاعات الفندقية ولكنّ أمّها طالبت بحفلٍ بسيط بالشّقة يجمع الأقارب فقط بلا داعٍ للتكلفة الباهظة،

وكان أقصى ما يهمّها أن تصمَّ آذانَ الجميع بزغاريدَ خطبة ابنتها وفقط؛ بعد أن عانتْ من نظرات الشّفقة ومصمصات الشفاه عندما تسير برفقتها.

كانت الصّالةُ مسرحًا متّسعًا بعدما أُعيد تنْسيقُ الأثاث بها ليجلس عصام برفقةِ رجلين؛ أحدهما يمتّ بصلة قرابةٍ بعيدة والآخر من سكان العمارة، في حين أنها تغصُّ بالمدعوّاتِ من النساء، مَن تُسلّم وتبارك وتخرج، ومَن تجلس باحثةً ومُتفحّصةً ومتسائلة عن العريس..

وبينما حسام يقف بالقرب من باب الشقة موليًا ظهره له انتفض فزعًا على صوت الزّغرودة التي انطلقت خلفَه بلا مسبقاتٍ كبوقِ سيارة إسعافٍ مُستمرّ، وعندما التفت وجدَها إحدى جاراته الشابات وهي تحمل مُسجّلًا كبيرًا، فقال لها:

- رويدك علينا يا مروة، ولمَ هذا المسجّل؟!

ضحكت مروة بقوةٍ وقالت:

- ابتعدْ عنّا يا شيخ حسام، هو يومٌ واحد سنفرحُ فيه، فاتركنا نفعل ما نشاء.

فقال لها بتجهمٍ:

- وماذا لو ماتت إحداكنّ على ذلك بغتةٍ، هل ستكون مستعدّةً للسؤال عنه؟

دفعتْه مروة بيدِها ليفسحَ لها الطريق قائلةً:

– فلتتفلْ من فمِك، إنه فرحُ أختِك فلتفرح وتُفرحها معك.

وتركتْه وذهبت لتوصل الكاسيت بمصدر للكهرباء ليزداد الصخب مصحوبًا بنوباتِ سباقٍ في الرقص. تركهم حسام وهو يستغفرُ ويستبرئ مما يرى، وقام بفتح غرفة الصالون ليستقبلَ الرجال به بعدما وجد الأمر يخرج عما خُطط له.

***

– ستكون الخطة كالتالي.. سآتيك بخطابٍ رسميّ موقّع ومختوم من إدارةِ الحديقة، نصُّه يحوي أنكَ ستذهب بنفسكَ لتسليمهم قردًا واستلامً المتواجد عندهم، والرّجل هناك سيحصل على ألفي جنيه مقابل إلّا يتّصل بالعميد، وإخباره بهذا حتى لا يتواصل مع مدير الحديقة، وبهذا تخرج بقردكِ ويكون الرجلُ في أمانٍ حتى لا يتمّ مساءَلته فيما بعد عن اختفاءِ القرد واتهامه به، ثمنُ القرد الذي ستأخذه ثلاثةَ آلاف جنيه، وتقديرُ المخاطرة متروكٌ لك فأنت كرّرت مرارًا بأنك ستجزلُ العطاء.

نطقَ عبد الباسط بالعبارة السابقة في جِلسته الخاصة بعصام الذي تساءلَ قائلًا:

– وكيف ستأتيني بخطابٍ رسميّ حقيقي غير مزوّر؟

قال الرجل بنفادِ صبرٍ:

– هذا عملنا لا شأن لكَ به.

ازدادتْ حيرةُ عصام وقال:

– وهل الرجل بكلية الطب البيطري له السّلطة لتسليمي هذا القرد دونِ علم العميد؟

تنهّد عبد الباسط وقال:

– سيصطنع السّذاجةَ ويذهب لتوقيع أمرِ التسليم والتسلم من أحد الأطباء الذين لهم الحقّ في ذلك، وليس على علمٍ بقصة القرد الخاصة، وبهذا عند مساءلته سيدّعي أيَّ شيء كأنّ العميدُ كان بالخارج وأنت تعجّلت الذهاب فاضطرّ لتوقيع الأوراق من أي مختصّ، وفي الغالب لن تحدث هذه المساءلة أبدًا، فالقردُ في طي النسيان ولن يتذكرَه لا العميد ولا مدير الحديقة.

هزَّ عصام رأسَه مقتنعًا وقال:

– حسنًا يا عمّ عبد الباسط عشرةُ آلاف جنيه هل ترضيك؟

قَبَّل الرجل بطنَ يده وظهرَها، وقال:

– نعمةٌ وفضل، لولا ثقتي أنّك رجلٌ طيب ما فعلت كلّ ذلك، هل الخمسة عشر ألفاً معك الآن؟

رفع عصام حاجبيهِ وقال:

– ألم نتّفق على عشرة؟

قال الرجل مستنكرًا:

– أنسيتَ التّكلفة قبل العشرة، ألفانِ للرجل وثلاثة للقرد؟!

ضحك عصام وقال:

– لقد كنت أقصد عشرةً كتكلفةٍ كلية.

– وأين الكرمُ في ذلك؟! خمسةُ آلاف جنيه لا تفعل شيئًا الآن.

قال عصام ببساطةٍ:

– حسنًا يا عمّ عبد الباسط سأُوفي بوعدي ولن أناقشكَ في ذلك، لكَ ما أردت.

***

شعورُك بالخطيئة هو أولُ مراحل التطهّر منها؛ لأنه يحتل عقلَك ووجدانك، ويعتصر قلبَك ويعزف على كلّ مشاعرك سيمفونيةً لا بدّ وأن تتركَ أثرها على خريطة وجهك وحركات جسدك، ربما لهذا يتحرّك عتاةُ المجرمين ومحترفو النّصب بمنتهى الثقةِ دون أن يلوحَ عليهم أيّ تردّدٍ أو هفوة تكشفهم، فلا خوفٌ يعتريهم ولا إثم أو خطأ فيما يفعلون من وجهة نظرهم، بل هي مهمةٌ مقدسة لأجل لقمةِ العيش، وبراعة وذكاء منهم حين نجاحهم في خطيئتهم وهروبهم بها.

ولهذا كان عصام يرتجّ ويعتريه الخوفُ الشديد عندما دخل كلية الطب البيطري بتلك السيارة ذاتِ القفصِ الحديدي الخلفي، ومعه القرد الأسود الذي يستلقي بمنتهى الكسل كأنما لا يعنيه مصيره، فكلُّ الطرق في هذا البلد تُؤدي للمهانة!

ما إن كشف الخطابَ الرسمي المُوقع والمختوم بخاتمِ النسر المصري المقدّس، حتى فُتحت له الأبواب، وعندما سأل عن عمّ فتحي وصفوا له الطريق لينطلق السّائقُ إلى موضعه، وهناك وجده بكرشِه البارز وشاربه الذي يشاركه تذوّق مأكولاته والمشروبات، وبصوتٍ أجشّ رحّبٍ به، منحه عصام الخطابَ ليقرأه الرجل ثمّ أومأ برأسهِ بتفهمٍ وقال:

- خمسة يا أستاذ.

وانطلق بالخطابِ لأحدِ الجالسين على كرسي خيرزان بمنطقةٍ مشمسة ويطالع إحدى الصحف بمنتهى الاهتمام، أزاحها جانبًا ليتناوله مستطلعًا فحْواه، ودقاتُ قلب عصام تفضحه بعزفها المنفرد الذي يصمُّ الآذان، وبكل بساطةٍ قام بكتابةِ شيء ما فوقه ليعود بعدها فتحي يتهادى بمشيته التي يراها عصام الآن مشيةَ ملكٍ يختال بها أمام حاشيته، توجّه الرجل مباشرةً لشدِّ المزلاج فاتحًا الصندوق الخلفي مصطحبًا القرد إلى الداخل، وعصام ساكنٌ بموضعه مرتكنٌ على باب السيارة التي يجلس قائدها خلفَ مقودها ولا يعنيه شيءٌ سوى الانتهاء حتى يذهب لبقية شئونه، كان عصام يتمنى أن

يقفز الزمنُ دفعةً واحدة ليجد نفسَه قد فرَّ بغنيمته، وأخيرًا بعد عشر دقائق عاد فتحي ولكن بصحبة نفس القرد!

انعقد حاجبا عصام بقوّةٍ وهو يحاول تفهم ما يعنيه هذا، ليكتشف بعد اقترابه أنّه قردٌ آخر، ولكن لا يفرق شيئًا عن الذي أخذه للداخل وليس المراد، والذي يتوقّع هيئته على حسب وصف سميرة المفصل له، فاستوقف فتحي الذي يحاول دفعه بالسيارة بمنتهى البساطة وهو يقول له:

– ما هذا يا عمّ فتحي؟!

نظر الرجل نحو بتساؤلٍ قائلًا:

– ماذا تريد يا أستاذ؟

مال عصام على أذنه قائلًا:

– ليس هذا هو القرد المتّفق عليه؟

عاد الرجل برأسِه للخلف وقد انعقد حاجباه وقال:

– متّفقٌ عليه كيف!؟ الخطابُ يطلب القرد المحتجز عندنا منذ أسبوعٍ لاستكمالِ علاجه بالحديقة واستلام الذي جئت به؟

تردّد عصام وحاول شرحَ الخطأ الذي وقع وقال:

– الخطابُ لم يحدّد أيّ قردٍ، ونحن نريد القردَ المحتجز هنا منذ أشهر.

عقد الرجل حاجبيْه مرّةً أخرى محاولًا التذكّر، ثمّ هزَّ رأسَه دلالة التفهّم وقال:

– آه.. تقصد ذلك القرد العجيب، معذرةً فأنتَ لم توضّح ذلك، تعال معي.

قال عصام متسائلًا:

– إلى أين؟

قال الرجل بنفادِ صبرٍ:

– ألست تريد هذا القرد، فلتتبعني صامتًا فهذا عملنا.

سار عصام معه صامتًا وغيرَ مجادلٍ كما أراد الرجل وهو يشعر بأن هناك كارثةً ستقع، ولكن وجد الرجلَ يسير به عبر دروبٍ كثيرة جعلته يوقن بأنّ القردَ بالطبع يتمّ احتجازه في مكانٍ خاصّ وبعيد، وعندما سألهُ فتحي قائلًا:

– معك سجائرُ يا بيه؟

احتارَ عصام في تفسير مغزى السؤال، فمع هؤلاء البشر ربما يكون اختبارًا أو جسّ نبضٍ لأمر ما، ولهذا آثر السلامة وأخرج ورقةً فئة الخمسين جنيه ليدسّها في يده قائلًا:

– معذرةً لا أُدخّن يمكنك شراءَ ما تريد.

تطلّع الرجل بذهولٍ للورقة قبل أن يدسّها بجيبهِ وبدأ في وصلة الدعاء لعصام بالبركةِ والزيادة في الرزق.

وفوجئ عصام بالمسيرة تذهب لأحد الأروقة الأنيقة والمنسقة على أفضل ما يكون، وإذا بلافتةٍ جعلت قلبَه على وشك التوقفِ تصدم عينيهِ.. مكتب عميد الكلية.

نظر بفزعٍ نحو الرجل وقال:

– ماذا ستفعلُ يا عمّ فتحي؟!

ابتسم الرجل ابتسامةً عريضة وقال:

– لا تقلق يا أستاذ سأخلّصُ لكَ كلّ شيءٍ بسرعةٍ ولن تتعطل.

ظنّ عصام بأنّ الترتيباتِ قد تغيّرت، وربما ضمنها المرورُ على العميد وتخليص الأمر منه بشكلٍ مبتكر، حاول اعتصارَ ذهنهِ في محاولةِ معرفةِ ما هي الطريقة التي سيتبعونها معه، ولكن فشل تمامًا فانساقَ خلفَ الرّجل الذي مرّ بالسكرتير وهو يخبره أنه يريد العميد في أمرِ القرد وأنّ عصام معه، وإذا بالسكرتير يسمحُ له بالدخولِ مباشرةً كأنما هو على علم بكلّ التفاصيل، احتلت الدهشةُ كلّ أركان عصام وهو يتعجّب من الأساطير التي يعيش بينها الآن، لا يوجدُ رجلٌ مسئولٌ بالدّولةِ إلّا وله مدخلٌ أو سعر!!

وسْطَ باحةِ مكتب العميد الفسيحة والأنيقة والتي لا بدّ وأن تحوي صورةً لرئيس البلاد ذهب فتحي للعميد وهو يخرج الخطاب من جيبه ويعطيه له قائلًا:

– الأستاذ قادمٌ لاستلام القرد إيّاه.

نظر العميد نحوه بدهشةٍ وقال:

- لماذا لم يتّصل بي المدير كما اتفقنا؟!

فجأة، أدرك عصام كلّ ما غاب عنه، لقد أوقعه عبدُ الباسط في الفخّ وباعه بأبخسِ ثمنٍ، أدرك لماذا أصرَّ على قبضِ كاملِ الثمن أثناء تسليمه القردَ بالسيارة مع تأكيده بأنّ الأمرَ مُنتهٍ، أدرك سرَّ دهشةِ فتحي من الإكرامية غير المتوقعة فربما لم يتّصل به عبد الباسط أصلًا ولا يوجد اتفاقٌ بينهما وقد فرَّ الأخير بكاملِ المبلغ، يبدو أنّ الوغدَ قد تلاعب به، ولم يتعب إلّا في استخراجِ الخطاب المزور وتركه ليواجه مصيره هنا منفردًا، ولكن معصوب العينين وغيرَ مدركٍ للحقيقة التي لو تأخرت دقيقة واحدة فحتمًا جُمّ المشاكل- وربما السجن- سيُحيط به!

لذا- وبذكائه الشديد- لم يستغرق الأمر منه سوى ثوانٍ لتحديدِ موقفه، وبعد رعدةٍ خافتةٍ انتابتْهُ تماسك بسرعةٍ ومدّ يده مصافحًا العميد قائلًا:

- دكتور عصام عبد الحميد أستاذُ الأنثروبولوجيا الطبيعية بجامعة ألبيرتا في كندا.

وقع الأثرُ المطلوب تمامًا في نفس العميد ورسمَ الانبهارُ لوحتَه على وجه فتحي الذي تفهّم الآن سرّ الإكرامية الكبرى التي جاءت بلا داعٍ، ولهذا هتف العميدُ قائلًا:

- أهلًا بك يا دكتور، تفضّل بالجلوس.

وداسَ زِرًّا ليستدعي الساعي طالبًا له مشروبًا دافئًا وهو يشيرُ لفتحي بأن ينتظرَ بالخارج.

ظلّ العميد يسألُه عن التدريس في كندا وجامعاتها وعصام ينطلق ويشرح بمنتهى الحماسِ مُظهرًا الفارق الذي لا وجهَ للمقارنة به، والرّجل لا يكفّ عن الانبهارِ بكلّ ما يحكيه عصام، وأخيرًا ألقى عصام طعمه، وقال:

– أعطني بريدك الإلكتروني وسوف أسعى لدعوتكَ لبعضِ المؤتمرات الطبيّة المتخصصة في مجالكَ هناك.

على الفور مدّ الرجل يدَه ببطاقةٍ مُذهّبةً تحمل كلّ وسائل الاتصال به وهو يشكره بقوةٍ، وأخيرًا قال:

– أشكرُ الدكتور على تلك المفاجأة الرّائعة بإرسالكَ أنت إلينا، ولكنْ لماذا لم يتّصل مباشرةً بي؟

ارتبك عصام وحاول اختلاقَ كذبةٍ سريعة وقال:

– إنّه يعتذر،لقد فقدَ جوّاله وبه كلّ الأرقام القديمة، سأجعلُه يتصل بكَ فور عودتى إليه فمعي رقمكَ الآن.

مدّ الرجل يده ببساطةٍ نحو جواله وقال:

– سأتّصل به الآن.

قال عصام بسرعةٍ:

– لم يعدْ يستخدم الرقم القديم بعد فقدِ جواله.

عقد العميد حاجبيه متعجبًا، ولكن لانت ملامحُه بسرعةٍ وقال:

- أعطني رقمَه الجديد.

أُسقِطَ في يدي عصام ولكن لكي يمنحَ نفسَه الفرصةَ للتفكير أخذ يقلّبُ في جواله كأنما يبحث عن الرقم ثمّ جاءتهُ الفكرةُ التي ابتسم عندما عانقته، وكأنما ينقلُ الرقمَ من الشاشة إلى العميد أخذ ينقل بصرَه بينهما، وهو يمليه رقمًا عندما انتهى منه وضع الرجل هاتفه بجوار أُذنه ثوانٍ ثمّ نظر للشاشة وقال:

- جوّالهُ غيرُ متاح.

ابتسم عصام وقال:

- نعم فالشّبكةُ سيئةٌ هناك الآن، فلتحاول لاحقًا وسوف أمنحه رقمكَ فورَ وصولي.

وأخيرًا صافحه بقوّةٍ وهو يشكره على استقباله الرائع، والرجل يشكرهُ كثيرًا على وقته ومساعدته المرتقبة.

وبعد قليلٍ، كان عصام يخرج وهو يتنفّسُ الصعَداء ويكاد يطير بصحبةِ الكائن الذي فازَ به بمخاطرةٍ لم يُعدّ لها عدتها، وابتسم عندما تذكّر أمرَ رقم جوّاله القديم قبل سفرهِ والذي أوقف العمل به مع بقائه باسمه، وذلك بطلبٍ رسميّ من شركة الاتصالات فربما يحتاجهُ، ولأنّ أجازتَه مدتُها أُسبوع

واحد فلا حاجة لتشغيله بهذا الأسبوع وليبقى كما هو على سبيل الاحتياط، لقد نفعه بقوّة عندما منحه للعميد على أنه رقم مدير الحديقة.

***

أعظمُ لذّةٍ لمذاق طعامك تستشعرها بعد الجوعِ الشديد، وقتها الطعام القليل- والبسيط- يكون بالنسبة لكَ أشهى وأروعَ المأكولات، فما بالكَ لو جاءك جُلّ ما كنت تشتهِيه من قبلُ؟!

لذا أبواق السيارات المستمرّة والمزعجة تبدلت وأصبحت سيمفونيةً تدلّ على الحياة بعد أن كانت من مظاهر الضيق والصراع، الوجوه المتجهّمة التي تتزاحم وتنطلق بسرعةٍ للحاق بشيءٍ ما- رغم أن السّمة السائدة بأنه لا يوجد مصريّ يلتزم بموعده- أصبحت وجوهًا طيبةً جميلة تستحقّ كلّ عناءٍ لأجل رسمِ بسمةٍ عليها بعد أن كانت تحمل وحوشًا بداخلها!

زملاءُ العمل الذين يدورون في تروس بآلة عملاقة ناتجها هواء لا يفرق عن الداخل إليها أصبحوا علماء وخبراء يقومون بواجبهم المقدس، والذي سيأتي يومٌ تستفيد البشرية منه حتمًا.

هكذا تبدّلت كلّ مشاعر سميرة وهي تلجُ مكتبها بوجهٍ مُتوردٍ مُبتسم ومنير بعد أن حيّت كلّ مَن قابلها ابتداءً من العامل على البوابةِ انتهاءً بزميلة مكتبها ميرفت مُقَبِّلة إيّاها وهي تُلقي عليها تحية الصباح بصوتٍ شادٍ متأنق.

نظرت إليه ميرفت متفحصةً وفرحةً بهذا التّبدل الكبير وقالت:

– يا سيدي يا سيدي.. عروسُ اليوم ليس هناكَ من على قدرِها.

ضحكت سميرة بفرحةٍ وقالت:

– لا حرمني اللهُ منكِ يا ميرفت، ولا من دعائِكِ.

وظلّت ميرفت تسألها عن سرِّ العريس الذي ظهر فجأةً، وكيف أنّ سميرة سوسةٌ تُخفي الكثير، ولهذا كانت ترفضُ الجميع متعجبةً في النهاية، وسألَتها عن السرِّ العجيب في عدم السفرِ معه صباح الغد لتوقظَ بداخلها المرارة التي تعتريها وهي تسترجعُ النقاشَ الذي دار حول ذلك مع عصام وهي ترجوهُ بأن يبقى معها لمدارسةِ ذلك الكائن الذي استطاعَ بكلّ مهارةٍ وبراعة أن يحصل عليه، وقد ذهبا به إلى إسطبلٍ لأحدِ أصدقاء عصام محتفظًا به بعيدًا عن الأعين الفضولية والمتسائلة، فكان ردُّه بأنّ المستقبلَ الحقيقي والبوابة العظمي ستتفتحُ له في سويعاتٍ، فما إن يصبح أستاذًا بتلك الجامعة يكون قد ارتقى ونال أعظمُ ما يمكنه الحلم به، ولا بدّ وأن يكون هناك ليتسلم مقاليدَ العمل بأسرعِ ما يمكن؛ لأنّ الفرصَ المميزة لا تأتي إلّا مرةً واحدة، ومَن فقدها فلا يلومنَّ إلّا نفسه بعد ذلك، حتى مرض أمه لم يشفع لهم بمحاولةِ إبقائه ولو أسبوعًا واحدًا بمصر وهو يتساءلُ ما الفارق في أسبوعٍ أو شهر لن يأت جديدٌ ببقائه هنا ومع وسائل الاتصال الحديثة الصوتية والمرئية يمكنهم التواصل اليومي كأنما تجمعهم غرفةٌ واحدة، تنهّدت سميرة وهي تبتسمُ

متذكّرةً أنّ وجودَه معها لأيامٍ قلائل قد قلبَ لها كلّ الموازين بالفعل، وحقّق كلّ أحلامها دفعةً واحدة، وعندما حاولت استثارةَ فضولِه وحاسّتِه العلمية بأنّ بحثَها حولَ ذلك الكائن سيمثلُ فارقًا إذا شارك فيه، ضحك وهو يعلم هدفَها وقال:

– ومَن قال بأنّي لن أشاركِ فيه؟ بالعكس مشاركتي معكِ من هناك ستكونُ أكثر فائدةٍ بما لدي من إمكاناتٍ بحثيةٍ هائلة، سأكونُ معكِ في كلّ خطوةٍ وسنفعلها معًا، ولكن عبرَ الأثير.

لم تستطعْ سميرة إقناعَه بأنّ تواجده معها يجعل المكان معبقًا بمشاعر لا يمكن أن تصفها، فعندما تتعانقُ الأرواحُ بقربها تصنع بيئة وتولد طاقة تدفع المشاعر لأن تتراقص فرحًا وشجنًا، وفي النهاية تنهدت عندما تذكّرت الفارق الكبير الذي يعتريها الآن، فبعد أن كانت تعيش على ذكرى وأملٍ غامض، جميعُ احتمالات تحقّقه غير مضمونة، أصبحتْ تتشبّث وتتمسّك به بقوةٍ وقد دنَا منها واقترب من حبل الوريد.

صفّقت ميرفت بقوةٍ وهي تقهقه قائلةً:

– أفيقي أيتها العاشقة.

استفاقتْ سميرة من أفكارها وضحكت خجلًا وهي تقول:

– نعم أنا معك.

***

نظر عصام نحو حقائبِهِ التي احتزمَها تأهبًا لسفرِهِ المرتقب في صباح الغد، وهو يراها أشبه بحاسوبٍ لا مصدر كهربائي له، أو سيارة جديدة بها كلّ التجهيزات الحديثة ولكن بلا وقودٍ، فقد فقدتْ كلّ قيمتها التي أعدتْ لها!!

رغم أجازته القصيرة ولكنّها كانت تزخمُ بأحداثٍ يظنّها جسامًا مثّلتْ فارقًا كبيرًا له، كان الهدفُ الوحيد لعودتهِ تلك أن يرى أمّه ويجالسها ويحاول إقناعها بالسفرِ معه بعد أن رفضت الذهابَ إليه في زيارةٍ من قبل، ولكن استمرّ رفضها لأجلِ أخته التي ترغب لها في زواجٍ طبيعي بمصر، اكتفى بالبحث عمّا يفتقدونَ إليه ومحاولة الاستزادة منه بكثرةٍ حتى يشعرَ في النهاية بأنه لم يقصر ويتخفّفْ من الشعور بالأنانيةِ.

سارتِ الأمورُ على أفضل ما يكون حتى ظهرت سميرة لتتوالى معها كلّ المفاجآتِ والتّغييرات الجذرية التي حدثت، والتي أهمّها من وجهة نظرهِ موافقتها على الزواجِ والسّفر معه لكندا بعد أنْ كان هذا من الخطوطِ الحمراء التي رسمتها هي لحياتها.

ومع اهتمامه الشّديد بأمر بحثها الجديد بذلَ أيضًا كلّ ما بُوسعه كي ينجح، وذلك ليصلَ إلى نتيجةٍ فارقة كانت تُمثّل له سؤالًا كبيرًا وقد آنت إجابته الآن، ولكن أن يتسبّب ذلك في فقدِ أهم ما وصلَ إليه بالطّبع لن يسمحَ بذلك، لذا كانت فكرته أن يساعد سميرة بالتواصل الإلكتروني معها

ومشاركة أساتذته في هذا البحث عن بُعدٍ، ولو استلزم الأمرُ بجلبِ الكائن إلى كندا للعمل المباشر عليه فلن يتوانى في ذلك، وبهذا يكون قد تعجّل مجيء سميرة كذلك ويكون قد حققَ ووصلَ لكلٍّ مبتغاه.

نسي تمامًا الشعورَ القديم بالهوانِ والنقمة والغضب على كلّ شيءٍ وأصبحت ذكرياتٌ بعيدة عندما تطرق باله يبتسمُ لها بسخريةٍ نابذًا إيّاها بسرعةٍ ليترسّخ بداخلهِ اليقين والاستقرار بأنَّ قراره هو السليم وما فعل هو الصواب المطلق، ولكن..

فجأةً، حدث الانهيار..

الخطوطُ المستقميةُ التي ظن بأنّها أصبحت سبيلَه اعوجّت، والشمسُ المشرقةُ التي تُنير دربَه أظلمت، والسعادةُ التي كانت تحتل جنبيهِ قُتلت وتمزّقت وتبعثرت أشلاؤُها!!

عادَ ببصرهِ للمرّةِ العاشرة إلى جهازهِ اللوحي مطالعًا البريد الإلكتروني الذي جاءه، والذي كان نَصّه بالإنجليزية يقول:

«عفوًا سيد عصام، تمّ رفضُ طلبكَ للتعيينِ أستاذًا مساعدًا بجامعة ألبيرتا، نتمنّى لك حظًّا طيبًا في مكانٍ آخر».

الآن، وقد ضاقت عليه نفسُه وتبدلَ كلّ ما كان يشعر به إلى نقيضهِ عادت إليه مشاعرُه القديمة لتقهقه بظفرٍ كبيرٍ ساخرة منه، كأنما يأبى هذا البلد إلّا أنْ يذيقه ذلك الشعور كلما تواجدَ بهِ!!

سمع صوتَ سميرة المتهدّج على الطرفِ الآخر من الهاتف وبمرارةٍ قررَ أن يصرعَ بهجتَها هذه، وأخبرها بالحدث وكانت دهشتُه عندما وجد فرحتهَا قد تضاعفت به، وهي تقولُ له:

– سبحان الله! انظر لأقدار اللهِ وتصاريفها، جئت لمصر مُتخفيًا وبصدفةٍ عجيبة اكتشفكَ، وينتج عن ذلك ارتباطنا الذي كم تُقنا إليه، وبعد أن يئستُ من محاولاتِ إبقائك يقعُ هذا الأمر، هلّا أدركتَ الحكمة من ذلك وتفكّرتَ فيها بقلبكَ قبل عقلكَ؟

قال عصام بعصبيةٍ وانفعالٍ كبيرين:

– دعْكِ يا سميرة من تلك التُّرهات المسمّاة بالأقدارِ وما شابه، الأمرُ عقليّ بحت، وتفاعلات مواقف لا أكثر ولا أقلّ، وسواء كنت هنا أو هناك لا فارقَ ولن يُؤثر في قرارهم الذي اتّخذوه.

بهتتْ سميرة بردِّه وانفعالِه ولعلمِها بمدى خسارتِه وما يعنيه ذلك له لم تشأ أن تُجادله أو تنكأ جروحه، ووجدتْ أنَّ السعي للتخفيف عنه هو الأهمّ والأولى الآن، فقالت:

– لا عليكَ يا عصام، اهدأْ باللهِ عليكَ، إن لم تقبلكَ هذه الجامعة فحتمًا ستقبلكَ أخرى هناك.

قال عصام بوهنٍ:

– هذه الجامعةُ بها الأساتذة الذين تعاملوا معي بشكلٍ مُباشر، وانبهروا بأدائي، وفي النهاية رفضتني، فكيف سيقبلُ بي الآخرون؟!

كانت سميرة تدركُ مدى ألمه فقالت محاولةً بثّه مزيدًا من الأمل:

– أرى بأنَّ بحثنا المشترك حول ذلك الكائن الذي جاءنا كهديةٍ خاصّةٍ قد يكون مسوغًا فريدًا، ربما لقبولكَ بألبيرتا نفسها إن نجحنا فيه وجئنا بجديدٍ مُبهر للعالم، وقتها سيتصارعون جميعًا لأجلكَ.

صمتَ عصام كثيرًا وهو يديرُ الأمر برأسه، تذكّر ذلك الكائن وهو يتسلّمه في كلية الطبِّ البيطري، فرغم تعجّله للانصرافِ قبل أن تحدث مفاجأةً أخرى تكشفه وتحبطُ كلّ شيء إلّا أنه لاحظَ جيدًا مخالفته لكلّ ما هو مألوفٌ لدى القردة بهيئتهِ ومشيتهِ وربما التفات رقبته يمينًا ويسارًا باحثًا عن شيءٍ ما بشكلٍ فضولي، نجحت سميرة بجُملتها الأخيرة في كلّ المسارات التي تريدها، لقد بثَّت فيه التفاؤل بالفعل، وضاعفتْ اهتمامه بهذا البحث الذي لم يعُد مجرّدَ فضولٍ علمي، وإنما الأملُ الأخير في الوصول إلى ما يصبو إليه، وأخيرًا هدأتْ أركانُه وتغيرت نبرةُ صوته وهو يقول:

– أتمنّى ذلك بالفعل.

قالت سميرة بحذرٍ:

– هل ستشاركني البحثَ هنا بمصرَ وقد انتفى سببُ سفركَ العاجل؟

ابتسم عصام رغمًا عنه، وقد وصله مُبتغاها الحقيقي وشاكسَها قائلًا:

– سأفكّرُ في ذلك.

***

الفصلُ الثّاني

البحث

كظمتْ سميرة ضحكةً تكاد تنفجر منها، والتهمتها الدهشةُ عوضًا عنها، وهي تنظرُ غيرَ مصدّقةٍ لما تراه، وقفته بردائهِ المنسق متناسق الألوان بحزامِه الجلدي وحذائِه اللامع وتصفيفِ شعره الكثيف للخلف، كلّ ذلك جعلها تُوقن بصحةِ افتراضها الأوليّ وقد أصبحت في غنًى عن أيِّ دراساتٍ أخرى!

لقد كان بهيئةٍ بشريةٍ تامّة ومتكاملة لولا غلظة ملامحه ونظرته التائهة التي لا تدري.. هل هي فضولٌ أم خوف؟ التفتت نحو عصام وقالت له:

– كيف فعلتَ كلّ ذلك؟! لولا معرفتي بما تصنعُ لظننتُ أنكَ قادمٌ برفقةِ أحدِ معارفك!

شدَّ عصامُ الكائن من يدهِ نحو باب السيارة المفتوح وخفضَ رأسه باليدِ الأخرى كي لا يصطدمَ بحافّتها العُلوية وعندما تيقنَ من استقرارهِ بالمقعد الخلفي أغلقَ الباب بإحكام واستدار ليستقرّ بالمقعدِ المجاور لها، وعندما بدأت السيارةُ في رحلةٍ انطلاقها تنهّد وقال مُجيبًا سؤالها:

– أنا بالفعلِ تشكّكتُ الآن في كلّ شيءٍ لدرجةٍ تجعلني أظنّه أحدَ المشردين الذين استوطنوا تلك البقعة التي وجدوهُ بها، ولولا خرسه واستكانتهِ العجيبة هذه مع ملامحهِ المغايرة قليلًا لفقدتُ الأملَ في أن نجدَ جديدًا.

يومٌ كامل بذلَ فيه عصام الكثيرَ من الجهد كي يخرج به على هذه الهيئة، فأوّلُ فحصٍ عادي يجب أن يخضع له هذا الكائن هو الفحص الطبيّ المتكامل من أشعّاتٍ مختلفة أيًّا كان نوعها ابتداءً بأشعةِ إكس مرورًا بالموجات الصوتية حتى الرنين المغناطيسى مع فحصِ الدماء الشّامل، فبهذا يمكنهم الخروج بتكوينهِ التشريحي الداخلي مع تحديدِ الكثير من الوظائف الفيسيولوجية، ولكن مع عدمِ إجراء تلك الدّراسات تحت رعاية أيّ جهةٍ بحثية سيكون هناك الكثير من المعوقات بغضِّ النظرِ عن المادية منها، والتي تُعتبر أهونها بالنسبة لعصام الآن، فالتحرّكُ من مكانٍ لآخر برفقة الكائن سيكونُ مثل وجود منتقبةٍ داخلَ ملهًى ليلي، ستتّسعُ العيونُ دهشةً واستنكارًا وتشككًا، ولن يسلم الأمرُ من تصرّفاتٍ عُدوانيةٍ أو حمقاء؛ لذا لجأَ لأبسطِ الحلول؛ إذا كانت هيئتُه تقتربُ للبشر فلم لا نُكثّفَ من هذا الاقتراب لينتفي التعجّبُ عنه؟

وقف أمامه برهةً يفكّرُ فيما يلزمه لأجل هذا، وبدأ بقصِّ وحلاقة الشّعر الكثيف بوجههِ ورقبته، وكمْ كانت دهشتُه عندما وجدهُ بملامحَ بشريةٍ بشكلٍ كبير، من المستحيل أن يكون هذا قردًا! ولأنَّ الفحوص يلزمها كشفُ صدره وبطنهِ أمام أطباء ولا يرُيد منهم فضولًا أكبر، فعل المثل بهذه المناطق وجلبَ له رداءً يناسب قامته ولم يستطع كتمان ضحكته عندما رآه يقفُ بمنتهى الأناقة، فوضعَ نظارته الشّمسية السوداء على عينيهِ وحاول التقاطَ صورةٍ له بجواره، وما زال الكائنُ في حيرته البادية عليه وهو يحاول

نفض الملابس بيديه ولم يتحمّل النظارة السوداء على عينيهِ كثيرًا فضربَها بكفّه ليكسرها مُصيبًا حاجبه العلوي بجرحٍ قطعي صغير جعل عصامَ يهتفُ استنكارًا لفقدانِ نظارته الثمينة التي جلبها من كندا، وكذلك لانشغاله في تضميد هذا الجرح.

قطعتْ سميرة الصمت قائلةً:

- أتمنّى إلّا يستوقفنا أيّ متعجّبٍ مما سيراه هناك.

قال عصام ببساطةٍ:

- المالُ يمنحكَ سلطةً وهيبةً تُطفئ كلّ التساؤلات وتجهضُ أيَّ تعجب.

أوقفتْ سميرة سيارتَها بمنطقة الانتظار الخاصّة بهذا المستشفى الخاص والنّائي، والذي اختاره عصام بعنايةٍ بعد بحثهِ على شبكة الإنترنت عن جميع المستشفيات الخاصّة بالقاهرة وأماكنها وإمكاناتها، ولم تستطع منعَ ضحكتها هذه المرّة وهي ترى عصامًا يصحبُ الكائن مُشّبكًا ساعديهما معًا كأنما هما حبيبان يتنزهان على شاطئ النيل واستبقتهما إلى الاستقبال لتجد الموظفة الأنيقة بشكلٍ مبالغ ترسم لها ابتسامةً خاويةً وهي تقول لها:

- أهلًا بك يا أفندم.

قالت سميرة مباشرةً:

- نُريد عملَ أشعّاتٍ وتحاليل ورسمَ قلب لديكم ضمنَ فحصٍ شامل.

أخرجت الموظفةُ دفترًا كبيرًا، وأعدّت قلمَها للكتابة وقالت:

- ما الاسمُ بعد إذنكِ؟

بهتتْ سميرة للسّؤال ونظرت لعصام الذي وصلَ للتّو، وقالت وهي تقاوم ضحكةً أخرى:

- ما اسمُ المريض؟

ببساطةٍ اختلق عصام اسمًا ثلاثيًّا يبدأُ بآدم ومنحَه للموظفة وفعل المثلَ مع السنّ وبقية المعلومات، وبالطبع لم يعطها عنوانًا حقيقيًّا، انتهت الموظفةُ من ملءِ استمارتِها ومنحتْهَا لهم وطلبت منهم التوجه لعيادةِ أحدِ الأطباء بالاستقبال، وبعد نصف الساعة كانت الرحلةُ للمرور على كافّةِ معامل الأشعةِ والتحاليل، وعند جهاز الأشعةِ المقطعية والذي ينام المريض به على سريرٍ صغيرٍ مُتحرّكٍ ليدخل في كوةٍ مستديرة تطلقُ الأشعة نحو الجسدِ المارّ بها، خشي عصام أن يهتاج آدم بمثلِ ما فعل عند ارتدائه للنّظارةِ فطلبَ منهم حقنةً بعقارٍ مُهدّئ أو مُنوّم وقد كان، وكان العجبُ كلّه حينما ذهبَ لأخذ عينةِ الدم منه، فرغم إحكامُ عصام السيطرةَ عليه والإمساك بساعدهِ وفرْدِ ذراعه بقوةٍ إلّا أنَّ مجرّد ولوج سنِّ إبرةِ المحقن بوريدهِ جعلَه يرفع رأسه لأعلى ليطلقَ أوّلَ صوتٍ مسموعٍ يطرق أذني عصام وسميرة، كانت كلمة "آآآه" ممتدّة وطويلة وبصوتٍ أجشٍّ مجلجلٍ جعل الممرضُ القائم بعمليّة سحبِ العينة يجفل قليلًا وهو ينظر بدهشةٍ نحوه، ولكن وكما اعتادَ نفضَ هذه

الدهشةِ سريعًا واهتمّ بعمله الذي يعود عليه بمقابلٍ جيّد يُغنيه عن شغلِ نفسه بأيّ أمورٍ خاصّة برواد المستشفى؛ المشين منها والعجيبُ بمثل ما سمع الآن.

ارتبكَ عصام وتغيرت خططه كلّها بعد سماعه لتلك الآهة التي صرخ بها آدم، كان ينتوي إجراء الفحوص وفقط هنا ثمّ عرض نتائجها على خبراءَ متخصّصين في كلّ قسمٍ من الأقسام الطبية التي تنتمي إليها كلّ فئةٍ مما فعل، بعضها على أطباء المخ والأعصاب وأخرى على أطباء الصدر والقلب وهكذا ولكن دون معاينة ظاهرية إلّا إذا وجد ما يستوجبها لدي أيّ قسم من الأقسام التي سيزور خبراؤها، ولكن كان اعتقادُه اليقيني بأنَّ آدم هذا أخرسٌ بسبب عدم صدور حتى همهمةٍ منه منذ رؤيتِه له، أمّا الآن وبعد نطقهِ لحرفين بشكلٍ واضحٍ جدًّا ومبالَغ فيه يجب عليه أن يصل لنتيجةٍ أولية قبل مغادرة هذا المستشفى؛ لذا وبعد انتهاء فحوصاتهِ وإخباره بأنّ النتيجةَ بعد ساعتين قرّر الكشفَ عن أمرِ النّطق هذا لدى طبيبِ السمعيات بالمستشفى، والذي استمع لهما باهتمامٍ مصطنَعٍ، وعصام يخبره بأن آدم لا يتكلمُ أبدًا رغم أنه يمكنه التأوّهَ بحروفٍ واضحةٍ جدًّا، وبآلية.. ودون أن يسألهما عن مدّة هذه المشكلة أو متى ظهرت خطَّ على دفترهِ بعض الرّموز غير المتناسقة بلغةِ المفترض بها أنّها الإنجليزية وقال له وهو يرسمُ تلك الابتسامة الآلية:

- حسنًا فلتقمْ بعمل هذه الأشعات وتجلبها لي.

نظر عصام نحو الورقة التي أخذها منه محاولًا قراءة كلمة واحدة منها وبعجزٍ قال له:

- أيُّ أشعاتٍ هذه؟

قال الطبيبُ مبررًا:

- أشعةٌ مقطعية ورنين مغناطيسي على المخّ لمعرفة هل هناك ما يضغطُ أو يُؤثر على المنطقة المسئولة عن الكلام بالمخ أم لا.

فقال عصام مندهشًا:

- إلّا تغني الثانية عن الأولى! فلم الاثنتانِ معًا؟!

نظر الطبيب بعمقٍ نحو عصام، وقد استشعر به الفهم للكثيرِ من الأمور الطبية فقال:

- لكلٍّ منهما درجة معينة في الفحص، ولكن يمكنك عملَ الرنين المغناطيسي فقط، وسوف أبذل جهدًا يغنينا عن المقطعية.

هزَّ عصام رأسَه بعجبٍ وتنهّدٍ وقال:

- حسنًا، نحن بالفعل قمنا بعملِ هذه الأشعة هنا بالمستشفى وننتظر نتائجها في خلال ساعتين.

هتفَ الطبيب مستنكرًا وقائلًا:

– ماذا؟ ومَن الذي طلب منكم هذه الأشعة قبل مجيئكم إليّ؟

قال عصام ببساطةٍ:

– موظفةُ الاستقبال هي مَن أرسلتنا لأحد أطباء الاستقبال ليكتب لنا الأشعة المطلوبة.

قال الطبيبُ بغيظٍ:

– بنت الـــــ ... وقطع سُبابَه ووجهه يتمعرُ بالضيق ثمّ قال مخرجًا ما يخفّفُ البركان الذي يعتملُ بصدره.

– يبدو أنّ بينهما قصصًا مشتركة وتُريد زيادة دخله بنسبتهِ من الأشعة التي كتبها لكم.

ظلّ عصام مبهوتًا جامدًا لوهلةٍ ثمّ قال:

– لعلمِك فقط، نحن لم يكنْ بجدولنا المرورُ عليك، وكنّا نُريد عمل هذه الأشعةِ مع غيرها من الفحوص وفقط، ويبدو أنّ مجيئنا لك كان خطأً بالفعل.

وقام عصام مُنتصبًا وهو يمسك بيد آدم ليوقفه، وسميرة من ركنِها القصيّ ترقبُ الأحداثَ بشغفٍ ولا جديدَ بالنسبة لها في كلّ ذلك، حاول الطبيب إصلاح ما يمكن إصلاحُه وهو يقول:

– لِمَ كلّ ذلك؟ أنا أتحدثُ عن شئونٍ إداريةٍ خاصّةٍ بالمستشفى وكنت أظنّ أنّ هناك مَن اعتدى على اختصاصي لا أكثر.

نظر عصام نحوه شذرًا، وجذب آدم للسير معه وانطلق به وخلفه سميرة دونَ أن يجيبه بحرف.

***

هدّأت سميرة من سرعتها كثيرًا لتقف خلفَ صفّ طويلٍ بأحدِ الشّوارع المزدحمة بقلبِ القاهرة ظنًّا منها أنها أحدُ الاختناقات العاديةِ التي تنالُ من عُنق جميعِ الميادين بمدينةِ الزحام المثقلة، ولكنَّ السيرَ البطيء بمعدلِ سيارةٍ واحدة كَلّ خمس دقائق أشعرَها بأنّ هذا التوقف لشيءٍ آخر غيرَ الزحام المعتاد، واكتشفت ذلك عندما ظهرَ لها على مَدٍّ بصرها إحدى لجانِ التفتيش المرورية التي تتمركز فجأةً أينما يحلُو لها، نظرت نحو عصام بتساؤلٍ قائلةً:

– ماذا سنفعلُ إن سألوا عن هويته؟

تردّد عصام وأجاب قائلًا:

– في الغالب لن نصلَ لهذا الحدّ، سيكون البحث عن تراخيصِ القيادة والسيارة فقط.

– هذا في الكمائنِ الثابتة، أمّا العشوائية التي تظهر فجأةً هذه لا يمكنك توقّعَ مدى توغلهم معك.

صمتَ عصام هنيهةً، والسيارةُ قد اقتربت جدًّا وهو يُمعن بصره ليرصد المتّبع مع السابقين له وقال لها:

– استعدّي بترخيصاتِك فقط، ولو تطرق لغيرها لا ترتبكي، واتركي لي زمامَ المبادرة.

هزّت رأسها بالموافقة، وقد نالَ منها الارتباك بالفعل قبل أن تصل إليهم، فكيف سيكونُ الحال عندما تقع بين أيديهم؟!.

السيارةُ التي تسبقها أشارَ لها رجل الشرطة بالمرور دون فحص وهو ينظر نحوها والقلقُ يفترس ملامحَها فأشار بيده ليستوقفها قائلًا جملته الخالدة:

- الرُّخص.

بارتعاشٍ واضح مدّت يدها لتُعطيه إيّاها، ودون أن ينظرَ إليها مالَ برأسه للأسفل مستطلعًا ما بداخل السيارة ليجد عصام ممسكًا بنتائجَ فحوصِ آدم بين يديه وعندما امتدّ بصره للخلفِ وجد الأخيرَ بنفس جِلسته الساكنة وملامِحه التائهة، فقطب جبينَه وهو يمعن النظر إليه وقال موجّهًا الحديث إليه:

- أنت مصري؟

ارتجفتْ أوصالُ سميرة رعبًا وقد اقترب الرجلُ للغاية من إدراك الجريمة المنغمسة فيها، ولكن قتل عصام ارتباكَها حينما مدَّ يده بنتائج الفحوص إلى الرجل وهو يقول له:

- نعم.. إنه أخي، معاقٌ ذهنيًّا ولا ينطق، وكنّا نقوم بعملِ فحوصٍ طبيةٍ له وهذه هي النتائج.

كاد الرجلُ يصدّ يد عصام بما فيها، ولكنّ بصرَه أدركَ ما خفي عنه للوهلةِ الأولى فابتسم وتناولها لثانيتينِ، ثمّ أعادها لعصام مع التراخيص وهو يدسّ يده اليسرى في جيبه قائلًا:

- تفضّلوا.

انطلقت سميرة بالسيارة كأنما تفرُّ من شبح وهي تتساءَلُ عن سرِّ ردّ فعله العجيب وعصام يضحكُ قائلًا:

– إنها الخمسون جنيهًا التي دسستُها بين ثنايا الأوراق.

نظرتْ سميرة نحوه بعنفٍ قائلةً:

– ماذا!! إلّا تلاحظُ أنّك تُكثر من الرشاوي في كلّ تعاملاتك؟

قال عصام بحدّةٍ:

– ما رأيكِ هل تفضّلين المساءلة التي لن تنتهي إلّا باقتيادنا للسجن أم المرور من الأزمة هكذا؟ الحمد لله أنّي رأيت أحد السائقين في السّيارات السابقة لنا وهو يمنحه إيّاها أيّا كان سببها، المهمّ أنه أعطاني الحلَّ إذا اقترب الرجل بمثلِ ما حدث.

همّت سميرة أن تردَّ عليه، ولكن ارتبكت ولم تدرِ بأيّ شيءٍ ترد عليه، الأمورُ كلها متشابكة ولمْ تعد تدري أين الصوابُ من الخطأ، تبًّا لحياةٍ تدفعُك لدهسِ كلّ مبادئك عابرًا فوقها أيًّا كان غرضُكَ النبيل وهدفُك السامي، حاولت تجاوز هذه النقطة فتساءَلت قائلةً:

– ما هي خطوتنا التالية؟

فاعتدل قائلًا:

– في المساء، سأُخبرك بها بعد أن أدرسَ جيدًا كلّ الخيوط التي نحن في حاجةٍ إليها لإكمالِ هذا البحث.

***

كانت سميرة تتهادى بمشيتها جوار "منى" التي تدفع كرسيها بمنتهى النشاطِ في تلك الحديقة التي اعتادتا على الخروج بها كلّ حينٍ كلما تيسر لهما ذلك، وأخيرًا وصلتا إلى الجزءِ النائي والهادئ بها لتحاول "منى" السيطرة على لهاثها للجهدِ الذي بذلته وسْطَ مقاومةِ الحشائش والأرض غير الممهّدةِ في كثير من المواضع لعجلاتِ كرسيها، جلست سميرة على الكتلةِ الخرسانيةِ الناعمة والنظيفة بمواجهة رفيقتها وقالت لها باسمةً:

- أنتظرُ التفاصيل يا أميرة الجميلات.

تورّد وجهُ "منى" الجميل فرحةً، وببسمتها المميزة قالت:

- كان "عادل" هو الممتحنَ لي شفهيًّا في امتحان اللغة الألمانية، صوتي السّاحر من ميكروفون حاسوبي والذي سافر إليه عبرَ الأثير أسكره، ووجهي الذي طالعه عبر الكاميرا، التي توجّب فتحها أثناء الامتحان، ذهب بما تبقى من عقله، ومن يومها وهو يفتعلُ المناسبات ليراسلني، مرّةً للحديث حول بعض التجديدات التي طرأت على دورة تعليم اللغة الألمانية للدفعات الجديدة، سيرسلها لي رغم عدم حاجتي إليها بعد تخرّجي ونيلي للشهادةِ المرجوة، وثانيةً يخبرني فيها عن ندوات لمحبّي اللغة الألمانية، سيقوم بتسجيلي بها رسميًّا، ومشاركتي ستكون على الهواءِ وعبر شبكة الإنترنت وليس بالضرورةِ الذهابُ إليهم، وأخرى بعروضِ السفر لألمانيا للمتميزين أمثالي.

قالت سميرة بحبورٍ:

– رائعٌ، الرجلُ يتقربُ إليك بكلّ السبل المشروعة، ما عيبه إذًا؟

شردت "منى" ببصرها قليلًا، ولم تدرِ سميرة أبدًا بما يجولُ في خاطرها وقالت:

– هو مصريّ مقيمٌ بألمانيا، ولو تطور الأمر بالصورة المرغوبة سيتحتم عليّ السفر والعيش هناك أبدَ الدّهر، فليس ضمن مخططه العودة إلى مصر.

اعتدلت سميرة في جلستها وقالت:

– لقد سبقتك في التفكير بهذه النقطة وأخذت مني التجربةُ سنين عديدةً حتى اقتنعت في النهاية بجدوى السّفر لمن لا يجدُ له هنا سبيلًا.

تنهّدت "منى" بقوةٍ وقالت:

– الحالُ يختلف كثيرًا معي، تقريبًا أنا مَن يُنفق على البيت بأكمله، أمّي وأبي وإخوتي الأربعة بوضعهم الحالي، وضيقِ العيش الذي يرضخون فيه مع المهن البسيطة التي يعملون بها، لا منجاةَ لهم إلّا بوجودي وسطهم.

سرحتْ سميرة لحيظةً وهي تتعجّب المفارقة في أنّ "منى" هي قائدةُ مركبهم وليست العبء الواقع عليه وقالت:

– يمكنك الاستمرار فيما تفعلين وأنت هناك.

– تفاعلكِ مع مشكلةٍ يعيشها بطل مسلسل تشاهدينه دونَ ملامسةٍ لواقعه تختلفُ تمامًا عن اختناقك بغبارِ وآثارِ هذه المشكلة إنِ انغمست فيها وتألمت بشظاياها.

سرحتْ سميرة للمرّةِ الثانية وهي تتذكرُ تعليق أمّ عصام عندما قالت بأنّ المالَ ليس كلّ شيء، دائمًا ما تخرج من "منى" بعباراتٍ بسيطة تحتاجُ مجلداتٍ لشرحها وبيان الحكمة العميقة بها، سميرة نفسها كلما ضاقَ بها السّبيلُ تأتي إليها لتخرج منها بعبارةٍ واحدة يكون فيها الحلّ أو المواساة لما هي فيه، فابتسمت وقالت لها:

- حاولي خوضَ غمار التجربة، فقد يكون هناك حلٌّ لديه ولا يخطر ببالك، ولا تضيّعي هذه الفرصةَ من يديك فقد تندمين كثيرًا عليها.

ضحكت "منى" وقالت:

- الحياةُ لا تتوقّف على فردٍ مهما كانت أهميته.

***

«مركز أبحاث القواقع»

نظرتْ سميرة بدهشةٍ إلى اللافتةِ التي تحمل هذا الاسم وتكادُ تختفي خلف شجرةٍ كبيرة مُورقةٍ لمبنى متوسط الحجم من طابقٍ واحدٍ من الواضح عليه أنه أسّس بشكلٍ جيدٍ ولكن تمَّ هجره منذ أمدٍ وقالت لعصام متسائلةً:

- ما هذا؟!

ابتسمَ عصام وبينما يحاول أن يُولج مفتاحًا بالقفل الصدئ قال:

- هنا سنبتعدُ عن معاناة الانتقالات والتعرّض لأيّ مضايقاتٍ أو ملاحقات مع آدم.

عقدتْ سميرة ساعدَيها أمام صدرها وقالت بضيقٍ واضحٍ:

– من السَّهل أن تستأجرَ سيارةً أكثرَ راحةٍ بسائقها!

ترك عصام القفلَ الذي يأبى الاستجابة والتفتَ إليها وهو يرفعُ حاجبيه قائلًا:

– ماذا دهاكِ يا سميرة؟

قالت ووجهها ما زال مثقلًا بأماراتِ الضيق:

– هذا هو الدّورُ الوحيد الذي أقومُ به معكَ، ألم تلحظ أني دومًا متفاجئةً بكلِّ قراراتكَ رغم افتراض أنّنا نتشارك هذا البحث؟

تنهّد عصام وقال:

– ومَن قالَ بأنّ البحثَ قد بدأ، ما زلنا في مرحلةِ الإعدادِ له، وكلُّ ما قمتُ به هي خطواتٌ لا بدّ منها، وكان من الصعبُ عليك إنجازها لعدم تفرّغكِ إلّا بالنصف الثاني من اليوم، هذا المركز كان نشطًا حتى بداية الألفية وبدعم كندي، وعندما اختفت مخاطرُ البلهارسيا الكبرى لم يعدْ له جدوى، وبدلًا من إشغاله بأي شيءٍ جديد بجرةِ قلم تمَّ إيقافُ العمل به وتسريح الطاقم بالكامل منه، فوجدت أنه من المفيدِ لنا استخدامه كمركزِ أبحاثٍ وبشكلٍ شبه رسميّ يسهل لنا كلّ ما نريد.

لوّحت بيدها وقد احتدّ صوتها قائلةً:

– كلّ هذا جميلٌ، ولكن كيف توصّلت إليه؟ ومتى؟ وممّن نلت الموافقةَ على استخدامه؟ وكيف لم يردْ بكلامنا منذ يومين أيّ تلميح عنه؟!

قال عصام بضجرٍ كبير:

– دعْكِ من هذه التفاصيل الصغيرة يا سميرة، المهمّ أن نبدأ الدراسةَ بشكلٍ جيد، ونتقدّم فيها بدلًا من الخوض في أي شيءٍ يلهينا.

عقدتْ حاجبيها وقالت مستنكرةً:

– تفاصيلُ صغيرة!!! حسنًا يا عصام دعْني أسألكَ عن نتائج الفحوص التي أجريناها وقلت بأنّك ستعرضها على مختصّين.

ردّ عصام بضجرٍ أكبر قائلًا:

– سيأتيني الردُّ مساءَ اليوم، هل يمكنني التفرّغ الآن لفتح هذا المبنى لرؤيةِ ما به، وكيف سنعدّه لدراستنا؟

أشارتْ سميرةُ بكفّها نحو الباب دلالةً أن "تفضّل قمْ بعملك" دون أن تتفوّهَ بحرفٍ وأشاحتْ بوجهها بعيدًا تاركةً إيّاه منغمسًا في محاولة فتحِ القفلِ المستكين منذ أمدٍ دون حتى محاولة استرضائها أو تطييب خاطرها، وأخيرًا دخلت معه لتجدَ التراب يقطنُ المكان بكثافة، استطلعا معًا غرفًا خمسة، والتي يظهر بعضها أنها كانت معاملَ عامرةً بأجهزةٍ كبيرة، ولكن اختفت ولم يتبقّ إلّا جدران المبنى والهياكل المعدّة لحملِ هذه الأجهزة، استغرق عصام في تصوير المكان بجميع أرجائهِ وخرجَ معها، وقبل أن تصلَ للسيارة استوقفها قائلًا:

– الآن نريدُ مَن يُنظّف هذا المكان وسوف نعيدُ تصميمَ بعض الأجزاء به لتحمل كلّ الأجهزة التي ستأتي إلينا، فما رأيكِ هل تعرفين مَن يقوم بهذه المهمّة؟

بملامحَ جامدةٍ قالت سميرة:

– افعلْ ما تراه صوابًا، دوري سيحين معكَ حين البدء الفعلي في هذه الدراسة.

ردّ عصام مسرعًا وقائلًا:

– ها أنتِ مَن قلتِ ذلك كي لا تشتكين بعد ذلك.

نظرتْ سميرة نحوَه بعمقٍ، ثمّ ردّت بنفسِ الآلية قائلةً:

– اطمئنّ لنْ أشتكي بعد ذلكَ.

***

مرَّ أسبوعٌ كامل دون اتّصال من عصام ولا حتى تساؤلٍ عن أخبارها ولو على سبيل المجاملةِ، كانت سميرة تشعرُ بغضبٍ جمٍّ لذلك، غاب عنها خمسةَ أعوام واحتفظ قلبُها بمحبّتِه والشوق إليه، ولكن في أقلِّ من شهرٍ بدأت مشاعرها تضطرب رغمَ قُربه، حاولت بعقليتها العلمية والمنظّمة أنْ تُهدئ من روْعها وتُطيبَ خاطرها بنفسها، شغفُ عصام العلمي بالفعل يستغرقه تمامًا، وحتمًا الأعوام السابقة التي قضاها بتلكَ البلادِ الباردة قد أكسبته عادةَ تقديم التفكير العملي والعقلاني فوق أيِّ مشاعر مهما كانت أهميتها، ولكن لا تنكر أنْ الغيابَ دومًا هو ما يجعلنا نفترض السموّ، وكلّ الفضائل في الغائب، فالغربةُ تنسيكَ كلّ المساوئ وتقحم ذاكرتكَ بكلِّ اللحظات الطيبة

والذكريات الجميلة وتظهر لكَ المثالب مع تعظيمها لأبعدِ مدًى، ربما لهذا يكون الميت دومًا من العظماء ويتّصفُ بنقيضِ ما كان يُوصم به قبيل موته!!

لذا سرحت بذاكرتها لما قبل سفرهِ لتتذكّرَ لهفته دومًا على سماع صوتها، ابتكاره لكلِّ الحيل كي يجالسها ولو ربعِ ساعةٍ فقط لاحتساء كوبٍ من الشاي، المراجعُ النادرة التي كان يحصل عليها ويُسابق أنفاسه لكي يصلَ إليها ويبشرها بالحصولِ عليها ويشاركها إيّاها بكلِّ أريحيةٍ، وقبل أن تنغمسَ في المقارنة ارتفع رنينُ جوالهَا لتجدَ شاشته تسطعُ باسمه، ابتسمت رغمًا عنها فقد كان الأمر كأنما شعرَ بما يدور ببالها وأراد أن تتوقّف عند هذا الحد، وتمنّت أن تكتملَ ذكرياتها بخطّ واقعيٍ مُماثلٍ فردّت عليه لتجده يقول لها بكلِّ شجنٍ:

– هل أميرتي الغاضبة يمكنها التنازلَ لتناول الغداءِ معي اليوم.

فجأةً تبخّرت كلّ مشاعرها السلبيةِ وأفكارها السيئةِ السابقة، جملةٌ واحدة طيبةٌ كانت طبطبةً رائعةً على روحِها جعلتها بمشاعرها الأُنثوية التي جُبلت عليها تهتزّ فرحًا، وتتّسع ابتسامتها أكثرَ وتقول في تدللٍ:

– المهمّ أنكَ استشعرتَ هذا الغضب.

ضحك وهو يقول:

– الحقّ يُقال أنَّ غضبك له مذاقٌ خاصٌّ يجعلني أُريد رؤيةَ ملامحك التي تزداد جَمالًا به.

رغم علمها بنفاقهِ الواضح إلّا أنها سعدتْ به، وكفاها يقينها بسعيه لإرضائِها ولو كان بالمبالغةِ في الكلام، فقالت:

- أتمنّى لهذا الأسبوع الذي مرَّ عليّ كسبعِ سنوات أن يكون بفائدةٍ تستحق.

بمنتهى الحماس قال عصام:

- سأَمرُّ عليك الآن لنذهب معًا إلى مركزنا، وستدهشين لأبعدِ مدًى بما ستجدينه هناك.

شغفُها العلمي كذلك خرج بها من مجرى المشاعر المتدفق واعتدلت في جلستها وهي تقول:

- لا تتأخّر، أمامُك خمسُ دقائق فقط.

سعدتْ بصوتٍ قهقهته وهو يقول:

- خمسُ ثوان لا أكثر.

***

«مركز أبحاث العلوم الحيوية»

عنوانٌ غامض لا يمكنك أبدًا استنتاج ماذا يعني، وبالتالي ستمر العين دون توقفٍ عنده مثل الكثير من المراكز المنتشرة بأرجاءِ القاهرة، كان هذا أوّل ما لفت انتباه سميرة لتتوالى بعد ذلك المفاجآت على رأسها، المبنى

المُترب القاتم فجأةً تحوّل لمركزٍ علميّ حقيقيّ مُتألقٍ بكل ما فيه ابتداءً من دهانِ جدرانِه الذي تجدّدَ وتلميع بلاطِ الأرض به وتغيير الأبوابِ الخشبية إلى أخرى معدنيّة نصفها الأعلى زجاجي وبمزاليج حديثة، ومكيّفات الهواء التي احتلت موقع المراوح القديمة، وأخيرًا الأجهزة الكثيرة والتي لا تعرفُ ماهية الكثير منها مع الحواسيب المتوفّر منها اثنان على الأقلّ بكلِّ قاعةٍ، والتي يظهر عليها أنها حديثةٌ جدًّا، وحجرة بالكامل بها حاسوبٌ مركزي مع خادم قوي لربطِ كلّ ذلك بشبكةِ الإنترنت بسرعةٍ فائقة، وأخيرًا حجرةٌ بها سريرٌ مريحٌ ومنظّم مع بعض الأجهزة التي يخرج منها ثلاثةُ شاشاتٍ لا تدري هل هي شاشاتُ حاسوبٍ أم شاشات تلفاز، وآدم مستلقٍ بنظرتهِ الشاردة فوقه، والغرفةُ الأخيرة مغلقةٌ، وعصام يشرح لها قائلًا:

- لم يحنْ دورها بعد.

وقبلَ أن تسألُه عمّا سيكون دورها، إذا ببوقِ سيارةٍ بالخارج تَوافقَ مع رنين هاتفه ليبتسم قائلًا:

- ها قدْ حان.

وردّ على الهاتف قائلًا:

- نعم يا عمّ عبد الباسط أنا بالداخل فلتُدْخل القردةُ واحدًا تلو الآخر، البابُ مفتوحٌ ادفعه مباشرةً.

ارتفع حاجبا سميرة ليلتهما نصف جبهتها وقالت:

- هل هذا عبد الباسط الذي خدعكَ؟!

ضحك عصام بقوةٍ وقال:

– إذا استبعدت العاطفة التي تتحكّم في كلّ قرارتِنا ستجدين أنّ أعداءَ الأمس قد يصبحون أصدقاءَ اليوم، المهمّ أن تتحقّقَ بغيتكِ وتصلين لهدفكِ.

قالت سميرة محتجةً:

– بالفعل لقد رأيت تطبيقك الجيد لمبدأ (الغايةُ تُبرر الوسيلة) في أكثرَ من موقف.

مطّ عصام شفتِه السفلى وقال:

– هذه الجملة أصبحت سيئةَ السمعة؛ لذا لا أحبُّ قولها.

همَّت سميرة أن تردّ عليها، ولكنّ دخول الرجلِ برفقةِ أحد القردةِ ألجمها، كانت هذه هي المرّة الأولى التي ترى فيها عبد الباسط هذا، هيئتُه بحاجبيهِ الكثيفين وعينيه الضيّقتين ونظرتِه المتفحصة لكلِّ شيءٍ بالمكان أنبأتها أنه خيرُ تمثيلٍ متجسّدٍ لمحترفِ اصطيادِ الفرص واقتناصِ الغنائم أينما كانت، وأخيرًا فتح عصام الغرفةَ الخامسةَ لتجدها تحوي عدّةَ أقفاصٍ أدخلَ بكلٍّ منها قردًا يختلف في فصيلته عن الآخر، وأخيرًا تناول عبد الباسط شيكًا ظلّ يعيد قراءَته أكثر من مرةٍ وعندما وجد ما يطمئنُه قبّلهُ ووضعه بجيبِه بمنتهى الحرص، ثمّ قال برجاءٍ وانكسارٍ:

– إلّا يوجدُ إكرامياتٌ للسائق بالخارج؟

ضحك عصام وهو يقول:

- وكأنَّ المبلغَ الكبير الذي يحويه الشيكُ لا يُغطي هذه الإكراميات!

قال الرجل برجاءٍ أكبر:

- واللهِ يا بيه لنْ أنالَ من هذا المبلغ إلّا ملاليم.

ولكي يتخلّص عصام منه منحَه ورقةَ فئة المائةِ جنيهٍ تلقفها الرجل ووضعها بجيبه بسرعةٍ وهو ينظر بالخارج ليتيقنَ بأنّ السائقَ لم يرها، وأخيرًا بعد انصرافه عقدت سميرة ساعديها وقالت:

- يبدو أنّه قد فاتني الكثير، ترى ما الجديد وما حاجتنا لكلِّ هذه القردة؟

ابتسم عصام وهو يقتادها إلى إحدى الغرفِ ليجالسها على المكتب الكبير والأنيق بها قائلًا:

- حسنًا، حتى تكوني على علمٍ بما سيدور هنا من الغدِّ، وبكلّ ما فات من تفاصيل سأُقصّ عليك الأمرَ من البداية، المبلغُ الكبير الذي دفعته مع أوّل فحوصاتٍ قمنا بها مع المتاعب التي ظهرت عند تنقلنا بآدم جعلتني أوقنُ بأننا حتمًا لن نكمل هذا البحث لو اعتمدنا على أنفسنا فقط، وبالطّبع من المستحيل الاستعانة بأيِّ هيئةٍ بحثيةٍ رسمية هنا بمصر، ولهذا راسلتُ أساتذتي بألبيرتا بفكرةِ البحث وطلبت منهم المساعدة، ومع استبعاد فكرةِ

سفر آدم لصعوبتها وبعد مطالعةِ نتائج الفحوصِ الأولية وافقوا وتحمّسوا جدًّا للبحث وبمنحةٍ ورصيدٍ مفتوح عُينت على رأسِ فريقٍ سيصل غدًا لهذا المركز الذي تمّ إعدادهُ بمثل ما ترينِ الآن.

كانت سميرة مشدوهةً بما تسمع، وأخيرًا سألت مستنكرة:

– وترى ما هو دوري في هذا الفريق أيها القائد؟

ضحك عصام قائلًا:

– أنت قائدُ قائدِ الفريق.

هزّت سميرة رأسها قائلةً:

– لقد اتّخذتَ خطوات في منتهى الخطورة دون استشارتي يا عصام، ليتكَ فعلتَ ولو بشكلٍ صوري لمعرفةِ ماهية هذا الفريق واختصاصه.

قال عصام بضجرٍ:

– ألم تطلبي منّي فعلَ الصواب وأكدتِ على عدم الشكوى؟

قالت سميرة بمرارةٍ:

– لم أتخيلْ أنْ تصل الأمورَ لهذه الدرجةِ، على الأقلّ كنت أتمنى كون هذا الفريق مصريًّا لتخرج النتيجةُ باسم بلدي مهما كان جورها عليّ.

لوّح عصام بكفّهِ بضجرٍ أكبر قائلًا:

– دعْكِ من هذه المثالياتِ، هل تظنين أنّ الفريق المصري مهما كانت كفاءتُه سيقومُ بربعِ الجهد المطلوب، أو بدقةٍ حقيقية؟!

هزّت رأسها بمنتهى الأسى وقالت:

– نفسُ النّظرة الدونية التي ينظر لنا بها الجميع والتي زرعتْ بنا الهزيمةَ النفسية المقيتة، حسنًا يا عصام متى سيبدأُ العمل الرسمي؟ وما هو جدولي بهِ واختصاصي؟

ارتبك عصام وقال:

– سيكون لكِ دورُ الإشرافِ العامّ على البحثِ ومراجعة النتائج.

ابتسمت بمرارةٍ وقالت:

– دورٌ هلامي مثل اسم المركز، لقد استبعدتني بشكلٍ رائعٍ، فأنا من وجهةِ نظرك الدّونية مهما كانت درجتي العلمية ما زلتُ مصريةً، وكما قلت أنت لن أقوم بربعِ الجهد المطلوب أو بدقةٍ حقيقية.

قال عصام بعصبيةٍ:

– ما هذا الكلامُ يا سميرة! تتحدثينَ كأنّني لست مصريًّا مثلك.

كعادتها في نبذِ الجدال حين الوصول لطرقٍ مسدودةٍ هزَّت رأسُها وقالت:

– لا عليك يا عصام، لست أدري حقًّا الآن هل تحملُ الجنسية الكندية كهويّةٍ فقط أم لا.

***

كانت سميرة تجلسُ على مكتبها، والمرارةُ تلتهمُ حلقها، فقد كانت تشعر كأنما قد اشترت سيارةً جديدة ونادت بعضَ رفاقها لمصاحبتها في أوّلِ جولةٍ بها، فإذا بهم ينحونها جانبًا ويتّخذون قائدًا منهم للسيارة وقد قرّروا أين سيذهبونَ، وأيّ الطرقِ سيسلكون دون حتى محاولةِ استشارتها، كانت تنظرُ للفريقِ العلمي الكندي الذي لم يضيع وقتًا في مجاملاتٍ أو الانشغال بأيِّ أمرٍ فرعي، وانطلق كلّ منهم نحو مكتبهِ وجهازه كأنما على علمٍ مُسبق به، أو أنه يعملُ بالمركز منذ أمدٍ، فلا نظراتٌ مشدوهة أو خطواتٌ تائهة تبحث عن المسارِ المتوجب عليهم السّيرِ فيه.

انتظرتْ حتى انتهى عصام من التّحاورِ مع كلّ منهم على حِدة، ثمّ نادته لتحدّثه وهي عاقدةٌ ساعديها أمام صدرها قائلةً:

– هل من الممكن موافاتي بنتائجَ الفحوص التي قمنا بها سابقًا، وخطة البحث التي سيعملُ عليها المركز؟

جلس عصام على كرسيهِ وأشار إليها لتفعلَ المثل قائلًا:

– بكلّ بساطةٍ الأشعاتُ كلها سليمةٌ وطبيعية، ولا يوجد بها أيّ شيءٍ غير عاديّ ما عدا تضخّم الأعضاء الداخلية عن الحجم الطبيعي للإنسان بدرجةٍ ليست نوعية إذا اعتبرنا أنه بشريّ، أمّا بافتراض أنه قردٌ فمع المقارنةِ بالفصائل التي تقارب حجمَه، فالتماثل أيضًا قريبٌ جدًّا، ولا يوجد فارقٌ نوعيّ كبير، ولهذا إذا لم يكن يتبع كليهما فهو كائنٌ وسيط بينهما، أمّا فحوصَ

الدم فقد أظهرت فقط شيئًا واحدًا يعدّ اختلافًا جذريًّا ومؤثرًا، وهو أنّ نسبةَ استهلاك الخلايا للأُكسجين ونسبة الهيموجلوبين المحمل به تقلُّ بشكلٍ واضح عن المعدل الطبيعي للبشرِ والقردة، والعجيبُ أنه متعايشٌ ومستمرّ به بشكلٍ شبه طبيعي.

اتّسعت عينا سميرة شغفًا، وانسلخت سريعًا من سخطها السابق وقالت:

– قد يكون هذا هو سببَ نظرته التائهة وعدم ردودِ أفعاله العنيفة والتي كان من المفترضِ عليه القيام بها بدلًا من هذا الاستسلام الدائم والعجيب.

أشار عصام بأصبعهِ بحماسٍ وقال:

– وقالوا أيضًا قد تكون سببُ تأخر النطق عنده أو امتناعه.

مستنكرةً قالت سميرة:

– قالوا!! مَن هؤلاء؟

قال عصام بضيقٍ:

– مَن أرسلت لهم نتائجَ الفحوص في ألبيرتا، ألم أخبركِ بذلك؟

تجاوزتْ سميرة النزاعَ القادم وقالت:

– حسنًا، أريد بروتوكولَ البحث والمنهج الذي سيسيرُ عليه المركز في هذه الدراسةِ.

تردّد عصام وقال:

– معظمُه شقّ علميّ حيوي وكبير لا يتعلّق بدراستكِ أو تخصصك أرى الأفضلَ أن تضعي أنتِ منهجًا للبحث يتعلق بتخصصكِ ونظرتكِ للأمر.

شردتْ سميرة ببصرها وهلةً، وقد التهمتْها فكرةٌ بدأت كغيمةٍ خفيفة مرّت أمام ناظريها، ولكن مع مرور الوقت أصبحت سحابة مثقلة بالكثير، هناك ما يحاول عصام أنْ يخفيه عنها، الأمر يتعدّى مجرّد الشّغف العلمي أو حتى خطف نتيجة بحثٍ منها ومنحها لآخرين، مرّة يقول لها دورك المشرف العام على الأمر، وعندما تطلبُ أبسطَ شيء قد يطلبه أصغرُ المشاركين في البحث يهربُ من تلبيتهِ للمرة الثانية، عدم عرض نتائج الفحوص بشكلٍ تفصيليٍّ عليها، وعدم عرض مراسلاته ونقاشه مع هؤلاء الذين لا تدري تخصصهم بألبيرتا، مع أن مشاركتها في هذا أمرٌ بدَهيٌّ جدًّا إن لم يكن بسببِ ارتباطه بها فعلى سبيل الزّمالة في العمل، لذا وبكل صرامةٍ قالت:

– لو سمحت يا عصام أريدُ بروتوكول البحث.

ارتباك عصام جعل النبتةَ الصّغيرة من الشّك شجرةً سامقةً راسخة الجذور قبل أن يقول:

– ومَن قال لكِ إنّ هناك بروتوكولًا مكتوبًا للبحث؟

بصوتٍ علت نبرتُه عما قبل قالت:

– يبدو أنكِ نسيتَ تعاملي مع العلماء في لندن، وأعلمُ طريقتهم ومنهجم في العمل والأبحاث!!

بسرعةٍ قال لها:

- حسنًا، سأرسله لكِ على بريدك حالًا.

أشارتْ بيدها للأمام قائلةً:

- بل أنا القادمةُ معك لمطالعتِه على جهازك مباشرةً.

بكلّ استسلام سار أمامَها وهي تكادُ تقرأ كلّ ما يدورُ بخلدِه عن كيفيةِ الهروب أو إخفاءً الكثيرِ عنها، والشّكُ والفضولُ يقهقهان بقوةٍ وينتظران نتيجةَ هذه الرحلةِ قليلةَ الخطوات كثيفة المشاعر بين الاثنين، ولعلم عصام بأنّ الأمرَ قد تعدّى مرحلة الهروبِ أو محاولة التهوين، بكلّ بساطةٍ فتح لها جهازه ومنحها الملفّ المخطوطَ به منهج البحثِ الخاصّ بهذا الكائن، فجلست سميرة أمامَه وقد عدلت نظارتَها وانهمكت في القراءة، بينما انصرف عصام تمامًا، قد يكون لأمرٍ يشغله، وغالبًا لتفادي العاصفة القادمة، والتي إن تجنّبها الآن فحتمًا ستلاقيه بعد حين.

***

نظرتْ ميرفت إلى سميرة بشفقةٍ كبيرة وهي تراها عاقدةً ساعديها على مكتبها ودافنةً رأسها بينهما كأنما تغط في نوم عميق، ولعلمها بطبيعةِ رفيقتها التي ترفض البوحَ بما يعتمل بها مهما سألَتها أو حاولت النقاشَ معها وهي في حالتها غير الطبيعية، تركتها منغمسةً في أفكارها ومشاعرها التي تخوض فيها حتى تهدأ سريرتُها وتبدأ هي في الكلام لتعلم ما سرّ هذا الصمتِ العجيب الذي يعتريها منذ مقدمها صباحًا، وعلى الجانب الآخر كانت سميرة تصرخُ بكلّ كيانها.. لماذا؟!!! لمَ يحدث كلّ هذا معي؟

فبعد أن التهمتِ الملفّ الذي يحوي منهجَ البحث الذي تمَّ إقراره والموافقة عليه علمت سرّ التمويل والاهتمام الكبير والاستجابة السّريعة من الجامعة الكندية، بعد أن قرأت النقاط العلمية التي سيدور البحثُ عنها، منها ما كانت على درايةٍ بفحواه، وما خفي عنها بالبحثِ على شبكة الإنترنت علمت بسهولةِ ما هو، الخلاصة كلّ هؤلاء ما جاءوا إلّا لإثباتِ صحةِ نظرية النشوء والارتقاء لداروين وأنَّ هذا الكائن قد يكونُ الوسيطَ الذي يربطُ كلّ الخيوط المنفصلة في هذه النظرية، كلّ هذا لا غبارَ عليه هذه أفكارهم ونظرياتهم وأبحاثهم العلمية فليفعلوا ما شاءوا، ولكن الصدمة أنَّ من وضع هذا البروتوكول وصممهُ هو عصام نفسه وليسوا هم!! مما يعني أنه بالفعل يؤمنُ بهذه النظرية التي تعدّ النبتةَ الأولى لموجةِ الإلحادِ في العصر الحديث، على الفور كمطارقَ عملاقةٍ انهالت على رأسها بطرقاتٍ لتذكّرها بما مرَّ أمامها مرورًا عابرًا، ولم تلقِ له بالًا وقتها، عندما قصَّ عليها ما دار بينه وبين عبد الباسط في اللقاء الأول لهما حينما أخبره بأنّ أكابرَ العلماء في العالم يؤمنون بهذه النظرية، وكيف أنه غيّر منهجَ بحثه في رسالة الدكتوراه ليشمل بعضَ الدراساتِ عن القرود!!

وكذلك ردّه المنفعل عليها حينما حاولت تهوين أمرِ رفض تعيينه بالجامعة الكندية قائلةً وقتها بأنّ هذه هي تصاريفُ الأقدار ليقول لها بكلّ عصبيةٍ:

– دعْكِ يا سميرة من تلك التُّرهات المسمّاة بالأقدار وما شابه، الأمرُ عقليٌّ بحت وتفاعلاتُ مواقف لا أكثر ولا أقلّ!!

أصبح الأمرُ أكبر من أيّ تحمّل لها، عصام الذي أحبته وانتظرته وجعلته حلمَ حياتها ليس هو هذا الكائن الذي تتعامل معه الآن وترتبط بخطبةٍ رسمية من المفترض أن يعقبها زواج، الخسارةُ فادحةٌ جدًّا هذه المرّة، لو بقي عصام بكندا دون عودةٍ، وتركها تحملُ بين جنبيها ذكرياتٍ جميلةً ومشاعرَ نقية وافتراض الأفضل به لكان خيرًا لها ألفَ مرّةٍ ممّا هي عليه الآن، فهي ترى نفسها الآن تشبه تمامًا ذلك البطل الذي ذاب عشقًا وحبًّا في جارته التي تقابلُ نافذتُها نافذتَه، تعلّق قلبُه بها وأصبح يدقّ بعنفٍ كلما رأى ظلّها خلف ستائرَ تلك النافذة، ورغم عدم مطالعتِه لوجهها بشكلٍ مباشرٍ أبدًا إلّا أنها توغلت واحتلّتْ كلّ مشاعرَه وأصبح ينسجُ القصائدَ كلّما لاحَ له ظلها كلّ ليلةٍ، ويتمنّى اليوم الذي يراها فيه ليحاورها وجهًا لوجهٍ ويلقي على مسامعها هذه القصائد، وكانت المفاجأةُ عندما أُزيلت هذه الستائر ليجد أنَّ محبوبته التي كان متيمًا بها ليست سوى نصف تمثالٍ علوي لخياطٍ يسكن وحيدًا بهذه الشقة، لا فارق بين الوهمين إلّا أنها لم تفترض فيه ما ليس به، لقد تركته محملًا بكنوزٍ تعشقها ولم تدرِ أنه عاد بدونها، بل لقد استبدلها بخناجرَ ستقتلها، مذبحةُ المشاعر التي تعرّضت لها مع الصدمة الأولى أعجزتها عن التفكير، لذا تجنبت المواجهةَ وانصرفت في صمتٍ حتى تستعيد توازنَها الذي ربما سيغيبُ كثيرًا عنها.

مرَّ يومان على سميرة، الصمتُ رفيقُها شبهُ الدائم والوجومُ هو المميز لملامحها بشكلٍ مستمر، بالطبع لم تذهب للمركز أو تحاول الاتصال بعصام،

والذي بدوره لم يحاولِ التواصل معها، كان اليومانِ كافيين لتهدئة مشاعرها كثيرًا، وبعد أنْ بدا للعقل فرصةٌ لأن يقول كلمتَه عادت سميرة تدريجيًّا لتفكيرها المنطقي بعقليتها العلمية، دون أن تنظر نحو ميرفت أو تعير وجودها انتباهًا، وعلى ورقةٍ كبيرة خطّت بمنتصفها خطًّا يقسمها طوليًّا، وعلى اليمين كتبت بالأعلى كلمة مزايا وعلى اليسار العيوب، وبدأت في سرد أسفلِ كلّ منهما بعض النقاط لتنتهي الورقةُ بثلاثِ نقاطٍ فقط أسفل المزايا، بينما امتلأ صف العيوب بالكثير، رسمت حلقةً كبيرة حول أهمّ العيوب وأخطرها من وجهة نظرها وهي عدمُ الاهتمام الفعلي بها أو بمشاعرها، فما الحبُّ إلّا اهتمامٌ بالطرف الآخر قد يدفعك لإيثارهِ على نفسكَ ومتطلباتك وأقصاها أن تفديهِ بحياتكَ، وهذه هي المشاعرُ التي كانت تحتويها بالفعل نحو عصام، أمّا هو المتهربُ دائمًا المتجنب لها الجارح والقاتلُ لكلّ جميلٍ بينهما، كلّ ما يفعله من معاملاتٍ معها قد تظهر الاهتمام، ربما يفعلها أي غريبٍ على وجه الشهامةِ والرجولة التي ما زالت لها بقايا بالمجتمع وليست شيئًا خاصًّا مميزًا لها، وقد تكون خطبته لها ليست سوى تسديدِ دينٍ عندما وجدها تنتظره هذا العمر وقد بنت أحلامها على شخصهِ فقط وليست رغبةً حقيقية لاستمرار وارتباط أحلامه بها، لقد أظهرت الأيامُ التالية أنهما قد صارا طرفي نقيضٍ لم يعد هناك عوامل مشتركة إلّا أقلّ القليل، لذا الصواب الآن أن تتخلصَ من مشاعرها التي استغرقتها وجعلتها تبني حياتها بشكلٍ خاطئ، فعصام قد دفعها لتوقنَ بأنَّ الحياةَ ليس فيها ما يجعلها تربط مستقبلها وحياتها بشخصٍ مهْما كانت

درجتُه ، لقد وقعت مثل كلّ أنثي في فخِ المشاعر التي أعمتها عن هذه الحقيقة البسيطة، لذا ولكي لا تبني قرارها على افتراضٍ قد يكونُ وهمًا كذلك ضربتْ أرقام جوال عصام على هاتفها ليردّ عليها بصوتٍ مرتبكٍ يظهر عليه جيدًا أنه لا يجد ما يقوله لتسأله بشكلٍ مباشرٍ وصارمٍ وسريع قائلةً

– عصام، لو سمحت بلا أي توريةٍ أو محاولة التبرير أجبْنِي بنعم أو لا.. هل تُؤمن بنظريةِ النشوء والارتقاء لداروين؟

بعد هنيهةٍ وبصوتٍ خافت قال لها:

– نعم.

ولم يسمعْ بعدها سوى الصّفير الدالّ على إغلاقها للاتصال.

ورغم يقينها الذي لا ينازعه شكٌّ في هذه الحقيقة إلّا أنها ارتجت من هوْل الصدمةِ، ولأوّل مرةٍ اندفعت دموعُها غزيرةً لتبلل وجهها بكثافةٍ ولم تستطع كتمانَ نحيبِها الذي انتزع ميرفت من صمتها لتقوم إليها وتضمّها إلى صدرِها وقد أوشكتْ على البكاء معها رغم عدمِ معرفتها بسببِ ما هي فيه.

***

بغضبٍ يحتلّ كلّ كيانها، وبخطواتٍ واسعةٍ صارمة، وبعزمٍ يُؤازر إرادتها كانت سميرة منطلقةً نحو المركز الذي تدور به رحى البحثِ العلمي لإثباتِ أو التقاط أيّ لمحةٍ جديدةٍ تُؤيد هذه النظرية لتنشرَ معها موجةً جديدةً متعالية

من الإلحاد الذي بدأ يستشري الآن كموضةٍ بين بعض الشّباب، ما زالت كلمات زميلتها ميرفت يتردّد صداها بأُذنيها:

- عصام كاااااافر. فلتحمدي اللهَ على اكتشاف حقيقته.

- يجب تدميرُ هذا المركز الذي لا هدف له إلّا نشرَ الكفر في بلدنا.

لو صدر هذا الكلامُ من ملتحٍ بعينين متسعتين وحاجبين كثيفين مقطبين لنظرت نحوه شزرًا وانطلقت تنعي جهلَه وضيقَ أفقه وتغييبه، ولكن رغم قسوةِ الوصف لا يوجد تفسيرٌ آخر للأمر، من يُؤمن بأنَّ أصلَ نشوءِ الكون خلية واحدة انقسمت وتطورت عبر مليارات السنين وخرج منها مختلف الفصائل والمخلوقات التي تنوعت وانتشرت وارتقت بطريق الانتخاب الطبيعي بمعنى أنَّ البقاءَ للأقوى أو الأصلح، ومن ضمن هذه المخلوقات الإنسان نفسه بما يخالف صريحَ جميعِ الأديان بأنّ اللهَ خلقه خلقًا خاصًّا لا علاقة له بهذه النظريات، وبالتالي يُنكِر وجود الخالق عز وجل، ماذا يكون إلّا كافراً؟! هكذا قد أصبحَ عصام!

المركزُ الذي أُنشئَ ودُعّم بكلّ هذه الإمكانات الفائقة ماذا يفعلُ غيرَ ترسيخ هذه الفكرة، وهي نفي وجود الخالق عزّ وجل؟

هي لن تقتلْ أو تفجر أو تلجأ لأي عنفٍ، ستوقف هذا البحث وتنهي تواجده بأخذِ آدم منهم وفقط، أمرٌ بسيط سيصيبهم جميعًا بالعجز والفشل وينهي هذه المهزلة.

بحاجبين مرتفعين دهشةً نظر عصام نحوها وهي تقف أمامه عاقدةً ساعديها قائلةً بجفاءٍ شديد:

– عصام، لو سمحت لن أشترك معكم في هذا البحث، وأُريد الحصولَ على آدم الآن والذّهاب به؟

مشدوهًا صمت برهةً استطالت ثمّ قال:

– وماذا ستفعلينَ؟ وأين ستذهبين به؟

بنفسِ الجفاء قالت:

– ليس هذا من شأنك.

تنهّد عصام بعمقٍ، واختار أحرفه بعنايةٍ وهو يقول ببطءٍ:

– وعلى أيِّ أساسٍ تطلبين الحصولَ عليه؟

فردّت يديها وهي تلوّح بهما وقد علَا صوتُها قليلًا:

– أنا صاحبةُ الاكتشاف من البداية.

بنفسِ البطءِ والحرص قال:

– رائعٌ وماذا فعلتِ بعد هذا الاكتشاف؟ مَن الذي غامرَ وبذلَ الجهدَ والمالَ للحصول عليه؟ مَن الذي أعدَّ هذا المركز للدراسة؟ مَن الذي يحقّ له القولَ بأنّ آدم من حقّه؟ هل عندما يخبرني أحدهم بأنّ بنكَ القاهرة فرع المعادي به الآن قطعةٌ ذهبيةٌ توزن عشرين كيلو جرامًا، فأذهب أنا للحصول عليها، هل بعدَ الجهد تصبح من نصيبِه هوَ لأنه كان المكتشفَ لحقيقة وجودِها هناك؟!

بهتتْ سميرة لمنطقهِ البسيط والسريع، لقد كانت تتصرّف بطفوليةٍ كبيرة بالفعل، صمتت كثيرًا مُطْرقةً للأرض ولكن تشبيهه منحها الحلّ الذي تبغيه فابتسمت وقالت:

- شكرًا لك، ليس هكذا يكون التعامل بالفعل.

واستدارت منطلقةً دون تحية، فناداها عصام قائلًا:

- سميرة، نحن لم نتحدّث منذ آخر لقاءٍ لنا!

توقّفت واستدارت بعينينِ تقذفان شررًا وقالت:

- لم يعُدْ بيننا ما نتحدثُ بشأنه يا عصام.

بعصبيةٍ هتف عصام:

- لم أتوقّع أبدًا أن يكون ردُّ فعلكِ هكذا!

بنفس الحمم المتطايرة قالت:

- وأنا أيضًا لم أتوقّع أبدًا أن تكون كافرًا.

اتّسعت عينا عصام لأقصى مدًى لهما، وفكّه السُّفلي متدلّ ببلاهةٍ ولم يستطعِ النطقَ أو الخروج عن حالةِ الذهول التي اعترته إلّا بعد اختفائِها من أمامِ ناظريه.

***

للمرّة الثانية تندفع دموعُ سميرة من مآقيها لتسابق سرعةَ تجفيفها لها، لم تلقِ بالًا لمشهدها وهي تسير شبهَ متهاويةٍ بالطريق بمظهرها البائس هذا؛

الذي يستجلبُ الشّفقة والرثاء، لم تظهر أيَّ ردٍّ فعلٍ كذلك على عبارات المعاكسةِ المتحرشة بها من بعض الشباب العابث الذي مرَّ بجوارها، وقاتلت لانتزاع بسمةٍ شاحبةٍ خاوية وهي تربتُ على كتف تلك السيدةِ العجوز التي استوقفتها مسائِلة عما تعُانيه وما يمكنها تقديمه من مساعدةٍ، فلم يردْ بخيالها أو أبشع كوابيسها يومًا أن تُقبل على ما فعلت الآن، فقد خرجت لتّوها من أحدِ أقسام الشرطة بعد أن قدّمت بلاغًا يتّهم عصامًا بسرقةِ عهدةٍ حكوميةٍ من كلية الطبّ البيطري لإجراء أبحاثٍ عليها، لقد أوحى لها عصام بالفكرة عندما ضرب مثالَ القطعة الذهبية بأحدِ البنوك، وهمّت وقتها أنْ تذكّره أنه سرقها، وأنّ هذا عملٌ غيرُ مشروعٍ ولكن تراءى لها أنّ الجدلَ لن يفيد، وأنّ العملَ غير المشروع لا يواجهه إلّاً القانون، ما يهمّها الآن أن تسلبه آدم هو وفريقه البحثيّ وبالطبع هذا البلاغ سيكشفُ كلّ شيء ويتسبّب في انتزاعِ آدم منهم وعودته إمّا لكليةِ الطبّ البيطري أو حتى حديقة الحيوان لا يهمّ، المهمّ ألّا تستمرّ أبحاثهم عليه، ما زالت نظرةُ الضابط المندهشة لا تفارقها حينما سألها عن مصدرِ معلوماتها لتقول له بتردّدٍ وارتباكٍ بأنه خطيبُها وقد اعترف لها بكلِّ شيءٍ وأنها بمكانتِها ودرجتها العلمية لا تقبلُ إلّا الصواب حتى لو كان بإدانةِ خطيبها، بالطّبع أتبع دهشته هذه عدم التصديق، وظنّه بأنَّ عصامًا قد نالَ منها شيئًا يدفعها للانتقام منه، وغالبًا لن يتعدى هذا الشيءُ منطقةَ الشرف، ولكن سيفعل المتوجّب عليه بكتابةِ البلاغ ودفعه للمختصّين للتحقيق فيه إن شاءوا.

وصلت إلى البيت منهكة نفسيًّا وبدنيًّا، وتورّمُ جفنيها يفضحانها ويكشفان بوضوحٍ أنها تعرضت للكثيرِ، وبالطبع محاولات أمّها معها لمعرفةِ ما بها لليوم الثالثِ لم تُجدِ، ودخلت غرفتها لتغلقَ عليها بابَها كما هو ديدنها في الأيام السالفة، وأخيرًا استجابت لطرقاتِ حسام أخيها الذي لم يملّ حتّى فتحت له، كان يعلم أخته جيدًا ويدري ما هو طبعُها الذي تربّت عليه، لذا تجنّبَ منطقة السؤال المستمرّ عمّا بها، وبكلِّ حنانٍ ربّتَ على كتفها، وبصوتٍ هادئٍ قال لها:

– سميرة حبيبتي، عند الوقوع في همٍّ أو غمٍّ يختنق صوتُ العقل وتغيبُ النّظرة المنطقية عنّا، وتصبح الرؤيةُ مشوشةً أو محدودة لا ترى إلّا نقطةً واحدةً تدفعنا مشاعرنا نحوها وللتركيز عليها فقط، في حين أنَّ حولها الكثيرُ لو انتبهنا إليه لتغيرتْ نظرتُنا وطريقةُ حسابنا ووزننا للأمور، لذا لن أقولَ لك اخرجي عن طبيعتكِ وحاولي مشاركتي معكِ عسى أن أرى بعضَ النقاط التي تغيب عنك بسبب ما يعتمل بك، ولكن أطلب منك طلبًا واحدًا فقط، أستحلفك بالله أن تتذكري كوني أخاكِ، والمفترض أني رجلُ البيت ومسئولٌ عنك أمامَ الله والمجتمع، لذا إذا احتجت لمساعدةٍ لا تتردّدي في طلبها مني دونِ خجلٍ أو تردد.

نظرت سميرة نحوه بامتنانٍ كبير، وابتسمت وهي تردُّ له التربيتَ على كتفه وقالت له:

– لا حرمني اللهُ منكَ يا أجمل أخ، سأقصُّ عليك كلّ شيءٍ ولكن بعد حين، وأعدك بطلبِ المساعدة منكَ إنْ احتجت.

ابتسم حسام ابتسامةً عريضة أُضيء بها وجهه وقال لها:

– حتى يحدث ذلك استعيني بالله وتقربي إليه بالصلوات والدعاء.

هزّت سميرة رأسها بأنْ نعم والبسمةُ لم تغادر وجهها وإن كانت قد تموّهت ببعض التمعّر الذي نازعها، لقد تذكرت سميرة بأنها قد فاتها في اليومين السابقين على الأقلّ ثلاثُ صلوات حان موعدها أثناء فترات نومِها المطولة بغرفتها الموصدة عليها، وعند استيقاظها لم تقم إلّا بأداء التي يحين موعدها دون الاهتمام بما فاتها، وتحوّلتْ بسمتها إلى السّخرية وهي تتذكّر بأنها الآن تحارب الكفر والكافرين بينما لا تؤدّي الفروض التي لا نزاعَ حول وجوبها، قامت من فورها برفقةِ حسام الذي دعاها للغداء معه لتتناولَ لقيماتٍ سريعة ثمّ تعود لأداء كلّ ما فاتها من صلواتٍ، هدأت أعصابها كثيرًا عقب ذلك، لقد صدق حسام في كلّ ما قاله لها، فوحدتُها لم تُؤدّ بها إلّا إلى مزيدٍ من الظلامِ والألم والعذاب ، ولكن مجرد تفاعلها البسيط معه صنع فارقًا كبيرًا؛ لذا فقد قرّرت بعد انتزاع آدم أن تخبره بكلِّ شيءٍ لتدرس معه ما هي الخطوات القادمة مع عصام الذي مات كلّ شيءٍ متعلقٍ به، ولم يعدْ هناك ذرةُ أملٍ في أيِّ قادم قد يجمعهما.

***

بعد طلب الاستدعاء لها من النيابة صباح اليوم التالي جلست سميرة أمام المكتب منكسة الرأس أمام عصام الذي يحتل المقعد بمقابلتها وخلف المكتب

الضخم وكيل النيابة صغير السن المتأنق وبجواره الكاتب العتيق ممسكًا بقلمه الخالد ودفتره البالي ليخط كلّ ما يتلفظ به.

نطق وكيل النيابة جملته الأخيرة قائلًا:

– والآن يا دكتورة سميرة بعد أن أنكر عميد كلية الطب البيطري اختفاء أيّ قردةٍ من عنده، وذكْرُه بأن عهدته سليمة، ومع إنكار مدير حديقة الحيوان لكلِّ ما ذكرت في بلاغكِ كذلك بأنّ القردَ تابعٌ لهم، ما هي أقوالكِ؟

للمرّةِ الثانية ترتبك سميرة لافتقادها التفكير المنطقي، ماذا كانت تتوقعُ من الرّجلين إلّا ذلك؟ فآدم لا يهمّهما في شيءٍ وما هو إلّا رقمٌ ضمن سجلّات أعمالهما الكثيرة، ومديرُ الحديقة بكلماتٍ واضحةٍ أعلنها لها بعدم الرغبةِ في الظهور داخلَ دائرة الضوء، وكان هذا سرَّ معاناتها في البداية خلفَ آدم، لو تفكّرت في ذلك لحظةً لأدركت الترتيب المنطقي للأحداث وما وقعت في هذا الموقف المشين الآن، بالفعل كما قال حسام، اضطرابُ المشاعر يسلبنا الكثيرَ من التفكير المنطقي العقلاني، نظرت نحو وكيل النيابة قائلةً:

– المبنى رقم ٣٥ بشارع (مدحت نعمان) والمسمى بمركز أبحاث العلوم الحيوية يقومُ عملُه على دراسةِ كائنٍ هناك، يمكنك البحث ومحاولة معرفة مصدر الحصول عليه.

ردّ الرجل بصرامةٍ قائلًا:

– هذا أمرٌ مختلف عمّا نحن بصدده هنا، بلاغكِ يقول بأنه تمَّ سرقةُ عهدةٍ رسميةٍ من كلية الطب البيطري، وهذا ما تمَّ نفيه الآن من المسئولين أصحاب

الشأن، ولم تتقدمي بدلائلَ ولا إثباتاتٍ أو ما يجعلني أتقدّمُ في التحقيقِ والمطالبة بالجردِ الرسمي من المختصين.

هزَّت سميرة رأسَها وهي لا تدري ما تقول وبالتالي التزمتِ الصمتَ حينًا، وأخيرًا قالت ببطءٍ:

- لا حاجة لنا بذلك ولم يعدْ لديّ ما أقوله.

أشارَ وكيل النيابة للكاتبِ أن يتمهّل، ولا يكتبَ التالي وقال:

- مراعاةً فقط لدرجتكِ العلمية ومكانتكِ، ولأنّ خطيبَكِ المحترم هذا تنازل عن كافّةِ حقوقهِ القانونية التي تكفل له مُقاضاتكِ، سأغلقُ المحضر الآن، ورجاء التعامل مع خلافاتكم الشخصية بعيدًا عنا.

هزّت رأسَها دلالة الموافقة دون ردٍّ فتوجه بالكلام للكاتبِ ليُملي عليه العبارات الشهيرة بإقفالِ المحاضر الرسمية مضيفًا أنه لا وجه لإقامةِ الدّعوى لعدم كفايةِ الأدلة.

لم تنزل عينا عصام عن سميرة وهو يشعر بكلِّ أسى الدنيا ومرارتها، فلم يخطر بباله أبدًا مدى تطرّف سميرة، وأن تتعاملَ معه بهذه الطريقة، لقد كان يحبّها بالفعل واختارها لتشاركُه حياته لعلمه التام بأنها الشخصية الوحيدة التي يمكنها التعامل معه وتتفهم شخصيته جيدًا، كانت بالنسبة له الواحةَ الغنّاء وسط صحراء حياته المقفرة، لو كان يتعامل مع أنصافِ المتعلمين أو المتشددين دينيًّا وواجهوه بمثل ما فعلت لما ألقى لهم بالًا، أمّا سميرة صاحبةُ

الدكتوراه الحاصلة عليها من لندن والمفترض بها أن تكون مستنيرةً تفعل هذا؟!! بالفعل لقد كانت هذه هي الخطوة الأخيرة لتدمير كلّ ما بينهما، لذا تركها تتحاشى النظر إليه وتنصرفَ دون تبادلِ حرفٍ معه، لقد خُطت كلمة النهاية في مكانٍ، وبطريقة لم تكن لتردَ على خيالِ أي كاتبٍ مُغرقٍ في المغالاة بخياله.

***

انتهتْ سميرة من سردِ الأمر على سمعِ "منى" بكلّ ما حدثَ من البداية حتى الخروج من سرايا النيابة منكسرةً منهزمةً متحسرةً، وبالطبع قاطعها نشيجُها ودموعها كثيرًا عن استكمال حكايتها، فكانت "منى" تمدّ يدها لها بمنديلٍ ورقي جديدٍ كلّما استهلكت السابق له، وبعد توقّفها تركتها "منى" هنيهة لتستردّ قُواها وتتمالك أعصابها التي انتهكتْ على إثرِ اجترارِ المواقف والكلمات التي دارت بينها وبين عصام، وأخيرًا اعتدلت على كرسيها وقالت بحنانٍ:

- هل أخبركَ سرًّا؟

نظرت نحوها متسائلةً:

فاستطردت قائلةً:

- بالطبع تدركين أنكِ أخطأت جدًّا في التعامل مع الأمر، ولكنَّ السرَّ في هذا الارتباك الكبير والخطأ هو حبّك الحقيقي والكبير لعصام.

كادت تصرخَ بأنها لم يعدْ يعنيها عصامًا، وأنها قد نبذته تمامًا وقصتها معه قد انتهت بلا حرفٍ زائدٍ فيما بعد، ولكن صمتت.. لا يمكنها إنكارُ محبّتها الكبيرة له! فلم ينبض قلبها يومًا إلّا باسمه، لم ترسمْ حياتَها إلّا معه، ولم ترَ رجلًا سواه، بجملةٍ بسيطةٍ أتقنت "منى" تشخيصَ الأمر، شغفها العلمي وعقليتها المنظمة في كلّ شئونها الحياتية أُجهضا تمامًا أمام يقينها بفقدان عصام للأبد، كانت كالغريقِ الذي يضربُ بيديهِ بعشوائيةٍ كبيرة على إثرِ هلعِه من الغرق، كانت هذه هي الجملةُ المبدئية التي افتتحت بها "منى" كلامها، وهي تدرك بأنّ لديها الكثير، لذا فقد نظرت إليها منتظرةً أن تسكب المزيد مما تريد، فابتسمت قائلةً:

- محبّتكِ هذه كانت تستوجب عليكِ أشياء كثيرة منطقية غابت عن عينيكِ بسببِ انفعالاتكِ المبالغ فيها، أولها أن تسعينَ لمحاولة إصلاح ما انكسرَ عنده لنجاتهِ من عذاب الآخرة.. أليس كذلك؟

نقطةٌ جديدة منطقيةٌ وتلقائية بالفعل لا يُمكنها الجدال فيها ولكن ردّت مدافعةً عن نفسها قائلةً:

- أنت لا تعرفينَ، عصام لديهِ القدرةُ الفائقةُ على الجدال والمحاججة، وأنا لست على علمٍ كبيرٍ بأمور الدين كي يمكنني مواجهته.

قالت لها بهدوءٍ:

- ولذا كان المنطقي والطبيعي أن تتسلحي بهذا العلم والسعي للمعرفة التي تُمكنك من هذه المواجهة.

تردّدت قليلًا وقالت:

– لستُ أنا مَن يمكنها دراسةُ علوم الدين بطريقةٍ فلسفية تمنحني القدرةَ على الجدالِ الكبير مع الملحدين.

ابتسمت "منى" وقالت:

– ابحثي عمّن لديه واستعيني به.

صمتتْ سميرة كثيرًا وهي تنعي ضعفَها وردَّ أفعالها العنيفة التي أفقدتهَا الكثيرَ من التفكير المنطقي والبسيط والذي من المفترض اتصافها وتميّزِها به، منحتها "منى" مفتاحَ الحلّ كالعادة، ولهذا ستذهب لحسام أخيها لتقصّ عليه الأمر كما وعدته وتسأله عن أحدِ المختصين ممن يعرفُ منَ الشيوخ الكثيرين الذين يتعاملون معه.

***

في مكتبهِ الأنيق المعطّر والمُكيَّف الهواء ومكتبتِه التي تحتلّ حائطًا كاملًا تعُجُّ بالكتب والمجلّدات الضخمة، جلست سميرة برفقةِ أخيها ترشفُ من المشروب المُقدم إليهما في انتظار الشيخ الذي حدثها حسام عنه،

سألته للمرة الأخيرة قائلةً:

– هل تثقُ بقدرتِه وتخصّصِه في هذا الشأن تحديدًا؟

قال حسام بحماسٍ:

– هو أحدُ العلاماتِ المشهورة في ذلك وله سجالاتٌ ومناظراتٌ كثيرةٌ وشهيرة، وجعلَ اللهُ هدايةَ الكثيرين على يديه.

همّت سميرة أن تردَّ عليه بتمني أنْ يكونَ ذلك حقيقةً ولكن قاطعها طرقاتٌ هادئةٌ على الباب أعقبها دخول الشيخ منه، ما إن رأته حتى غمرها الاندهاشُ، فقد كانت تتوقع شيخًا معمّمًا بلباسِه الأزهري الشّهير، وقد بلغ من العمر عتيًّا، ولكنها فُوجئت بشابّ يبدو عليه أنه ثلاثيني بملامحِه البسيطة وشعره النّاعم والمصفف بعنايةٍ ولحيته الكثيفة والتي يعتني بتشذيبها جيدًا، مع قميصِه الأحمر والمنقّط بنقاطٍ سوداء تتسقُ مع بنطالِه الأسود وحزامِه الأنيق، كان يبدو كمطربِ رابٍ أمريكي أكثر منه شيخًا عليمًا بأمور الدين، قطع عليها دهشتها تقديمُ حسامٍ له قائلًا:

- الشيخ محمود أبو البخاري.

كتمتْ سميرة ضحكتَها بصعوبةٍ لفخامة الاسم واللقب اللَّذينِ لا تراهما يتناسبان أبدًا مع مظهرِهِ وأومأت رأسَها مُرحّبةً وباسمةً، وبصوته الهادئ الرخيم رحّبَ بهما الرجل ونظر نحوها مترقبًا ومتسائلًا، فانطلقت سميرة لتقصّ عليه كلّ شيءٍ بالتفصيل، وهو يستمعُ لها بمنتهى الإنصاتِ والاهتمام ويهزُّ رأسَه متفهمًا بين الفينة والأخرى، وأخيرًا بعد تمامِ كلامها وبنفس هدوئهِ قال:

- ولم حكمتِ عليه بالإلحاد رغم أنكِ لم تعطهِ فرصةً لتوضيح الأمر أو للنقاش في شأنهِ؟

- لقد قالها صريحةً لي أنه يعتنقُ ويُؤمن بنظرية داروين، وأنا أعلم عصامًا جيدًا لن يفعل ذلك إلّا بعد ترددٍ كبير وبقرارٍ نهائي.

بهدوءٍ ردّ عليها قائلًا:

– هناك فيديو شهيرٌ على شبكة الإنترنت بعنوان (أنا أوافق داروين ونظرية التطور في ٩٩ ٪) لرجلٍ يخطب على المنبر بالآيات القرآنية الكريمة أخذ يدللُ على أنَّ نشأةَ كلّ المخلوقات من مصدرٍ واحد وأنه من العبث أن نقولَ بأن اللهَ خلق كلّ هذه المخلوقات جملةً واحدة كلّ على شاكلته وفصيلته، وفي النهاية قال الفارق بيننا وبينهم أننا نقول نعم للترقيةِ لا للارتقاء، وأنّ الخالق هو اللهُ وليست الطبيعة، وذكر بأنّنا نشتركُ في ٩٩ في المائة من الخواص الجينية مع الشمبانزي والفارق بيننا وبينه من وجهة نظرهِ فقط أنَّ اللهَ نفخ فينا من روحه، رغم كلّ الأخطاء التي يموج بها خطابه والتي يسهل الردَّ عليها من العلماء المتخصّصين، هل يمكنك اتهامَ هذا الرجل بالإلحاد؟

نظرتْ سميرة إليه مشدوهةً وقالت:

– هذا جديدٌ لم أسمع به، أنا بالفعل لستُ دارسةً أو على درايةٍ كبيرة بكلِّ ما يختصّ بهذه النظرية، فلم أتخيلُ يومًا أن تمس حياتي لهذه الدّرجة، ولكن ما أعلمه بأن موجةَ الإلحادِ في وسط الشباب العربي الآن تبدأ باعتناقِ هذه النظرية والاعتراف بها.

اعتدل في كرسيه وتنهّد قائلًا:

– لعلمِك أغلبُ الملحدين في وسط الشباب العربي الآن لم يصلوا لذلك بالبحث والرغبة في المعرفة الحقيقية، وإنما يكن الدافع الكبير لهم محاولةَ

التحرر من أيّ التزام أخلاقيٍّ أو اجتماعي ويتصادف أنَّ كلام ومبادئ الملحدين السابقين تتوافقُ مع حالة الملل أو التّمرد التي يمرون بها، فيجدونَ فيها الخلاص الحقيقي للحالة غيرِ الطبيعية التي هم فيها.

قالت سميرة باهتمامٍ:

- ولكنّ عصامًا لا ينتمي لهذه الفئةِ والحمد لله.

بنفس هدوئه قال:

- إن كان حقًّا من الباحثين عن الحقيقة يجبُ عليكِ دعمُهُ وتأييدُ بحثه هذا، لا الصراعَ أو إعاقةَ السير فيه.

اتّسعت عينها دهشةً وقالت باستنكارٍ:

- دعمُ البحث وتأييده للخروج بنتيجةٍ تساعدُ في نشرِ المزيد من الإلحاد!!

لم يستطعِ الرجل منعَ ضحكتِه التي ضايقتها وهو يقول:

- ألستِ على يقينٍ تامّ لا نزاعَ فيه بوجودِ الله عز وجل؟ فلمَ الخوفُ؟ كلّ مَن سعى بإخلاصٍ في سبيل الوصولِ للمعرفة، لم يصل إلّا لإثباتِ وجود الخالق.

طال صمتُها هذه المرّة، وتركها تجولُ بفكرِها ومشاعرِها أينما شاءت، لقد اكتشفت الكثيرَ مما فاتها بالفعل، فبكلِّ تجبرٍ لم تُعط عصامًا أيَّ فرصةٍ للحوار

أو النقاش واكتفت بكلمةٍ واحدة مبتورةٍ منه بأنه يُؤمن بنظرية داروين، ولكن كيف أو ما هي مسوغاتُ اعتناقه لها؟ وهل إيمانه بها مثل ذلك الرجل القائل بأنه يتفقُ في أغلبها ويتحفظ فقط على معارضتها لوجودِ الله عزّ وجل.. لا تدري!

لقد اندفعت بهوجائيةٍ شديدة رغم أنّ الحبُّ الذي بين جنبيها كان يحتّم عليها الرفق به كثيرًا، والتماس كلّ الأعذار له، وانتابها شعورٌ أنها بالفعل أنانيةٌ جدًّا، فهي لم تبحث في هذا الأمر إلّا عن نفسها وفقط، فعند تعديدها لعيوبهِ بتلك الورقة تركت الجرائم الكبرى ووقفت عند عدم اهتمامه بها، كانت تريد منه كلّ شيء دون أن تضحي بجديدٍ؛ لاستشعارها بأنها قد قدّمت الكثير بانتظارهِ كلّ هذه المدة، هل كان حزنها لخسارته حقًّا أم لخسارتها الكثير بانتظاره؟! نفضت رأسَها للتخلّص من هذه التساؤلاتِ التي لن تُودّي بها إلّا إلى مزيد من التشتّت، ونظرتْ نحو الرجل قائلةً:

– لقد جئتك ظنًّا بأنك ستخبرني عن كلّ الشُّبهات الكثيرة وكيفية الردِّ عليها حين مواجهته.

حافظ على ابتسامته قائلًا:

– مَنْ هم مثلُ عصام لن يفيدَ معهم النقاشُ أو الجدال، قد ينفعهم الدّفع إليهم ببعضِ الكتب الفلسفية لمن سبق له المرور بنفس تجربتهِ وأشهرها كتاب د. مصطفى محمود الشهير (حوارٌ مع صديقي الملحد)، وسيكون ذلك مجرّد

مقدمةٍ لخلخلة بعض أفكاره التي لا يرى فيها نزاعًا الآن، ولكن البحث عن الجذور ومنشأ الأفكار التي اعتنقها وكيف وصلت إليه ونالت منه هو الأهم، وهذا هو دورك في هذه المرحلة.

هزّت سميرة رأسَها دلالةَ موافقته على ذلك، ولم يعد أمامها سوى البحث عن كيفية العودةِ إليه بعد كلّ ما فعلت به.

***

أقصرُ طريقٍ بين نقطتين هو الخط المستقيم، ولأنها لم تعرف غيره في حياتها كلها فقد سلكته، بعينين تهربانِ منه في حرجٍ وبارتباكٍ ظاهر عليها قالت:

– هل يمكنني الاستمرارُ في البحث معكَ بمثل ما اتفقنا عليه من قبل؟.

بمنتهى الضيق وبملامحَ ترتسم عليها كلّ أماراتِ الغضب قال لها عصام بصوتٍ جافٍ:

– ما هي خطتكِ هذه المرّة لتخريبهِ؟ هل ستقتلينَ آدم؟

بحرجٍ مُغلّفٍ بالضيق ولكن مع التماس المعذرة له قالت:

– لقد وجدت أنّ العقل يُؤيد السير في هذا البحث لأن نهايتَه حتمًا ستصلحُ لكَ الخلل الذي وقعت فيه، وحتى أكونُ شاهدةً على نتائجه ولا يتمّ محوُها أو إخفاؤها إذا خالفت هدفكم منه.

ابتسم بسخريةٍ وقال:

– اطمئني لسنا عربًا متخلّفين أو متعصبين ولن نسعى لذلك.

قالت بهدوءٍ:

– ولذا قرّرت المساعدة حتى تلحق أنت بركبِ كلٍّ من أعلنوا عن عظمةِ الخالق عند اكتشافهم لإعجازه فيما كانوا يبحثون عنه.

تنهّد عصام بقوةٍ وقال:

– حسنًا يا سميرة، لولا معرفتي الجيدة بك، ولولا محبتي لكِ، ما سمحت لكِ بالاقترابِ من هذا المركز.

ابتسمت رغمًا عنها لمحبته التي أعلنَ عنها وقالت:

– خذْ ما تشاءُ من ضماناتٍ وحذرٍ، ولكن فلتخبرني أين وصلتم الآن؟

بمنتهى الحماس والشغف وكأنما قد مُحيت من ذاكرته كلّ ما فات أشار لمكتبه وهو يتحرّك نحوه قائلًا:

– الكثير من الدهشة بانتظارِكِ.

سابقته بحماسٍ مماثلٍ ولهفةٍ حقيقية لمعرفة ما تمّ التوصل إليه، وبجواره جلست أمام حاسوبه ليَقومَ بتشغيلِ ملفّ صوتي لتجد صوتًا أجشَّ خشنًا يتحدّث بسرعةٍ وبلغةٍ غريبة لا علَم لها بها، فنظرت نحو عصام بدهشةٍ وقالت:

– لا تقلْ لي بأنّ هذا هو صوتُ آدم!

اتّسعت ابتسامتُه لتلتهم وجهه وهو يُومئ برأسه قائلًا بمنتهى السعادة لدهشتها هذه:

– صوتُه وتلك لغته بالفعل، بعد البحث في نقطة نقص الأُكسجين بدمِه وقلّةِ استهلاكه له وجدنا أنّ البيئةَ الحالية غيرُ مناسبةٍ له بغلافها الجويّ فتمّ

ضبط كثافة الأُكسجين بنسبٍ متعدّدة ودفعها لغرفته المحكمة لنجدَ التحسّن قد بدأ مع أحدها فتمّ تثبيتها والاستمرار بها، بعدها بأيام قلائل زالت نظرتُه التائهة واستكانته التي اعتاد عليها منذ ظهرَ، وبدأ يتحدّثُ بمثلِ ما سمعتِ، ولكن للأسف بحثنا في كلّ اللغات المعروفة ولم نصل أبدًا إلى لغةٍ تقاربها.

أعادتْ سميرة تشغيلَ الملفّ الصوتي وهي تستمع له بمنتهى التركيز، وبعد انتهائه هزَّت رأسَها وقالت بفرحةِ طفلٍ وجد لعبةً كم تاقت نفسه إليها وقالت:

– سيكون هذا دوري في البحث، أريد المزيدَ من التسجيلاتِ له وسوف أجدُ أصلَ هذه اللغة بإذن الله.

قال عصام بأسًى:

– للأسف بعد استفاقته أصبح ينتابه الكثيرُ من الهياج لدرجة أننا نلجأ لتخديرِه بالاستنشاق للقيام بأحدِ الفحوص، ولم يعد يتحدثُ إلّا نادرًا بعد انعدام المؤثّر الذي يدفعه للكلام.

قالت سميرة بمنتهى البساطةِ:

– قمْ بتشغيل تسجيلاته السابقة عبرَ سماعات بغرفته فقد تدفعه للردّ عليها.

نظر عصام نحوها بإعجابٍ قائلًا:

– كم افتقدت عبقريتكِ هذه.

هزّت رأسها بأسًى دون ردّ عليه وقامت ذاهبةً إلى الجهازِ المخصصِ لها بعد أن طلبت منه كلّ التسجيلات السابقة.

***

الزّجاج المنكسرُ من المستحيل أن يعود لهيئته الحقيقيّة حتى لو أُعيد تشكيله بنفسِ الآلية التي تمّ تصنيعه بها بالطريقة الأولى، فلن تعود ذرةٌ لموضعها أبدًا، ولهذا كان الاختلافُ الكبير في التعامل والتعاطي مع عصام طوالَ هذا اليوم، الأعينُ الهاربة والفارّة من الملاقاة والحوار بينهما، تجنّب الهُوةِ السحيقة التي مروا بها، كلّ منهما يعلم أنه جانٍ وضحيةٌ في نفس الوقت، ويرى أن أيَّ فرصةٍ للمصارحة لن تكون إلّا بالنّيلِ من الجانب الجاني به، عصام يظهر عليه الاهتمامُ الكبير المستغرق لكلّ مشاعره لهذا البحث، ولا يريد ما يعوقه بأيِّ شكلٍ كان، سميرة تريد البقاءَ بجواره عسى أن تجد مفتاحًا يمكنها من الولوج للمنطقة المظلمة لديه، فقد تعثّر على ما ينير له دربه فيعود إلى ما كان عليه من قبل، لهذا أجّلتْ أي نقاشٍ يؤدّي إلى جدال قد يغلق الدروبَ التي يجب عليها أن تسلكها، الاهتمامُ بالبحث معه ومشاركته فيه سيمهّد لها كلّ ما تريد، ستسعى بالعلم الذي لا يعترف إلّا به لإثبات فشل نظريته، والنقاش العلمي حتمًا سيدفعهما للتلاقي بشكلٍ سلسٍ عند النقاط التي تريدها، ساعدها تجاوزه السريع وقبوله لها ببساطةٍ بشكلٍ أكّد لها أنه يُحبّها بالفعل، فما الحبُّ إلّا طاقةٌ هائلة على الغفران، ولكن مجردَ سماع ضحكتِه المجلجةِ ورؤيته من خلف الزجاجِ وهو يمازحُ جواليا إحدى أعضاء الفريق الكندي أشعلت

براكين ثائرة مزّقت قلبها، وأوقدت الجحيم بصدرها، مما أكّد لها أن محبته بقلبها تتضاعفُ ولا يمكن أن ينال منها شيء، فما الحبّ إلّا تجسيد للأنانية ورغبة في تملّك للطرف الآخر والاستئثار به، فهذا هو أحد وجوهه المتعدّدة، ولهذا قرّرت سميرة العملَ والمشاركة، ولكن بمنهجٍ وشكلٍ جديد، فهي لا يلزمها التواجد الدائم بالمركز للعمل على الجانب الخاصّ بها، ستحملُ معها التسجيلات التي حصلت عليها وستجلس لتدرسها ومحاولةً استنباط جُملٍ منها يمكن بناؤها بإعادةِ ترتيبِ ودمجِ الكلمات فيها وتغييرِ نبرة الصّوت بأحد البرامج الحاسوبية المتخصصة في ذلك، وبعدها ستأتي فقط لتبثّ هذا الكلام مع تسجيل كلّ ردود فعلِ آدم تسجيلًا مصوّرًا لتحملها معها وتعود أدراجها لتدرسها إمّا بمقرّ عملها في المركز القومي للبحوث أو حتى بمنزلها، وبهذا سترفع حرجَ المواجهة المباشرة مع عصام، وستطفئُ نار الغيرةِ التي إن اسْتشعرها بها سيسعى لأنْ يؤجّجها كما هي عادةُ أي ذكرٍ يسعده ذلك!

وما ستصلُ إليه من نتائجَ ستناقشه معه بعد السعي لمعرفةِ ما تمّ التّوصل إليه مع باقي أفراد الفريق، لم يُمانع عصام ووافق بسرعةٍ تظهر راحته لهذا القرار لأنّه سيمنع عنه عبئًا قد يكون المواجهة أو الملاحقة أو الحساب.

***

أدركت سميرة مدى المعاناة والصبر اللَّذين لا حدَّ لهما وكيف بذل شامبليون جهدًا عصيبًا لكي يقوم باكتشافِ اللغة الهيروغليفية المكتوبةِ

على حجر رشيد، استمعت للمقاطع مراتٍ عديدة حتى تعتاد أُذناها عليها، أبطأت من سرعةِ الصوت لكي تُمسك بمخارج الحروف محاولةً نُطق الكلمات بمثلِ ما نطق بها آدم، كتبتِ المفردات التي استطاعت تحديدَ حروفها بنقاءٍ تام، وبعد أربع ساعاتٍ من الجهد الأوليّ خرجت بإحصائيةٍ عن الكلماتِ المتكررة لتجد أَن كلمةً واحدة كان لها السبقُ في التكرار، وهي كلمة (جُوج) لا تدري هل هي فعلٌ أم اسم، ولكن تأكّدت من خصوصيتها لدى آدم، وقرّرتْ أن تكون هي المدخل معه، بعد أنِ انتهت من العمل الذي تقوم عليه بالشكلِ الذي يرضيها، وجدت نفسها رغمًا عنها وبدافعٍ خفيّ تفتح صفحةَ المقاطع المصوّرة على موقع يوتيوب باحثةً عن ذلك الفيديو الذي أخبرها به الشيخ "محمود أبو البخاري" عن الخطيبِ القائل باتفاقهِ مع نظرية داروين بنسبةِ تسعين بالمائة وشاهدته باهتمام وللوهلةِ الأولى وجدت كلامَ الرجل منطقيًّا وعلميًّا جدًّا، هزّت رأسها بعنفٍ كعادتها كأنما تنفضُ عن نفسها غبارًا علقَ بها، وهي تتساءلُ كيف يمكنُ خروج كلّ المخلوقات من خليةٍ واحدة هي أصلُ كلّ الفصائل التي لا حصر لها؟

صريحُ القرآن الكريم يشرحُ خلقَ آدم- عليه السلام- بشكلٍ خاصّ ومتفرّدٍ ولم يقلْ بأنه نبتَ عن تطوّر من خلقٍ أو جنسٍ سابق، طمأنها تذكّرها لقول الشيخ محمود بأنّ كلامَ هذا الرجل يسهلُ تفنيده والردّ عليه، كانت تنتوي فتح صفحاتِ ومواقع الملحدين لقراءة أفكارهم وما يدعون إليه لترى كيف يقتنعونَ بما هُم منغمسونَ فيه، ولكن إن لم تتسلّح بما يمكنك

من السّير فوق الأشواكِ فمِن العقل ألّا تلجَ الأكمةَ التي لا تدري ما بها، كلّ المستكشفين والمغامرين حتى المتهور منهم لا ينطلق إلّا بعد تسلّحهِ بما يمكنه من مواجهة كلّ الأخطار المحتملة، فما بالكَ بالسعي وسطَ ألغام رأت بنفسها كيف أنها قد تُودي بها، الآن قد التمست المعذرةَ بالفعل لعصامٍ؛ إن كانت هي تجلس هادئةً مطمئنةً ببيتها وتملك كلّ زمام أمرها وقد عبث مقطعٌ واحد مصور بها وأثارَ بداخلها كلّ ذلك، فما بالكَ بمن يعيشُ بين المؤمنين والداعين لهذه الأفكار سنواتٍ عديدة؟!!

الأمرُ عسيرٌ بالفعل، ويجب إعدادُ مختصّين فيه بشكلٍ علميّ وديني لا حدّ له، لن تكفي بعضُ المناظرات أو المقالات المتناثرة هنا وهناك.

وأخيرًا بعد أن شعرت سميرة بمدى ثقلِ المُهمّة المُلقاة على عاتقها، أغمضت عينيها لتذهب في سُباتٍ عميق.

***

- جُوج.

انتفض آدمُ فور منادةِ سميرة عليه بهذا اللفظ، وقام واقفًا لينظر نحوها بدهشةٍ جليّةٍ على ملامحه، مما جعلها تشعرُ بأنّ هذا هو اسمه، ضغطت زرّ المسجّلِ الصغير بيدها لتسمعه الجملةَ الأولى التي أعدتها ولا تدري معناها، فإذا به يردُّ عليه بجملةٍ قصيرة حتمًا سيكون معناها "ماذا تقولين، أو ماذا تقصدين؟".

فالتركيبُ العشوائي غيرُ المعلوم سيجعلها جُملةً عجيبةً بلا معنى، أشارت نحْوه بيدها أثناء تشغيلها للجملة الثانية التي تكررت فيها كلمة جوج بشكلٍ مقصود، فإذا به يلوّح بيديه ويهتف بصوته الأجشّ العالي بجُملةٍ طويلةٍ تكرّرت فيها كلمة جوج مرتين كذلك، لم تتوقّف سميرة وأكملت بقية الجُمل وهي تشعر به يكاد يجن، وأخيرًا تقدّمت نحو القفص ببطءٍ، وهي تقول له كلمة «جُوج» بصوتٍ هادئ مُغلّفٍ بنبرةِ الرّجاء التي لا تحتاجُ إلى لغةٍ لترجمتها، وأخرجت شطيرةً مُجهّزةً بعنايةٍ ومدّت يدها عبرَ الفتحةِ المعدّة لتقديم الطعام إليه والتي صمّمت عبرَ الجدار الزجاجي بغطاءٍ يمكن دفعه من الخارج ليَعود لموضعه الطبيعي عقبَ دفع الطعام من خلاله، نظر آدم نحوها مليًّا ومدّ يده نحوها وهي عاجزةٌ تمامًا عن منعِ الارتعادة القوية التي تكتنفها، تقدّمت يداهُ نحو يدِها الممتدّة إليه ببطءٍ شديدٍ، وفجأةً انقضّتْ كفّه على معصمها لتقبضَ عليه بقوةٍ أخرجت صرخاتِ سميرة العالية من مكنونها، وصنع صياحِ آدم المهتاج مع صراخها موجةَ هيستريا عارمةً بالمركز، اندفع الجميع نحوها، البعضُ يحاول جذبها والآخر يحاول دفع آدم بعيدًا بعمودٍ حديدي عبر كوّةِ تقديم الطعام، وعصام ذهب مسرعًا ليبثّ الغاز المُخدر نحوه ليغرق الغرفة الزجاجية به، ظلّ آدم يحاول المقاومة وأخيرًا نظر نحو سميرة نظرةً لا تحتاج إلى لغةٍ كذلك لتدري معناها، فقد كانت تستجديها وتستنجد بها، وانسحبت يده برفق ناطقًا كلمةً واحدة بوهنٍ ليغيبَ بعدها في سباتٍ عميق.

اهتمّ الجميعُ بسميرة متفحّصين إيّاها، وباحثين عن أية إصاباتٍ ولم يجدوا إلّا الهلعَ الذي انتابها للموقف الذي تراه غير مبررٍ، ولم تسمع عبارات اللوم من عصام وهو يسألُها عن سرِّ هذا التهور الذي أقدمت عليه وذهبت لتجلسَ على كرسي متقبلةً كوب الماء البارد الذي امتدت به إحدى الأيادي نحوها، رغمَ الوحشية التي يظنها الجميع بآدم إلّا أنه لم يفعل إلّا الإمساك بمعصمها بشدّةٍ فقط، لم يحاول جرحه أو كسره أو حتى جذبها نحوه بقوةٍ مبالغةٍ يمتلكها، هل كان يريد إبلاغها رسالة وصرختها أهاجته ليصرخ بمثل ما فعلت، ما معنى كلمته الأخيرة التي نطق بها قبيل مغيبهِ عن الوعي؟!

ينتابها شعورٌ قوي الآن بأنّ الأمرَ ليس كما هو ظاهر، هناك شيءٌ جللٌ ويتمّ التعامل معه بسطحية، السرُّ لن ينجلي إلّا بكشفِ مفرداتِ هذه اللغة، الآن وبعد أن أصبح معها كلمة دلالية كبيرة يمكنها البناء عليها، كلمة "جُوج" لن يغمض لها جفنٌ حتى تصلَ لمدخلٍ يصل بها لبدايةٍ حقيقية يمكن البناءُ عليها مع هذه اللّغة، بعد أن هدأت أعصابها أخذت التّسجيلات المصوّرة، وانطلقت إلى بيتها لتبدأ العمل عليها بلا كللٍ أو وهن، بدأت في تحليلِ المقطع المصوّر لما حدث اليوم، حركةُ جسد آدم وإشارته كلّها كانت تدل على لهفته للتواصل مما يؤكد أن إمساكه بمعصمها لم يكن للهجوم أبدًا، استمرت بعدها في تحليلِ الكلمات ومقارنتها بالمفردات التي استخرجتها من التسجيلات السّابقة، لتجد أنّ كلمةَ جُوج هي جوهرةُ التاج حتى الآن، فجاءتها الفكرةُ التي غابت عنها رغم بساطتها، إنها منقذتُها ومرشدتُها الدائمة والمتخصّصة في أكثرَ من لغة وعلى صلةٍ بمن يمكنه الوصول إلى اللغات غير المعروفة لهم..

"منى".. اتصلت بها لتقصّ عليها الأمر وطلبت معونتها للتوصّل إلى هذه اللغة، ولتبدأ بكلمة جُوج تحديدًا لأنها ستكون المدخل الرئيسي لكلِّ شيء.

بحماسٍ أخبرتها "منى" عن المسارين اللَّذينِ ستنطلق فيهما، الأول سيكون بوضع المقطع الصوتي بإحدى الصفحات العالمية والكبيرة للمختصّين في اللغات وتعلنُ عن جائزةٍ لمن يستطيع ترجمةَ هذا المقطع، وسيكون بريدُ سميرة هو المعلن لمن عنده استفسارٌ أو لديه الرد بالترجمة المطلوبة، والمسار الثاني سيكون بمحاولةِ الوصول لأحدِ أساتذة اللغاتِ الميتة في ذلك المعهد الذي درست به لغاتها الثلاث وطلب المعونة من "عادل" في ذلك، شكرتها سميرة على جهدها الحثيث، والذي حتمًا سيثمرُ الكثير، وبعد ساعتين فقط جاءها اتصالٌ من "منى" ليفجرَ الأرض من تحت قدميها.

***

– عصام، الأمرُ أخطرُ مما تتصوّر، أرجوك استمع إلي بعنايةٍ، وأرجو أن تُقدِّر كلّ حرفٍ سأنطقُ به.

نطقت سميرة بهذه العبارة وهي تنتفض وجلًا بصوتٍ مُغلفٍ بكلِّ حماسٍ وانفعالٍ مما دفع عصام لأن يُشحذ كلّ حواسه مترقبًا لما ستقوله.

اعتدلتْ سميرة في جِلستها وقالت باهتمامٍ:

– قبل كلّ شيءٍ أريدُ معرفة موقعك الآن من الأديان لأنّ هذا هو الأساس الذي سيبنى عليه كلّ شيء.

انطفأت الشّعلةُ التي أوقدتها بصدرِ عصام فورَ سماعه لذلك وقد أدرك أنها قادمةٌ لتجادله فيما يعتنق، وحتمًا لن يخرج النقاش بأي نتيجةٍ سوى الثورة المتبادلة، وهذا ما حاول تجنبه، ولكن تنهّدَ وقال ببطءٍ:

– كلّ ما هنالك أني اكتشفتُ نقيضَ الكثير من المسلمات البدهيةِ التي لم تكن تقبلُ إبداءً للرأي من قبل، فدخلت في مرحلة تعليق لهذا الأمر حتى أجد جاذبًا قويًّا يجذبني لأحد الأطراف، وللأسف لم أجده حتى الآن، ولكنّ احترامي للأديان ولأيِّ مُعْتَنِقٍ لفكره الخاص قائم، فللكلّ الحريةُ فيما يعتقد أو يؤمن به.

جاهدت سميرة لتكظمَ كلّ انفعالاتها التي تموج بها، وأخذت نفسًا عميقًا، وعيناها ترمشان بسرعةٍ فضحت كلّ ما تحاول إخفاءه، وقالت بهدوءٍ شديد:

– حسنًا.. أولًا هل تتّفق معي بأن كلمةَ جُوج على حسب إحصائية تكرارها وموقعها في الجُمل ومع ردود أفعال آدم نحوها بالأمس.. هل توافق على أنها كلمةٌ دلالية كبرى يبدأ عندها الحلُّ الكبير للغز هذه اللغة التي يتحدث بها؟

لوّح عصام بيديه ببساطةٍ وقال:

– ذلك اختصاصك الذي لا يمكنني منازعتكِ فيه الآن، ولكن أرى مثل ما ترينَ بالفعل.

كمَن يجسّ بركانًا موقنًا من انفجاره الوشيك. قالت بتحسّسٍ:

– ما رأيكَ لو أخبرتكَ أني قد توصلتُ لمدلولها الفعلي؟!

انتبهتْ حواسّ عصام بأكملها وقال بلهفةٍ:

– رائعٌ.. أثق بقدرتكِ على ذلك بالفعل، وما هو هذا المدلول؟

عضّت سميرة على شفتها السّفلى، وهزّت رأسَها بتحسّرٍ وقالت بصوتٍ خافتٍ:

– جُوج كلمةٌ مشتركة بين أكثر من لغة منها العربية والعبرية كذلك وتشير لشيءٍ واحد مذكورٍ في كلّ الأديان وهو ما نُسمّيه نحن يأجوج ومأجوج.

انتصب عصام واقفًا وقائلًا:

– لقد ظننتك تبحثين بمنهجٍ علميّ سليم، ولكن ما زالت الخرافاتُ والخزعبلاتُ التي تمَّ حشو رؤوسنا بها هي المحركَ الرئيسي لك.

نظرتْ سميرة نحوه بألمٍ، وقالت بصوتٍ هادئٍ:

– ألمْ تقُلْ منذ ثوانٍ أنك تُقدّرُ وتثمنُ وتحترم عقائدَ الآخرين؟!

هتف عصام بثورةٍ قائلًا:

– نعم يا سميرة أحترمُ عقائد الآخرين إذا لم توجّه سهامَها نحوي، البحثُ العلمي يجب أن يوثقَ بحقائقَ لا خيالاتٍ مرضيةٍ أو أساطيرَ دينية تداولتها

الأجيال لتوظيفها في كلّ عصرٍ حسب مصالحهم الخاصّة، على ذكر يأجوج ومأجوج هل تعلمين أن الرئيس الأمريكي السّابق جورج بوش وقبلَ غزو العراق بأسابيعَ كان يجتمع بالرئيس الفرنسي جاك شيراك لإقناعه بأن الحربَ ضدّ العراق هي قضيةٌ عادلة وأنّ تحريرَ العراق هو إرادةٌ إلهية! وفي كلّ الحجج التي يسوقها بوش كان يندّدُ بالدول سيئةِ الأدب ويهاجم محورَ الشر، ويكرّر كلمةَ يأجوج ومأجوج، وأمام هذا الكلام ظلَّ شيراك مذهولًا لا يستطيع تفسير هذا الكلام الملغز، وتوصل مستشار شيراك إلى الإجابة عن طريق الاتحادِ البروتستانتي الفرنسي الذي قال: إنه في نهاية الزمان سوف يدخلُ يأجوج ومأجوج من بابليون إلي إسرائيل بحسب النبي حزقيال.. وبابليون طبقًا لتفسير الاتحاد البروتستانتي هي بابل التي أعاد بناءها صدامُ حسين!!

ضحكت سميرة قائلةً:

– هل تعلم أني أحترمُ تقديسَه لعقيدتهِ وسعيه لنصرها حتى وإن كانت خطأ من وجهة نظري، وليتَنا نفعل نحو ديننا بمثلِ ما فعل؟

رفع عصام حاجبيه عاليًا ثمّ قهقه بقوةٍ وقال:

– رائعٌ.. دكتورة سميرة العالِمةُ الفذَّة تقرُّ الحروبَ الدينية وتدعو إليها.

تنهّدت سميرة بقوةٍ وقالت:

– أرجوك يا عصام لا تستنطقني بما لم أتفوّه به، حسنًا سأشرحُ لكَ مقْصدي، منذ عامٍ شاهدت فيلمًا أمريكيًّا هوليوديًّا لنيكولاس كيج نجم

الشّباك الشهير، اسم الفيلم هو « Left Behind » "تُركوا بالخلف".. بدأ الفيلم بمشهدٍ في أحد المطاراتِ مع التركيز القوي على كتاب يُباع بمكتبته، وعليه إقبالٌ اسمه (أعمال الربّ) وتدور الأحداث ليكون قائدَ إحدى الطائرات ذلك النّجم الكبير، وبالطبع تحملُ الطائرةُ مختلفَ الجنسيات والأعمار والأديان بما فيهم المسلم، وعلى الأرض تذهب ابنته الشّابة برفقةِ أخيها الصغير الذي لم يجاوز مرحلةَ الصّبا إلى أحدِ المجمّعات التجارية، والتي تحوي بعض آليات الملاهي للأطفال، وفي مشهدٍ أخّاذٍ بتقنيةٍ عالية وأثناء احتضانها لأخيها بين ثنايا حوارهما، يختفي كلّ الأطفال دفعةً واحدة لتتفاجأ الشابةُ بأنها لا تحتضنُ إلّا ملابس أخيها، وفي نفس التوقيت تضطرب الطائرةُ دفعةً واحدة ليختفي كلّ مَن بداخلها من الأطفال، ونكتشف بعد ذلك بأنه ليسَ الأطفال فقط مَن فُقدوا، وإنّما مساعد الطيار ورجلٌ عجوز كان بجوار زوجته، وكذلك زوجة هذا البطل من منزلها بشكلٍ عجيبٍ لا تبرير ولا تفسير منطقيٍّ له، ويستمرّ اللغزُ مع التفاعل بإخراجٍ مبهرٍ كالعادة لنصل في النهاية بأنّ ما حدث هو بداية النهاية فقد اختار الله المؤمنين وانتزعهم في لمح البَصر ليكونوا بجواره حتى يجنبهم أحداثَ النّهاية من كوارث وآلام وأهوال ستشهدها الأرض لمدة سبعِ سنواتٍ، وبعد نهايةِ أحداث الفيلم الأخّاذة والتي جعلت كلّ الأبطال يعودون من غيّهم الذي كانوا فيه تومضُ الشاشة السوداء بآية من إنجيل مرقس برقمها قائلةً «وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ».. هل تعلمُ يا عصام بأنّ هذا الفيلم قد حقّق نجاحًا كبيرًا في العالم العربي والإسلامي

رغم معارضة فكرة الفيلم الرئيسية لصريح معتقدنا الإسلامي مع العلم بأني بحثتُ عن الآية الكاملة في إنجيل مرقس فوجدتها تقول «وَأَمَّا ذلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ، وَلاَ الاِبْنُ، إِلّا الآبُ.» (إنجيل مرقس ١٣: ٣٢).. ويظهر في نصفها الأخير مخالفتها التامة لما نؤمن به، وبالرغم من ذلك تقبل الجمهور العريض الفكرة ومرّرها دون اعتراض، منهم المتديّن والليبرالي أو حتى الملحد، تخيلْ معي النقيضَ لو قام عربيّ بعمل فيلم كبير فكرتُه تدور حولَ تعظيم مقدسٍ إسلامي، ستجد أغلبَ هذه الأطرافُ تتّهم صُنّاعه بالتخلف والجهل ومزجِ الدين بأمورٍ لا ينبغي له أبدًا أن يختلط بها، لماذا؟! أعترف بأني كنتُ ضمن تلك الجموع التي ترى الدين جانبًا روحيًّا كماليًّا، ولم أدرك مدى تقصيري إلّا الآن، لهذا أغبط كلّ مَن يجعل الدينَ هو جُلّ همّه وهدفَ حياته بغضِّ النظر إن كان على خطأٍ أو صواب.

صَفَّقَ عصام بحركةٍ تمثيلية وضحكَ ضحكةً قصيرةً متهكمةً وقال:

– رائعٌ يا دكتورة.. ولكن كتب التاريخ تعجُّ بعصورِ الظلام المصطبغة بدماء الأبرياء نتاجَ جعل الدينَ هو المحرك الرئيسي كما تقولين.

قالت سميرة بهدوءٍ:

– أعلم أيضًا عن إحدى الدّيانات أنها نهتْ عن قتل طفلٍ أو امرأةٍ أو عجوزٍ أو حتى قطع شجرة، وما دخل هذا الدينُ بلدًا إلّا ونشر فيه العلمَ والعدلَ والنورَ، وما انحسر مجدُ أبنائه إلّا عندما ابتعدوا عنه وعن صحيحِ تعاليمه.

تنهّد عصام هذه المرة بقوةٍ وقال:

– حسنًا يا سميرة، أعلم جيدًا قصة يأجوج ومأجوج المحتبسين خلف سورٍ يمنعهم عنّا منذ آلاف السنين، وما زالوا رغم هذه القرون لم يتطوّروا، وباقون على همجيتهم ورغبتهم الأبدية في إيذائنا وفقط، ولا يستطيعون المرورَ من ذلك السّورِ رغم عوامل التعريةِ الممتدة لهذا الزّمن الكبير، ولم يعلمْ مخلوقٌ بمكانهم أو يكتشفهم رغم أنّ السماءَ تعجُّ بأقمارٍ صناعية أصبحت تكشفُ دبةَ النملة بالأرض!! هل تقولين بأنّ آدم منهم؟! بكلّ بساطةٍ المركز بكلِّ طاقته وآدم نفسه أمامك فلتكشفي لنا ما يثبتُ ذلك.

قالت سميرة برجاء:

– مجرّد الإيمانُ بالفكرة سيفتحُ الآفاقَ ويطرح الكثيرَ من الأفكار التي تمهّد لنا طريقَ الكشف، مثلًا لو قلنا بأنّ يأجوجَ ومأجوج ليسوا خلف سورٍ حسيٍّ وإنما سورٌ معنوي مثل كونهم قد تمَّ دفعهم إلى بُعدٍ آخر أو عالَمٍ موازٍ لنا، وأنّ مرورَ آدم هذا قد تمَّ عبر ثغرةٍ لو حاولنا الوصول إليها، وكشفها قد نتمكّن من رصدِ هجومٍ قادمٍ وإعدادِ سبلِ المواجهةِ له.

أشارَ عصام بيديه وهو يقول بصرامةٍ:

– لنْ أعارضكِ يا سميرة فيما تعتقدين، وسوف أقدمُ لكِ ما تطلبين من مساعداتٍ لكشف ما تريدين، أمّا كوني لا أصدقُ هذه الترهات الخيالية، وأنّ لي هدفًا آخر كذلك أراه كبيرًا وأسعى خلفه، أعتقد هذا من حقّي.

قالت سميرة بأسًى:

– الأمّ لا ترضى أبدًا أن يكتشف وليدها صوابَ فكرتِها بمصابِه عندما يطرقُ ما نهته عنه.

ضحكَ عصام متهكمًا للمرة الثانية قائلًا:

– شكرًا أيتها الأمّ الرؤوم.

***

استغرقَ البحثُ عن أصلِ يأجوج ومأجوج كلّ جهدِ سميرة، فبعد أن جعلتْ تركيزها في المرّة السابقة عن كلمةِ جُوج فقط وبحثتْ عنها وأخبرتها منى بهذا الكشف؛ أصبح المفتاحُ الأكبر لديها الآن أن تلمّ بكلّ ما يخصُّ يأجوج ومأجوج، وقد وجدت الكثيرَ مما أدهشها، فقد كان علمُها بقصّتهم وميضًا يمضي مسرعًا لمجرد سماع بعض الآيات التي تتحدّث عنهم بسورة الكهف، وأنّهم فقط شعبٌ جبارٌ سيظهر في آخرِ الزمان ليعيثَ في الأرض فسادًا، وبما أنّ ذلك لن يكون إلّا عند قيام السّاعة فلم تشغل بالها بهم، فأينَ هُم منها كي يكونوا داخلَ بؤرةِ اهتمامها؟! أمّا الآن فالأمرُ قد اختلف، العملُ بالمركز مع آدم على أشُدّه، عصام ومجموعته يريدون تحقيقَ نصرٍ علميّ لدراوين ونظريته من خلاله، وهي لو استطاعت إثباتَ كشفها بأنه أحدُ أفرادِ يأجوج ومأجوج تكون قد انتصرت لنظريةِ الإيمان بأحداث الساعة في آخر الزّمان عسى أن يكون ذلكَ عاملَ جذبٍ وعودة عصام إلى الإيمان بالله عزّ وجل.

قبلَ البدء في بحْثها قرّرت الاستعانةَ بمن يُمكنه مساعدتُها، طلبت من حسام أخيها بعضَ الكتب والمراجع الموثقةِ والموثوقةِ عن يأجوج ومأجوج، وذهبتْ إلى منى لتُجالسها وتناقشها بما يدور بخلدها وبدأت قائلةً:

– هل لديك جديدٌ عن الترجمة للمقطع الصوتي؟

– لا جديدَ، ولكنّ "عادل" أخبرني أنه أرسلَ بريدًا لعالمٍ أمريكي متخصّصٍ في هذا الأمر بالفعل وينتظر ردَّه، وسوف أخبركَ على الفَور حين ردِّه.

– أنا كذلك أنتظرُ من حسام المراجعِ التي سيأتيني بها عن يأجوج ومأجوج، لقد وضعت افتراضًا أتمنى ألّا يَثبت نقيضه، كلنا نعلم الحديثَ النبوي الشهير عن أنهم يحفرون وينبشون هذا السدّ يوميًّا حتى إذا اقتربوا من فتحه عادوا قائلين بأنهم سيكملون في الغد، وكلما عادوا في اليوم التالي وجدوا السدَّ قد عاد بمثلِ ما كان قبل بدء الحفر، لو قلنا بأنهم خلفَ عالَمِ موازٍ أو بُعدٍ آخر فهذا يعني أن السدَّ قد تكون بنيته من موْجاتٍ كهرومغناطيسيةٍ نشأت عن مزجِ الحديد بالنّحاسِ المنصهر بعد إفراغ القطرِ عليه كما جاء في القرآنِ الكريمِ في سورة الكهف، ولهذا لا يظهر لهم أثرٌ بسطح الأرض، ومعنى خرقهم له في آخرِ الزمان أنهم حتمًا قد توصلوا لتقنيةٍ علميةٍ تُؤهلهم لذلك، وليس معنى أنّهم يعيثون في الأرضِ فسادًا أنهم يتصفون بالبدائية، الجيوشُ المتقدّمة والتي تستخدمُ القنابلَ النووية والفسفورية والعنقودية، وكلَّ ما يصل إليهم من أسلحةٍ متطورة.. أليس هذا فسادًا في الأرض ودمارًا لها وللبشرية؟

صمتتْ "منى" حينًا، وقالت:

– عقب إخباري لكَ عن توصّلي لدلالةِ كلمة "جوج"، وأنا كذلك منشغلةٌ بالبحث عمّا يتعلق بهم، ووجدت نظريةً لم أسمع بها من قبل، تلك التي تتحدّث عن أنَّ أقوامَ يأجوج ومأجوج ليسوا من نسلِ آدم عليه السلام، وإنّما هُم من نسلٍ يسمّى "النيندرتال" خلقوا وعمّروا الأرض قبل آدم عليه السلام بما يقارب ١٥ ألف سنة، وهذا سرُّ الصّراع الدّائم بينهم وبين بني آدم، وتحدّث الكثيرُ من المختصين عن المقاربةِ الجينية الكبيرة بينهم وبين الإنسان الآدمي.

ضحكتْ سميرة قائلةً:

– تلك نظريةُ الداروينيّين رعاها عالِمان أحدهما سويدي والآخر أمريكي بمعهد بلانك الألماني، وتناقلها وصدقها عنهم كالعادة بعض الباحثينَ العرب والمسلمين، وهي تعدّ أحدَ مراحلِ تأصيل وتوثيق نظرية داروين القائلة بأنَّ خلْقَ الإنسان هو تطورٌ ناشئ عن مخلوقاتٍ سابقة بدأت كلّها من خليةٍ واحدة، وأيّدهم في ذلك اكتشافهم لهيكلٍ عظميّ نسبوه لهذا الإنسان المزعوم كان تركيبُه من جمجمةٍ بشريةٍ تمامًا ولكنّ الفكّ ينتمي للقردة بشكلٍ جليّ، تاهوا فرحًا بهذا الاكتشاف لمدّة ٤٠ عامًا، وقد وجدوا حلقةَ الوصلِ التي تؤكّد نظرية التطور هذه، ولكن مع تقدّم الأبحاثِ والدّراسات وجدوا تفاوتًا كبيرًا في عمر كلّ منهما مما يعني أنهما لا يخصّان كائنًا واحدًا.

قالت منى بحماسٍ:

- أنا كذلك وجدت النّفيَ التّام لها، ولكن لن يصدقه إلّا من آمنَ برسولنا الكريم ﷺ، ففي الحديث الصحيح يقول رسولُ الله ﷺ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوج من ولد آدم، وإنهم لو أُرسلوا إلى الناس لأفسدوا عليهم معايشهم»، وهذا تأكيدٌ أنهم من نسلِ آدم لا مراءَ فيه، ولكن ظننتُ ذلك قد يكون مدخلًا لشيءٍ مقاربٍ تعرفيه أنت بحكم تخصّصك.

قالت سميرة بامتنانٍ:

- بحثُكِ رائعٌ والحديث النبوي الشريف يختصر الكثيرَ من الجهد بالفعل، استمرّي في البحث معي عن الأحاديثِ والمصادر الدينية السليمة التي تساعدنا فيما نريدُ.

***

السّحبُ السوداء التي لم يرها سكانُ القاهرة من قبل تكاثفت وتجمّعت فجأةً فوق منطقةِ التجمّع الخامس، ولأوّل مرةٍ يحدث ما يُشبه الإعصار الذي تغصُّ به الأفلام الأمريكية، فكأنما سحابةً منهم قد قرّرت النزولَ إلى الأرض فظلّت تدور حولَ نفسها باستمرارٍ وسرعةٍ متزايدة كلّما تضاعفت أُضيء برقٌ يصحبهُ هزيم الرعدِ بمشهدِ بثِّ الرعبِ في كلّ مَن شاهده، ظنّ الجميعُ بأنّ السحابةَ ستلامس العمارات وتقتلعها، ولكنْ كلّما كادت تفعل إذا بها تدور بشكلٍ عكسيٍّ لترتفع لأعلى مرّةً أخرى وهي تتحركُ حركةً أفقيةً

بطيئة، تسابقت الجوالاتُ في تصوير الظاهرةِ النّادرة والغريبة هذه، وفي أقلّ من دقيقةٍ كانت صفحاتُ الفيس بوك والمواقع تتداول الصور والمقاطع المصورة، ليتحدث فريقٌ عن قدوم الأعاصير لمصرَ لأول مرةٍ جالبةً الخرابَ والدمار بما كسبت أيدي الناس فهذا غضبٌ مستحقٌ من الله عز وجل، وآخر يقسمُ أنّ زوجَ خالته يعمل بالمخابراتِ الحربية ويؤكد أن هذا سلاحٌ سرّي تجربهُ إسرائيلُ لمحو القاهرة، في حين شرح خبيرٌ استراتيجي بأنّ هذه مؤامرةٌ داخليةٌ يقوم بها فريقٌ معارضٌ، وتلك مقدماتُ عمليةٍ إرهابية أشارت لها (أبلة فاهيتا) في حلقتها الماضية عندما قالت إنّ غازات البطن تصنع أصواتًا عجيبة حين خروجها من المؤخّرات، ولكن أكّد خبراءُ الطقس الرسميونَ بأنَّ هذه سحابةٌ سوداء بسببِ حرق قشِّ الأرزِ بالعام الماضي.

وحدَها سميرة التي كادت تجنُّ حين اتصلت بوزيرِ البحث العلمي لتؤكّد له بأنّ هذه ثغرةٌ بين عالمين في طوْر الحدوث سيعقبها أهوالٌ جِسام حين خروج يأجوج ومأجوج منها، ويجب التحرّك بسرعةٍ وإعداد سبلِ المواجهة لهم، كادت تجنّ حين ضحك وزير البحث العلمي قائلًا:

– شدّي الغطاء لمنتهاه حين نومك يا دكتورة.

اتّصلت بعصام صارخةً فيه بأنّ الأوانَ قد فات، ولم يعد هناكَ وقتٌ للدّراسات فقد جاءت النهاية بالفعل، ليردّ عليها ساخرًا:

– إذا كانت تلك النهايةُ وعلامات الساعة التي تؤمنينَ بها، فماذا ستفعلين؟! فلتصلي وتدعي ربكِ قبل هلاككِ الوشيكِ على حسب زعمكِ.

ردّت عليه غاضبةً وقائلةً:

– تعلمتُ في ديني بأمرٍ من رسولنا، صلى الله عليه وسلم، أنه (إذا قامت السّاعة وفي يد أحدنا فسيلة، ولم يجد إلّا أن يغرسها فليغرسها)، تلك الفسيلةُ هي أحدُ فروعٍ وليس جذوع النخل، والتي إن زرعت فلن تؤتي ثمارًا إلّا بعد سنين طوال، فما الطائلُ من زرعها بدلًا من الصّلاة كما تقول؟

.. لهذا لن أيأسَ.

اتّصلت بمنى لتجدها الوحيدة التي تُؤمن وتصدق بما تعتقده، والتي ذكَّرتها قائلةً:

– هل تحفظين شيئًا من سورةِ الكهف يا سميرة؟

– بضع آياتٍ فقط.

– فلتقرئي ما تستطيعين منها بسرعةٍ فقد وردَ في الحديث الصحيح.. "مَن قرأ عشرَ آياتٍ من سورة الكهف عُصم من فتنةِ الدجال".

إنّها الساعة وسوف يظهر في أي لحظة.

هتفت سميرة بظفرٍ قائلةً:

– شكرًا لكِ يا "منى" لقد وجدت الحلَّ بالفعل، وهو في منتهى البَساطة، هل تذكرين الفيلم الهزلي الأمريكي "Mars attak – هجوم المريخ" الذي هبطت فيه كائنات مريخية واحتلتِ الأرضَ وعاثت فيها خرابًا ودمارًا، وفي

النهاية كان السلاحُ الوحيد للتخلصَ منهم هو تشغيلَ الموسيقى التي كانوا يتفجرون عندَ سماعها؟ سنفعل المثلَ، ولكن من منطلقِ ديننا نحن، سنصنع جهازًا يطلق موجاتٍ صوتيةً عاليةً من آيات سورةِ الكهف لغلقِ هذه الثغرةِ إن حدثتْ.

صمتُ "منى" وعدمُ ردّها أخبرَ سميرة بأنها لا تريدُ إحراجها بأيّ ردٍّ، فانطلقت الأخيرة بمنتهى الحماس لطلب هذا الجهاز من أحدِ مهندسي الصوت المتخصّصين، والذي يعملُ معها بمركز البحوث.

***

منطقةُ الغابة المتحجّرة بتبّاتها الرملية العالية ازدحمتْ بالبشرِ الذين جاءوا للمشاهدةِ عن قرب، وللتصوير بجوارِ الظاهرةِ الغريبة التي تحرّكت أفقيًّا فوق المباني بشكلٍ مستمرّ، واستقرّت أخيرًا هنا، انطلقت سميرة بين الزّحام وهي تحملُ جهازها الغريب الشبيه بمكنسةٍ كهربائيةٍ صغيرةٍ، له يدٌ تحملُه منه وبه شاشةٌ رقمية صغيرةٌ تشبه شاشةَ الجوالات متوسطة الحجم، وبجوارها خمسةُ أزرة، ويخرج منه ذراعٌ طويلة ممتدّة عبر كابلٍ ملتفّ حول نفسه بشكلٍ حلزوني مثل كابل سماعة الهاتف، كانت تجاهد للصعود لأعلى مكانٍ يمكن الوصولُ إليه، تفادت الكثيرَ من الشّباب الذين يصطنعون مشاهدَ عجيبةً لالتقاط صورٍ فريدة تبثّ مباشرةً على صفحاتهم بالفيس بوك، ولم تستطعْ تجنّب قيئ طفلٍ تحمله أمّه لا تدري ما الداعي لجلبهِ معها هنا وكيف وصلت

به إلى هذه ألتبةِ، تجاوزت تلك العائلة التي بسطتْ فرشها وجلست لتتناولَ طعامَها الدسم برفقة أطفالهم الذين اصطحبوهم في رحلةٍ خلويةٍ مميزة! صُمّت آذانها بالصّراخِ عبر الجوالاتِ التي يضعها أغلبُ المتواجدين على آذانهم لينقلوا أخبارًا عجيبة تنمُّ عن خيالٍ رائع يحظون به، ولم تجد لا طائرات تدور حولَ السحبِ العجيبة أو خبراءَ أجانب أنشأوا خيامًا بحثيةً كبيرة مع تليسكوبات عملاقة مثلما طرق أذنها مع كثيرٍ من الابتكارات العجيبة أثناء مرورها، وأخيرًا وعندما وصلتْ للقمةِ وجدت عصامًا يقفُ بنظارتهِ السوداء متطلعًا نحو السّحابة، ومنفصلًا تمامًا عن كلّ ما يحيط به، فهتفت به قائلة:

– عصام.. الحمدُ لله أنّكَ هنا، لقد وجدتُ الحلَّ.

نظرَ عصام نحوها وأمعنَ بصرَه للجهازِ العجيبِ الذي تحمله وقال لها متسائلًا:

– ما هذا؟!

– جهازُ موجاتٍ صوتيةٍ بتردّداتٍ عاليةٍ وموجهة، يرددُ آيات سورة الكهف، أتمنى أن يكون سببًا في محْو تلك الظاهرة، أو غلقِ الثغرةِ إن حدثت.

قهقه بقوةٍ قائلًا:

– أهلًا بكِ في مدينة البط، وأين عبقرينو الذي صنعه لكِ؟ أُريده لابتكارِ حذاءٍ طائرٍ فأصعد به إلى السحابة.

قالت سميرة بألمٍ:

– دعكَ من السّخريةِ يا عصام، صدّقني إنها النهايةُ ولا منجاةَ لنا إلّا باللّجوء إلى اللهِ، ساعدني في استخدامه ولن تخسر شيئًا.

همّ عصام أن يردَّ عليها، ولكن قاطعه هديرٌ مفاجئٌ من السحابة التي توقّفتْ عن دورانها الذي ينعكس صعودًا وهبوطًا، توقفتْ مع برق يلمع حولها على طولِ امتدادها وصوت الهدير يرتفعُ بعمقٍ، صرختْ سميرة فيه أن يفعل قبل أن تقعَ الواقعة، ولكن قبل أن يرد عليها فجأة كأنّما قد سقطتِ السّحابة من السماء فقد اقتربت من الأرض دفعةً واحدة، وتوقّفت عند قمّةِ تبةٍ رمليةٍ بعيدة وازداد لمعانُ البرق الذي لم يفارقها في رحلةِ هبوطها، وحدث انفجارٌ صمَّ آذانَ الجميع وتألقت السّحابةُ السوداء بلونٍ أزرق أتبعه لونٌ أبيض ثمّ انمحت فجأةً عن دائرةٍ عجيبةٍ بدت خلفها جيوشٌ جرّارة، كلّها على شاكلةِ آدم ولكن بحجمٍ مضاعفٍ وبملامحَ أكثر شراسةٍ، وجميعهم يحملونَ بيدهم ما يشبهُ البنادق، ما إنْ فتحت الثغرةُ حتى اندفع العددُ الكثيف كسيلٍ هادرٍ وصوّبت بنادقُهم نحو البشر الذين صرخوا وتدافعوا بقوةٍ يدهسونَ بعضهُم البعض، وكانّ أوّلُ الضحايا شابّ حاولَ التقاط صورةٍ بما يُسمّى (سيلفي) لنفسه، وتلك الكائناتُ قادمةٌ من خلفهِ!

جاهدتْ سميرة لتشغيلِ جهازها بعد يأسها من عصام، ولكن فُوجئتْ به يمدّ يده ليساعدها بعد أن رأى بعينيهِ صدقَ ما أخبرتهُ عنه، ابتسمتْ

بفرحةٍ عمّت وجدانها، ولكن بعد تشغيلِ الجهاز وعندما التفتتْ لتصويبِه وجِدت الكائناتُ تقفُ أمامَها، وما لا يقلّ عن مائةِ سلاحٍ مصوّبٍ نحوها هي وعصام، وقبل أن تصرخ انطلقت أشعتهم كلّها نحوهما دفعةً واحدة.

***

- لقد كان كابوسًا رهيبًا.

ضحكتْ "منى" بقوةٍ بعد أن ختمتْ سميرةُ ما حكته بجملتها السابقة قائلةً:

- ثقافتكِ الهوليودية مع الأحداثِ الجارية صنعت لكِ فيلمًا كبيرًا بإخراجٍ جيدٍ يتناسب مع مكانتكِ.

ابتسمتْ سميرة وقالت:

- أغربُ حلمٍ مركّب رأيته في حياتي لم تحدث معي من قبلُ، هل من الممكن أن يكون فيه إشارةٌ أو رسالةٌ ما بالفعل؟

قالت "منى" بهدوء:

- إليك ما وجدت، وفيه الكثيرُ مما سيرد عليكِ، الأهوالُ المصاحبة لظهور علاماتِ السّاعة الكبرى ستكون كالتالي؛ بداية بالمسيخ الدّجال وفتنته، يعقبها ظهورُ المسيح ﷺ ليقضي عليه، ثمّ خروجُ يأجوج ومأجوج بنصّ حديثٍ يصور كلّ التفاصيل وقتها يقول فيه رسولُ الله ﷺ:

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ- رضي الله عنه- قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ الله الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ-وَأَنَّ عيسَى يَقْتُلُهُ- وفيه-: «فَيَقْتُلُهُ ثمّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يُدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ: وَهُمْ مِنْ كلّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ وَيُحْصَرُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ اليَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثمّ يَهْبِطُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ، فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الله فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ ثمّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ثمّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كلّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ». وهذا الحديث

أخرجه مسلم. وبالتالي خروجُ يأجوج ومأجوج وفسادهم الكبير وعدم قدرةِ مخلوقٍ على مواجهتهم؛ لن يكون القضاءُ عليهم إلّا بأمر الله ليقضوا جميعًا دفعةً واحدة، يعقبُ ذلك طيرٌ يحملُ جثثهم وعفنهم إلى مكانٍ غيرُ معلوم ثمّ مطرٍ شديدٍ يغسل الأرضَ من دنسهم وبقاياهم، يلي ذلك أن تهبَّ ريحٌ تقبض روحَ جميع المؤمنين لتقوم الساعة على شرارِ القوم.

ضحكت "منى" مستطردةً:

– وبهذا لن تكوني في حاجةٍ لأجهزةِ عبقرينو.

قالت سميرة بتحفزٍ:

– دكتور مصطفى محمود رأيتُ له أثناء بحثي حلقةً متلفزة تحدث فيها باستفاضةٍ عن موضعهم قائلًا عن ذي القرنين الملك الصالح الذي منحه اللهُ القدرةَ على أن يجوب الأرضَ كلها بتقنيةٍ لا يعلمها البشرُ ووصفه اللهُ في سورة الكهف قائلًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ المفترض أن يُقابلها كلمة مشرقَ الشمس ولكن في المحطة التالية قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ والطلوعُ هنا يعني تواجدها وليس عمليةَ الشروق، وهذه لا تحدث إلّا بإحدى مناطقِ سيبيريا حيث لا تغرب الشمس عنها، وبهذا فقد بنى د. مصطفى محمود نظريته القائلة بأن باطنَ الأرضِ مجوفٌ وله مخرجانِ بطرفي الأرض عند القطبين، ويسكنه يأجوج ومأجوج ويُضاء لهم عبرَ الصخورِ المشعة،

واستدل على ذلك بظهور بعض الجذوع والجذور النباتية الاستوائية بمياهِ القطب الشمالي ولم يكن هناك تفسير لهذا الظهور إلّا خروجها من باطن الأرض!. وهذا يعني أن السدَّ إنما هو غلقٌ لهذه الفوهة التي قد يخرجون منها، وعرض خرائط قدامي الجغرافيين المسلمين التي تؤكد ذلك، ومنهم الشّريف الإدريسي.

معنى ذلك أنّ الافتراضاتِ العلمية والنظريات التي تُفسر كلّ هذه الأسرار مسموحٌ بها ولا ضير منها.

حاولت "منى" تخفيف توترها قائلةً:

– لن أخالفكِ في ذلك، المهم تلقفي مني الخبرَ الجيدَ والجديد، د. مارتن العالم الأمريكي المتخصصُ باللغات الميتة طالبَ بالتواصل المباشرِ معكِ لأنّ لديهَ الكثير.

***

فتحت سميرة بريدها لتجدَ مفاجأةً جميلةً ستمهدُ لها الطريق الذي تبغي السيرَ فيه، كان بريدًا من د. مارتن الذي حدثتها "منى" عنه، وما أرسله كان مدهشًا لأبعد مدى، أنبأها أنه يحمل تسجيلات قديمة مشابهة لهذه اللغة حصل عليها من مصدر عجيب؛ ففي إحدى رحلات الصيد التي قام بها بعض الصيادين في خمسينيّات القرن الماضي، وبعد تعرضهم لريحٍ عنيفةٍ ألقت بهم على شاطئِ جزيرةٍ مجهولة ليجدوا كائنًا بمثل ما وصفت سميرة عن آدم، ولكن مع اختلاف الحجم، ظنوا– وقتها– بأنه وحشٌ سيلتهمهم، وفرّوا أمامه هاربين، وكانت دهشتهم القصوى عندما نادى عليهم بلغةٍ لا

علمَ لهم بها، مما استوقفهم بحذر وتعاملوا معه بلغة الإشارة التي جعلته يتجاوب معهم ليجدوا أنه تائهٌ مثلهم تمامًا، شاركوه المأكل والمشرب، وبعد شهرين عندما اقترب قاربهم المهشّم من الإصلاح إذا بهم يستيقظون ليجدوه جثةً هامدةً، دفنوه وعادوا عبرَ رحلةٍ صعبةٍ وسط أهوال البحار، وكانوا يحفظون بعضَ الكلماتِ والعبارات التي تحدّث بها، فتمَّ تسجيلُها منهم مع استنباطِ بعضِ معانيها على حسب تصرفه معهم، ولكن مع الجهد لم يستطعْ أحدهم أن يصفَ مكانَ الجزيرة ولا كيفية الوصول إليها، ولهذا طالبها الرجلُ بضمهِ لفريقِ البحث ليشارك بما عنده، وكانت موافقتها سريعةً وبلا تفكيرٍ، ولكن طلبت منه التريث حتى تحصل على موافقة مدير المركز، وبكلِّ حماسٍ وانفعالٍ اتصلت برقم عصام لتخبره بالكشفِ الهائل، وأنّ اللغزَ في سبيله للحلِّ السّريع، ولكنّ جوالَه المغلق حالَ بينها وبين التواصل الذي لا تطيق صبرًا عليه لتنقل إليه كلّ ما توصلتْ له حتى ولو كان غيرُ مصدقٍ ولا مُؤمن بكلّ ذلك، نامت وأحلامها ما زالت تموج بحروبٍ وصراعاتٍ ومخلوقاتٍ كثيرةٍ عجيبة لم ترها من قبل، وفي الصباح الباكر وجدت جوالَ عصام ما زال يحتفظُ برسالتِه التلقائية بأنه مغلقٌ أو غيرُ متاحٍ، انطلقت لعملها بالمركز القومي للبحوث، وكلّ ساعةٍ تحاول مكالمته مجددًا ولم تستطع، وأخيرًا جاء موعدُ انصرافها لتحلّق مسرعةً إلى المركز، لتجد مفاجأةً أخرى هزّت كيانهَا من الأعماق.

***

الغرفةُ القاتمة شحيحةُ الإضاءة بجدرانها القاسيةِ الصلبة، بأرضيتها المبتلّة دومًا، وبلونها غيرِ المعلومِ والمختلط ما بين الأسود والبني والرمادي، كان يقف منتصبًا، وظهره ملتصقٌ بالحائط رغمًا عنه بتلك الأصْفاد التي تربط يديهِ بقوةٍ في مستوى أعلى من رأسه ويُنافسها في قوتها أصفادٌ أخرى تمسك قدميْه بإحكام، وبعدمِ تصديقٍ وذهول كبيريْن.. نطق جُملتَه التي جعلت الضابط يشتاطُ غضبًا ويقول بمنتهى العنف:

- ما زلت تصرُّ على الاستهبال يا ابن الـــ...؟!!

ثمّ نظر نحو مساعده وقال له:

- سخّنه لي.

وعلى الفور، وبلا ذرةِ تردّدٍ، اندفع المساعد ليغيبَ دقائقَ جلس فيها الضابط على كرسيه واضعًا ساقًا فوق الأخرى، عاقدًا حاجبيه ويُدخّن سيجارتهُ باستمتاعٍ وهو يرقب نظراتِ المقيد باهتمامٍ شديدٍ محاولًا استنباطَ أي شيءٍ منها.

عاد المساعد يحمل دلوًا يتصاعدُ منه البخار الكثيف وقد وقىَ يديه بقطعةٍ قماشيةٍ كبيرة ومبتلةٍ جعلها بينه وبين مواضع حمله للدلو، ووقف أمامَ المقيد ونظر نحو الضابط بتساءلٍ أخيرٍ، وبلا عنايةٍ أشار الضابطُ له بأنْ يفعل، وبلا ترددٍ ألقى بالماء المغلي على صدرِ الضحية لتتعالى صرخاتُه لترج المكان بقوةٍ جعلت كلّ مَن فيه يجفل، وإن لم تتحرّك بصدر أحدهم ذرةٌ من شفقةٍ أو رفق به.

***

جلستْ سميرة بمقابلةِ عصام بوجهه المتورّم، والكدماتُ الزرقاء تحيطُ عينيه المنتفختين بقوةٍ، وهو لا يكاد يتحمّلُ ملامسةَ الكرسي له، فقام واقفًا مرّةً أخرى، وجسدُه كلّه يئنّ ويشتكي مما لاقاه، نظرت نحوه بذهولٍ، وقالت له:

– ماذا حدث؟! لا أفهم شيئًا حتى الآن، ذهبتُ للمركز أمس فوجدته مغلقًا، وتمّ تشميعُه، وعليه حراسةٌ بأمرٍ قضائي، وأخيرًا توصلت لمكانكَ لأجدكَ هكذا!!

بصوتٍ كسيحٍ لا يمكن استخراج مدلولٍ له؛ هل هو عتابٌ أم اتهامٌ أم شكوى؛ قال لها:

– بلاغُكِ السابق، كنت قد ظننتُ أنّ الأمر انتهى بإغلاقِ محضرِ التّحقيق فيه، ولكن مِن الواضح أنّ جملتكِ التي طلبت فيها كشف المركز، وما يجري فيه؛ دفعتْهُم لعملِ تحرياتٍ عنه، والآن نحن جميعًا في خضمّ قضية العمل بمركزٍ غيرِ مرخّصٍ مع تمويلٍ أجنبي.

بنبرةٍ ذاهلة تساءلت قائلةً:

– مركز غيرُ مرخّصٍ!! ألم تقلْ بأنه يتبعُ هيئةً كنديةً تعمل بتعاونٍ مع أجهزة الدولة؟!

بكلّ ألمٍ ومرارةٍ قال:

– كان ذلك وقتَ تسميتهِ بمركز دراساتِ القواقع قبيلَ إغلاقه، ولأنَّ استخراج تراخيص مركزٍ جديدٍ ستستغرق دهرًا، ظننتها ذكاءً وقتها عندما

أعدتُ تشغيلَه مع تغيير لافتَتِه فقط، دون السعي لأيِّ تغيير ورقيّ، والاحتفاظ بمسمّاه وترخيصه القديم، وأقنعتُ الهيئةَ الكندية بأنه يعمل رسميًّا هكذا.

لم تدرِ سميرة هل تلومهُ أم تلومُ نفسَها، فقد اشتعلت مرارةُ الألم بحلقها، وكلّما صدرتْ عنه آهةٌ آلمتها هي كأنّما طُعنت بسكينٍ حادّ مزق قلبَها، ما يعانيه الآن هي السببُ المباشر فيه، سالت دموعها للمرة الأولى، وقالت:

– أنا آسفةٌ يا عصام، لقد تعذّبت كثيرًا بسببي ومعي.

هزّ عصام رأسَه ببطءٍ محاولًا تفادي ألمَ الحركة وقال:

– المهمّ الآن، هل علمت شيئًا عن آدم، وماذا فعلوا به؟

جفّفت دموعها، وحاولتْ تمالك أوصالها وهي تقول:

– لا أعلم أيَّ شيءٍ عنه، فقد كنتُ حريصةً فقط على ملاقاتك والاطْمئنان عليك، ولولا ذكري أنّ معكَ الجنسية الكندية ما نجحت هذه الزيارة.

بنفْسِ المرارةِ المتصاعدة قال عصام:

– لم أحصل بعدُ على الجنسيةِ يا سميرة، فينبغي مرورُ أربع سنواتٍ بإقامةٍ دائمة بها، وبعدها تبدأ إجراءاتٌ تستغرق عامين للحصول على الجنسية، ولم ينقَضِ إلّا عامٌ واحد في هذه الإجراءاتِ حتّى الآن.

للمرّة الثانية شعرت سميرة بعمودٍ من نارٍ يشوي أحشاءها، هي السبب في كلّ شيءٍ، هي التي سعتْ لملاقاته وأغرقته في البحث المتعلّق بآدم، ثمّ

خطبتها والارتباط بها، للمرّةِ الألف تتمنى لو أنه لم يظهرْ أو يعد لمصرَ، ماذا لو بقي بكندا وظلّت هي على ذكراهُ الجميلة؟ ألم يكنْ ذلك هو الأفضلَ له، ولها الآن؟ هل مواجهةُ الحقيقة ودفع ثمنِها أفضلُ أم العيشُ بمخدرٍ يخفي عنّا حقيقة مدى تردّي الوضع؟

سألته باهتمامٍ قائلةً:

– إذن، يجبُ توكيلُ محامٍ كبير لمعالجة هذه القضية، هل توصي باسمٍ تعرفه؟

قال عصام باهتمامٍ:

– فلترسلي أيّ محامٍ بسرعةٍ لنستفيد مِن ظنّهم بحصولي على الجنسيةِ الكندية حتى يتمّ عرضي على النيابة في أقربِ فرصةٍ لأتخلصَ من مذبحة التحقيق التي يقوم بها هؤلاء الوحوش.

همّت سميرة أن تردّ عليه، ولكنْ علا صوتُ الضابط بأنّ وقتَ الزيارة قد انتهى، نظرت سميرة بمنتهى الألمِ لعيني عصام اللّتين تكادا تختفيان خلفَ التورّم المحيط بهما، وقالت بخفوتٍ:

– أنا آسفةٌ.

قال عصام بسرعةٍ:

– أرجوكِ طمئني أمّي وأختي عنّي.

أومأتْ سميرة دلالةَ أنها ستفعل، وهي ترى اقتيادَه المؤلم من أمامها كأنه انتزاعٌ لقلبها من صدرها، وانطلقت مسرعةً لتعملَ بوصيته.

***

كان تطوّر الأحداث سريعًا ومتصاعدًا بشكلٍ لم تتخيّله سميرة، العلماء ذوو الجنسية الكندية تدخّلت سفارتهم، وتمَّ إخلاء سبيلهم مقابل ترحيلهم السّريع خارج البلاد، القضية التي ظنّت أنها ستكونُ مجردَ تمويلٍ خارج إطار القنوات الرّسمية ومخالفةِ السّلطات الإدارية في تشغيل مركزٍ علميّ في غرض غيرِ مخصص له، في غمضةِ عينٍ تحولت إلى قضيةِ تجسّسٍ عقب خروج الأجانب منها، وتمّ تحويلُها للقضاء العسكري، الأجهزة الكثيرة والمتنوعة تمّ مصادرتها كأدلةٍ ضمن أحرازِ القضية، وكان أهمّها الخادم القوي بعد تسجيلِ المراسلاتِ الدائمة والمستمرّة بين فريق العمل بالمركز مع فريقٍ آخر متخصصٍ بألبيرتا كانوا يشاركونهم خطواتِ البحث نقطةً بنقطةٍ كأنهم يتواجدون بمصر معهم، ولكن تمّ احتساب هذا تسريبًا لمعلوماتٍ قد تكون عسكريةً مشفّرة، القردةُ التي كانت بالأقفاصُ وعبر تقارير البحث أنه تمّ سحبُ عيناتٍ منها للدّراسات الجينية والفسيولوجية للمقارنة مع عيناتِ آدم؛ تمَّ إعدام كلّ هذه القردةِ، وحرقها تحرزًا من أن تكون محقونةً بفيروساتٍ قاتلةٍ بنيّة نشرها في عملياتٍ إرهابيةٍ بيولوجيةٍ قادمة!

وأخيرًا آدم.. صاحب اللّغزُ الكبير الذي أشعل كلّ هذه الأحداث، بذلت

سميرة أقصى جهدِها لتصل إليه ولم تستطع، لم تنسَ مرافقة المحامي لها حين سألتْ عنه، اهتمّ الضابط جدًّا بأسئلتها هذه، وقال لها:

– أعطني اسمه ثلاثيًّا لو سمحتِ؟

تردّدت سميرة ولم تدرِ بماذا تخبرهُ، وقالت:

– نحن مَن أطلق عليه اسمَ آدم، فهو لا يحمل اسمًا، ولم نستطع التواصل معه بسببِ لغته غيرِ المعروفة.

اعتدل الضابطُ وكتب الاسم أمامه، واستطرد قائلًا:

– رائعٌ.. وما كانت جنسيتُه؟

كظمتْ سميرة ضحكتَها السّاخرة، وهي لا تدري كيف تخبره بظنّها أنه أحدُ أفرادِ يأجوج ومأجوج وقالت:

– نحنُ لا نعرفُ له جنسية، لقد كان محلَّ دراسةٍ لمعرفةِ أسراره.

– استمرّي يا دكتورة، مَن الذي سهّل له عمليةَ دخولِ البلاد دونَ أوراقٍ رسمية؟

شعرتْ سميرة بالفخّ الذي ينصبه لها الضابط، والذي تغوص فيه دون أن تدري، وقالت:

– أعتقد أنّ بلاغي الذي تسبّبَ في كلّ ذلك به التفاصيل، وأنه كان بعهدةِ حديقة حيوان الجيزة، وتمّ الحصولُ عليه من كلية الطب البيطري أثناء بقائه هناك للعلاج.

قال الضابط بصرامةٍ ولهجةٍ موحية:

– ولهذا أودّ تذكيرك بأنك غيرِ مدرجةٍ بهذه القضية رغم إقرارك بالعمل معهم لأنّنا جعلنا البلاغ باسمك، وبهذا فأنتِ في حكم شاهدِ الملك، لذا أريد معرفةَ كلّ المعلوماتِ التي لديكِ، ودعْكِ من أمرِ حديقةِ الحيوان وكلية الطب البيطري الذي ثبتَ كذبُه.

لوّحت سميرة بكفّها وهي لا تدري بماذا تنطق، ولأن البصرَ بين العميان جريمةٌ قالت:

– حسنًا، آدم هذا ليس سوى أحدِ فصائل القردة المتقدّمة، وحصلنا عليه مع مجموعةِ القردة التي جاءَ بها لنا عاملٌ بحديقة الحيوان اسمه عبد الباسط.

كانت تعلم بأنها أشعلتِ الجحيمَ تحت قدمي عبد الباسط هذا، وقد تورّطَ في هذه القضية، لم تشعرْ بالأسف نحوهُ؛ فهي لم تحبّه يومًا، وتراه يستحقّ ما سيلاقيه هنا، فهذه هي العاقبةُ الطبيعية لكلّ مرتشٍ مزوّرٍ متحذلق، يتقافزُ كالقرود لأجل المال، رغم رؤيتِها لنظرةِ عدم التّصديق في عيني الضابط إلّا أنّه أجابَ عن تساؤلها بموضع آدم أنه تمّ قتلُه وحرقه مع بقية القردةِ التي أُعدمت!

ولأنّ القضيةَ دخلت حيّزَ الإعلام، وشُغل الرأي العام بها، وتمّ تضخيمها لتأخذ أكبرَ من حجْمها بكثيرٍ، ولأنَّ صحافتنا تعملُ بمبدأ أنَّ الكلب حينما

يعضّ رجلًا فليس بخبرٍ صحفي، إنما الخبرُ الصحفي هو أنْ يعضّ الرجلُ كلبًا، تحوّلت سميرة إلى قديسةٍ وعالمةٍ وطنية وسيرتُها العلمية الذكية التي لا مثيلَ لها مع إشادةِ رؤسائها وزملائها ووزير البحث العلمي بنفسهِ لها، فهي التي كشفت قضيةَ التجسسِ الكبيرة، وأصبح عصام الناكرُ لجميلِ البلد الذي هربَ منها بعد أن تعلّم فيها وعاد لينال منها ويتجسّسَ عليها، واللهُ أعلم بالحروبِ البيولوجية التي كانت ستحدثُ على يديه، كانت سميرة بين شقّي الرّحى، إمّا أن توافق على مزاعم الصحافة وتقبل بوضعها كشاهد ملكٍ كما أُريدَ منها في القضية، أو تنكر ذلك لتتحوّل إلى متّهمةٍ لترافقه في مصيرِه، وبناءً على رجاءِ عصام الذي طلب منها أن تقبلَ بالحلِّ الأول حتى تبقى بالخارج محاولةً السّعي لحلّ الأزمةِ عبر الجامعة الكندية والاتصال بأساتذتهِ هناك، ولكن عندما حاولت السّفارةُ الكندية التدخلَ في أمره لم تفلح لأنه مواطنٌ مصري ولا صفةٌ كنديةٌ رسمية له كي تتدخلَ حكوماتها فيما يخصّ فردًا ليس من رعاياها، وبالطبع ضجّ الكثير من البرامج بالحديث حول القردةِ وفصائلها والأمراضِ النادرة التي تنقلها، وقامت إحدى جمعياتِ حقوق الحيوان بعملِ وقفةٍ احتجاجية وفعالياتٍ كثيرةٍ وكبيرة للوحشية التي قامت بها الشّرطةُ في التعامل مع القردةِ التي أعدمتها ومثّلت بجثثها وحرقها، فهذا ليس من الإنسانية أبدًا!

وعقبَ إحدى جلساتِ المحاكمة العسكرية لعصام، وأثناء خروج سميرة من أبواب المحكمة برفقة أمّه وأخته، وبينما تهمّ بهبوط درجات السلم

الخارجي، استوقفها صحفيّ يظهر عليه الأناقة الشديدة، وبلهجة مهذبة جدًّا قال:

– دكتورة سميرة، أنا حمدي أنيس الصحفي بجريدةِ (الحصري اليوم) هل من الممكن أخذُ خمس دقائقٍ من وقتك؟

هزّت رأسها بأنْ لا، واستحثّت السيرَ دون أن تنطق، فإذا به يقول:

– أريدكِ في أمرٍ هامّ وحيوي.

قالت بجفاءٍ وهي تهبط الدرجة الثالثة:

– ليس لدي ما أقوله.

بحماسٍ قال:

– الأمر لا يتعلّق بالقضيةِ، وإنما بنظرية داروين.

نجحَ في أنْ يستوقفها بعد الوصول للدّرجةِ السابعة لتلتفت إليه وتقول له:

– ماذا بها نظرية دراوين؟

ابتسم بخبثٍ وقد وثقَ من نجاحهِ، وإصابة سهمه قائلًا:

– منذ متى ود. عصام يؤمن بها؟

قالت متسائلةً:

– ومَن أدراك بأنه يعتنقها؟

بحماسٍ قال:

– لعمل تحقيقٍ متفرّدٍ تواصلتُ مع الجامعة التي كان يعمل بها في كندا وتابعتُ ما كتبتْه الصحفُ الكندية عنه، وقد قالَ البعض بأنّه كان له جهدٌ علميٌ بارزٌ لأجل كشفِ جديدٍ فيها لوْلا إحباط السّلطات المصرية للبحث.

شردتْ سميرة ببصرها لتتفكّر في كلامِه، لو نجح هذا الصحفي في عمل حَملةٍ تُؤيّد ذلك فقد يخرج عصام من قضية التجسّسِ، فلا مشكلةٌ قانونية في اعتناقه البوذيةَ أو إيمانهِ بالنظرية الداروينية، ولكن ستنفي أمرَ استخدامه كلّ هذه الأجهزة الحديثة في نقلِ أسرار البلد أو التّجهيز لشنِّ حربٍ بيولوجيةٍ وسط مجتمع يعجُّ بالأمراضِ المزمنة والمستوطنة منذ آلاف السنين، والعجيب أنها ستكونُ حربًا من كندا في أقصى الأرض!

لذا؛ فقد وقفت، وبكلّ صدقٍ أدلت بكلِّ ما لديها للصحفي الذي انطلق بغنيمتِه التي لم يسبقْه أحدٌ إليها، وفي اليوم التالي انتظرت سميرة صدورَ الجريدة لتحملها إلى عصام مع بشرى بقربِ الفرَجِ، ولكن كانت صدمتُها التي لا حدَّ لها، فقد خرج المانشيت الرئيسي للجريدة يقول (المتّهم بالتخابر لا يُؤمن بالأديان وداروين قدوته)، وكان المقالُ كلّه يدور حول إثباتِ أنه لا دينَ له ولا عهدَ ولا ذمّة، وبالتالي كان من المتوقّع منه أيّ شيءٍ!!

***

أصيبتْ سميرة بنوبةِ اكتئابٍ حادّةٍ، لماذا كلّما أرادت أن تسير مع عصام خطوةً للأمام عادت به للخلف أميالًا؟ فهي ترى نفسها ما خُلقت إلّا لشقائه، عدم وجودها في هذه الحياة كان كفيلًا بمنع كلّ المصائب التي وقع فيها، المقالةُ النارية التي كتبها ذلك الصحفي بسرعة تلقّفتها كلّ وسائل الإعلام لتجعلها مادةً ثريّةً يلوكها الجميع ليلَ نهار، وبالطبع أصبح الكلامُ عن أنّ هذا الكافرَ الذي لا دين له قد عاد ليدمّرَ البلد، ويستحقّ أن يُحرق حيًّا، لقد تعقّد الأمرُ وأصبح مزريًا لأبعد درجة، وبسبب مراسلاتها السابقة لأساتذته في ألبيرتا وكخطوةٍ منهم لمساعدته شكّلوا جبهة ضغطت على رئاسة الجامعة لتقبل طلبه السّابق لتعيينه أستاذًا بها، وأُعيدت مناقشة طلبهِ وتمّت الموافقة بالإجماع، وبهذا أصبح لإدارة الجامعة صفةٌ رسمية تطالب بها حضور جلساتِ محاكمته ومتابعة تفاصيلها عسى أن يكونَ ذلك مؤثرًا لمنحه بعضَ العدالة التي يبغيها، ولكن لأنه ما زال يحملُ الجنسية المصرية لم يؤثّر ذلك في شيءٍ إلّا التحسّسَ في قانونية جميع الإجراءات بشكلٍ تام، تناولت الصّحافة ذلك أيضًا مدلّلة على حرص الجهاتِ التي كان يتخابر معها للحضور وبذلِ كلّ الجهد لمساعدته، فلا يمكن بيعُ جاسوسهم هكذا بسهولةٍ؛ ستكون رسالةً سلبية لكلِّ جاسوسٍ قادم إنْ فعلوا، المحامون بذلوا ما في وسعهم، وحاولوا إثبات أنَّ كلّ ما دارَ بالمركز لم يكنْ سوى بحثٍ علميّ بحت، حتى لو كان بشكلٍ غيرِ قانوني لكنّه لم يرْقَ أبدًا ليكون تجسّسًا أو تخابرًا، وجاء اليومُ الأخير ليحملَ الصّدمةَ الكبرى، وهو الحكم عليه حكمًا نهائيًّا غيرَ قابلٍ للاستئناف أو النقضِ وواجب التنفيذ؛ بالإعدام رميًا بالرصاص!

***

ما أقسَى أن ترى حياة أحدِهم تنسلخ من أمامكَ بكلِّ ما فيها من آمالٍ وأحلام ومشاعر، من رحمة الله بنا أن جعلَ المرضَ أحدَ مقدماتِ الموت الذي قد يتمنّاه البعض لذويه رحمةً مما يعانيه من ويلاتٍ وآلام، ولكنّ موتَ الفجاءةِ الصّدمةُ التي تذهبُ بالفؤاد وتُذهل العقل تجعلك تقف متسائلًا ومجترًّا للسّاعات الأخيرة التي تصبح مقدسةً وأبدية في الذاكرة، أمّا الأصعب على الإطلاقِ أن تنسحب روحكَ وتسلبُ منْك نبضاتُ قلبك ببطءٍ، وأنت تترقبُ موت عزيزكَ بلا آلام تؤهلك لتلكم اللّحظة، أو مفاجأةٍ تغنيك عن أهوالِ ترقّبه، شعرت سميرةً بأن الحياةَ كلّها لا قيمة لها ولا تستحقّ العناء فيها، ولوهلةٍ تساءلت أين العدلُ إذا كانت حياةُ عصام النّابضة بالأحلام العريضة وعقله المحمّل بالعلم الغزير، ويرتبط به ثلاثةُ أفراد هو المكوّن الرئيسي لعالمهم، أين العدل حينما تسلبُ منه هذه الحياة دون جريرةٍ حقيقية تستحقّ ذلك، ما زالت تذكر عينيهِ الذّاهلتين عقب النطقَ بالحكم، وتذكّر كلماته الكسيحة وهو يقول لها:

- ألم أقلْ لكِ ألّا أملَ لنا في هذا البلد؟!

ما زال يقيدها شعورُ الإثم لأنها منحتْ جلادَه السيفَ الذي سيزهق روحه به، وهذا أكثرُ ما يفقدها توازنَها وقدرتها المنطقية على التفكير، ستظلّ- أبدَ الدهر- مثقلةً بهذا الذنب نحوه، ولكن هل ستتحملُ الحياة هكذا، الموتُ لها أفضل ألفَ مرةٍ، عسى أن تعيشَ معه في الآخرة الحياةُ الحقيقية التي وعدنا اللهُ بها، ولكن.. هل عصام بعقيدتهِ هذه من الممكن أن يكون ممّن يشملهم اللهُ

برحمته لمقتله ظلمًا؟ أليس هذا تكفيرًا مناسبًا لما فعل؟ شعرت بصداعٍ لا حدَّ له، ولكي لا تقع في مثلِ ما وقعت فيه من قبل؛ قرّرت أن تستعينَ بالمختصين ذوي العلم، فطلبت من حسام أخيها مقابلةَ ذلك الشيخ العصري محمود أبو البخاري.

دخلتْ لمكتبه، وعيناها لا تبصرانِ أيًّا من التفاصيل التي تمعنت فيها من قبْل، ولحقها الشّيخُ ببسمتهِ الهادئة مرحبًا بها ومخبرًا إيّاها بأنه يذكرُها جيدًا، وعندما سألها أين وصل البحثُ الآن، قالت له سميرة والحزنُ يغلفُ جميع أحرفها:

– لقد وصلنا بالبحث إلى مدًى بعيدٍ جدًّا، ولكن وقعت أهوال أنستنا كلّ ما يخصّه.

بمنتهى الهدوء والاهتمام قال:

– أنا متابعٌ جيدٌ للإعلام، وعلى درايةٍ بكلِّ ما حدث.

اعتدلت سميرة وقالت:

– عند نقاشي معه في حديثٍ سابق لمعرفةِ ما هو معتقدُه الحقيقي قال لي بأنه في مرحلةِ ثباتٍ وعدم انجذابٍ لأيٍّ من الأديان على الإطلاق، لأنّه اكتشف نقيضَ الكثيرِ من الثوابت التي تربّينا عليها، سؤالي لكَ.. هل مقتله ظلمًا يُعدّ كفارةً له؟

تنحنَحَ وصمتَ هنيهةً، وهو يحاول إيجادَ صيغةٍ للترفّق بها في الرد، وحسم تردّده قائلًا:

– صريحُ الآيات في القرآن الكريم تقول: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾..

لم تتمالكْ سميرةُ دموعَها وهي تشعر بكلِّ عجزٍ وأسى الدنيا، مشفقًا عليها قال:

– ولكن ما زال بيدكِ محاولةٌ لإنقاذه.

رفعتْ سميرة رأسَها بحدّةٍ ناظرةً إليه ومتسائلةً بقوةٍ عمّا يعني فاستطرد قائلًا:

– اللّحظاتُ الأخيرة دائمًا يصفو فيها القلب، ويكون العقل مستعدًّا لتلقي الحقيقة، سأمنحُكِ بعضَ الكتبِ المهمّة التي قامت بالردّ العلمي التفصيلي على أغلبِ شبهاتِ الملحدين، عسى أحدُها قد يطرق ما لديه من شبهاتٍ ويقوّمها، ولكنِ استعيني بأكبرِ وأمضى سلاح، وهو الدّعاء والتضرّع للهِ عزّ وجل.

هزّت رأسَها ممتنّةً لكلامه، وانتظرت تجميعَه للكتب من مكتبته الهائلة، وبينما يمدّ يده بهم إليها سألها قائلًا:

– قلتِ بأنّكم وصلتم لمدًى بعيدٍ في بحْثكم، يهمّني معرفة ما توصّلتم إليه.

تنهّدت سميرة، وقصّت عليه كلّ ما وصلت إليه، وما افترضته بشأن آدم واحتمالية أن يكون من قومِ يأجوج ومأجوج.

صمتَ الرّجل برهةً كأنما يُهيئ نفسَه للكلام بشكلٍ مناسبٍ واعتدل في جلسته، وبمنتهى الدّقة والعناية قال:

– أتحدّث إلى عالمةٍ تدرك جيدًا أنّ وجودَ المرجعِ العلمي يضع أساسًا نبني عليه جميعَ نظرياتنا الجديدة، ونحن، والحمدُ لله، لدينا المرجعُ الكبير والموثوق جدًّا الذي يجب أن نبني عليه ما هو قادمٌ، ديننُا لا يرفضُ البحثَ العلمي والنظرياتِ الجديدة مهْما كان شططها ولا يحاربها.

نظرتْ سميرة إليه باهتمامٍ، وهزّت رأسَها موافقةً لكلِّ ما قال مستحثةً إيّاه على المتابعة ليقول:

– هذا المرجعُ الإلهي هو القرآن الكريم، وفيه جاءتْ قصة يأجوج ومأجوج بالتفصيل الكبير، وبالتالي أيّ تخيّلٍ يناقضُ ما جاء فيه محكومٌ عليه بالخطأ.

قالت سميرة باهتمامٍ:

– وما هو الخطأُ فيما قلتُ ويتعارض مع ما ورد بالقرآن الكريم عنهم؟

– ظاهرُ القرآن الكريم يدلُّ على أنّ يأجوج ومأجوج لن يقدروا على نقبِ السّد، فإذا جاء موعدُ خروجهم سوَّاه اللهُ بالأرض، كما قال تعالى:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾. قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن يأجوج ومأجوج أنّهم ما قدروا على أن يصعدوا فوق هذا السدّ، ولا قدروا على نقبهِ من أسفله. ولما كان الظّهورُ عليه أسهلَ من نقبهِ قابلَ كلًّا بما يناسبه فقال: ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا﴾ وهذا دليلٌ على أنهم لم يقدروا على نقبهِ، ولا على شيءٍ منه، ومع افتراضاتك ببُعدٍ آخر وعالمٍ موازٍ وما شابه، فينطبق عليه نفس الأمر، من المستحيل أن يعبره أحدهُم إلّا مع قيامِ السّاعة كما جاء في صريحِ موعود الله عزّ وجلّ.

ابتسمتْ سميرة بخيبةِ رجاءٍ، وشعورُ الفشل يتملّكها، وفي محاولة أخيرة لنيلِ أيّ فوزٍ قالت:

– هل يتعارض التفسيرُ القائل بأنّ السدَّ قد يكون معنويًّا وليس من الضّرورة أن يكون حسيّصا؛ مع أيّ ثوابت؟

تنهّد الرجل، وصمت قليلًا كعادته قبيل الردّ، وقال:

– بالنسبة لي شخصيًّا، لا حاجة لي بمحاولةِ تعديد أصابعي، ولكن لن أمنعَ وليدي من فعلها ليتعلّم، فلنْ يضيرني معرفةَ أين هُم وما هي طبيعةُ حياتهم في شيء، ولكنْ قالَ الله– عزّ وجلّ– في سورة الرحمن ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾،

وهذا تصريحٌ مباشرٌ من الخالق للعلماء المتخصّصين بالذّهاب أينما شاءوا في الوصول لأسرار الكون.

صمتتْ سميرة، وقد أدركت جيدًا ما يعنيه، ورغم توقّعها إجابته بعدم المعرفة لأنّ هذا ليس باختصاصهِ؛ تساءلت:

- بماذا تتوقّع تفسيرَ ظهور هذا الكائن؟

ابتسم وهو يفردُ كفّيهِ دلالةَ عدمِ معرفتهِ وقال:

- ويخلقُ ما لا تعلمون، هذا دورُكِ في استكمال بحثكِ عليه.

ابتسمتْ بسخريةٍ ومرارةٍ قائلة:

- لم يعدْ في الإمكانِ الوصولُ إليه، الروايةُ الرسمية تقول بأنه تمَّ قتلُه مع القردة التي تشكّكوا في حملها لفيروساتٍ قاتلة، واللهُ أعلم بمكانه الآن.

وأخيرًا، وقفت لتعلنَ انتهاء المقابلة، ولتنصرفَ برفقة أخيها مع ما حملتْه من كتبٍ منحها الرّجل إيّاها.

***

- هكذا قد انتهى الأمر.

بعيونٍ باكية ونفسٍ محطّمةٍ قالها عصام محدثًا بها سميرة وأسرته مع أخيه الذي ظهر للمرّة الأولى لتوديعه قبل تنفيذ الحكم عليه في موعد لا يعلمون عنه شيئًا، تردّدت سميرة وقالت له:

- هل يمكنكَ قبول هديّتي هذه، والاهتمام بها بعد انصرافي؟

نظرَ الجميعُ للصّندوق الصغيرِ المُغلف بعنايةٍ، وكلّهم دهشة عما قد يحتويه، فأيُّ هديةٍ هذه يمكنك منحها لرجلٍ مقبلٍ على الموت في أيّ لحظةٍ قادمةٍ، وبالطبع لم يكن هناك مجالٌ للرّفض، فتناولها منها وهو يحاول اصطناعَ ابتسامةٍ غيرُ قادرٍ عليها، سار الجميعُ، وعند الباب تلفّتت سميرة ناظرةً إليه وهي لا تصدّق أنّ هذا الجسمَ قد تفارقه الرّوحُ ويفقد كلّ وظائفه الحيوية فجأةً وبلا جريرةٍ حقيقية، بينما انطلقَ عصام يحمل هديتَه الثّقيلة نوعًا ما مع بعضِ الأطعمة الخاصة التي أعدّتها له أمّه، وقد بدأ تساؤله عن هديةِ سميرة يشغل حيزًا من فراغِه النفسي، دخل زنزانتَه وتوجّه إلى سريرِه المقابل لسريرٍ آخرٍ يرقدُ عليه رفيقه المتّشح بلباسِه الأحمر كذلك، وكلٌّ منهما لا يدري أيّهما سينعي الآخر ويفتقده، ولو إلى حين!

نظر رفيقُه إلى صندوقِه المغلّفِ بطريقةٍ أنيقة، وسألهُ مباشرةً عمّا يحويه، فمدّ عصام يدهُ لينزع عنه غلافَه قائلًا:

- سنعرفُ حالًا.

سابقتْ عينيهِ حركةُ يديه المتسارعة، ليكتشفَ في النهاية أنّ الصندوق يحوي بعضَ الكتب، قرأ العنوانَ لاثنين منهم فقط؛ ليجدَ أوّلهما هو كتاب (الإلحاد.. وثوقية التوهّم وخواء العدم)، والثاني (حوار مع صديقي الملحد)، فقذفَ بالصّندوق على امتداد يدِه وهو يزبدُ بكلماتٍ غيرِ واضحةٍ، واستلقى على سريره موليًا رفيقه ظهرَه دون أن يعير نظراته المندهشة أيَّ اهتمامٍ، فما

كان من زميله إلّا أن سارَ نحو ضحايا ثورتهِ ليتصفّح عناوينها، وهزّ رأسه دلالةَ فهمه لكثيرٍ مما غاب عنه، فمِن العناوينِ الصريحة أدرك ماهيةَ رفيقه الذي لم يركعْ ركعةً منذ جمعتهما الزّنزانة بالأمس، مما يناقض حالَ أيّ مقبلٍ على الموت مهْما كان جرمُه وفسقُه، جمعَ الكتبَ ووضعها داخل الصندوق وحمله إلى الرّفّ الممتدّ بجوار النافذة الوحيدة للزنزانة متوسطةِ الحجم التي تتّصف بارتفاعِ سقفها بشكلٍ مبالغٍ فيه، جلس الرجلُ على سريرهِ صامتًا محاولًا استحضارَ مقدّمةٍ مناسبةٍ يمكّنه بدءُ الحوارِ الذي يرغبه بها، وأخيرًا نطق قائلًا:

– منذ مقدمي إلى زنزاتكَ بالأمس واكتئابُ كلّ منّا منعَ عنّا التعارف، هل تعلمُ أني رئيسُ قسمِ طبّ وجراحة العيون بكلية الطب؟

نجحتِ المقدّمة في جذبِ انتباه عصام الذي استدار، واعتدل جالسًا وبعينٍ مُتسائلة قال:

– ما هذا؟!! هل أصبح السّجن مأوَى رجالِ العلم؟! ما الذي جاء بكَ هنا؟

ابتسم الرجل بهدوءٍ وقال:

– الخلاف السّياسي مع الدولة.

ازدادتْ دهشةُ عصام، ولأنه لا يهتمّ مطلقًا بالشأن السياسي ولا متابعة الأخبار العامّة؛ فلا درايةَ له بما يحدثُ، فقال:

– أيُّ خلافٍ سياسي هذا يؤدّي للإعدام؟

– الخلافُ الذي يهدّد عرشَ الظالم، يظنّون أنّ حبلَ المشنقة قد يقتلُ فكرةً، ولا يعلمون أنه يشدُّ من أزْرها ويزيدُ تابعيها والموقنين بها.

لم يهتمّ عصام بفلسفته السياسية، وتساءَل عمّا شدَّ انتباهه قائلًا:

– هل محاكمتك كانت عسكرية؟

أومأ الرّجلُ بأنْ نعم، قال:

– والحكم كان بالإعدام شنقًا؟!

فتساءل عصام بقوةٍ قائلًا:

– لماذا تفاوت الحكم بيننا من إعدامكَ شنقًا إلى إعدامي رميًّا بالرصاص؟!

بكلّ بساطةٍ قال الرجل:

– العسكري لا يُسأل عمّا يفعل.

تهكّم عصام ساخرًا، قائلاً:

– سيتمّ إعدامُ بريئين، وقد يكون هناك الكثير معنا، ويقولون بأنَّ اللهَ لا يرضى بالظلم.

انتبَه الرجلُ بأكثر مما هو، وشحذَ كلَّ مشاعره، وقد وصل عصام للمدْخل الذي يترقبُه، فقال:

– هذا يقينٌ لا مِراء فيه.

قال عصام بغيظٍ:

– لو كانت هذه حقيقة فاللهُ نفسُه أكبرُ ظالم، وحتّى لا تقول لي بأنّ الثوابَ عن ذلك في الآخرة، أخبرني ما ذنبُ ضحايا الأعاصير والبراكين والزلازل، ما سرُّ كلّ تلك الشّرور التي تملأُ الأرضَ والتي تصنعُ معارك تخلّف ملايين الضحايا ليزدادَ البائسُ بؤسًا، ويتنعّم أصحابُ الدّثور بأكثرِ مما هُم فيه، لماذا يتركُ اللهُ كلّ هذا الظلم مستمرًّا هكذا؟

اعتدل الرجلُ في جِلسته وقال:

– الظّواهرُ الطبيعية التي تحدّثت عن كوارثها.. هل هي أصلُ الحياة أم الاستثناء النادر؟ كلّ تلك الشرورِ التي تحدّثت عنها لو منعها اللهُ عزّ وجلّ، وهو قادرٌ على ذلك، هل ستصبح الحياةُ رائعةً لأنها نعيم فقط؟!

أخبرني عن شعورِكَ لو أُطلقَ سراحكَ بعد قليل، كيف ستثمّنُ الحريةَ والحياة وقتها؟ لا تعرف قيمةَ الأبيضِ إلّا إذا جاورَ الأسود، ولتعلم بأنّ كلّ تلك الشرورِ هي جرّاءُ اختيار الإنسانِ وإرادتِه في حياته، وبالتالي هو صانعُها، ومَن يُحاسَب عليها، ولو تدخّل الله فيها الآن سيكون هذا كمَن يمنعُ صغيرَه من اختياره قهرًا، أيّهما أجمل لحياتك أن تحوز إرادتك كاملةً لتخوض التّجربة للنهاية أم أنْ تنتظر التدخلَ العلويّ عند عجزكَ في مرحلة فيها؟

نالتْ كلماتُ الرجل المنطقية من عقلِ عصام، فقال مدافعًا:

– أليس كلّ ذلك قد كتبهُ اللهُ كما تعتقد أنت، لما كتب الشرَّ والمعاناة طالما أنه رحيمٌ بعباده؟!

– ليس معنى أنه سبحانه قد كتبَ ذلك أنه قد حكمَ به ودفعكَ إليه، الأمرُ أشبهُ بوالدٍ منحَ أولادَه مبلغًا متساويًا من المال، وعقب خروجهم أخبر أنّ الأول سيتشري كتابًا والثاني حلوًى والثالث لعبةً، وصدقَ حدسُه لأنه أدرى بأبنائه؛ فما بالكَ بالخالق، فما كتبه هو علمه باختيارِكَ التّام والمطلق.

للمرّة الثانية ينال الرجلُ منه، فحاول الهروبَ منه إلى منطقةٍ أخرى لا مراءَ فيها قائلًا:

– الأديان التي تتحدّث عن اللهِ، هل تعلم كمَّ التناقض الذي لا حصر له فيها؟

ابتسم الرجل بهدوءٍ وقال:

– أحدُ أساطنة الطبّ يدعى (تشارلز بورويل) كان يشغلُ منصبَ عميد كلية الطب بجامعة هارفورد العريقة، قال لتلاميذِه ذات يوم.. «نصفُ ما سنعلّمكم إيّاه خطأ، والنّصفُ الثاني صواب، المشكلةُ أنّنا لا نعرف أيَّ نصفٍ هو الخطأ وأيّه الصواب» وبالتالي معرفة الإنسان المحدودة، واختلاف تفسيره لكلِّ شيءٍ هو الذي صنع ذلك التناقض، هل التناقض الحاصلُ في كثيرٍ من النظريات الطبية والعلمية ينفي صحتَها ويلغيها تمامًا؟ العلومُ البشرية أفضلُ ما تتميز به هو عدم الإجماع عليها، فلولا ذلك ما تطورت ووصلنا للجديد في كلّ شيءٍ.

شعرَ عصام بقدرة محاوره الفائقة على الجدال والفلسفة التي لا يطيقها؛ فقرّر العودةَ لما اعتادَ عليه من احتفاظٍ بقناعاته الخاصّة دون نقاش حولها، حاول إنهاءَ كلامه فقال متهكمًا:

– حسنًا، فلنستعدّ معًا، أنت إلى الجنة التي آمنتَ بها جرّاءَ صلاحكَ، وأنا إلى النار.

قال الرجل بهدوءٍ:

– لا تدري لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرًا، فقد يبدلُ من حالٍ إلى حال في طرفةِ عينٍ، والموتُ لا يأتي بسبب الحكم عليك؛ إنّما لانتهاء الأجل، ولن تدركَ الحكمةَ من ذلك إلّا عند وصولكَ لَخطّ النهاية.

***

نقطةُ العدم هي تلك النقطةُ التي تقف فيها ويستوي معكَ كلّ شيء، لم يعدْ هناك لأمرٍ أهميةٌ أكثر أو أقلّ من الآخر، تتوقف مشاعرك وتنسى كلّ انفعالاتها السابقة من ألمٍ وفرحةٍ وحزنٍ وغضبٍ واستنكارٍ وشوقٍ، ولا يتبقى منها إلّا اللامبالاة، رغمَ العُصابةِ السوداء التي تلتفّ حول رأسه لتغمي عينيه عن فوّهاتِ الموت الموجهة إليه، كان عصام يبصرها، ويرى– بجلاءٍ– مصيرَه المحتوم وروحَه السليبة ولم يعدْ يفرقه عنهم إلّا ثوانٍ، ارتفع صوتُ القائد مناديًا عليهم بالاستعداد، فطرق أذنَه صوتُ شدِّ الأجزاء المعدنية التي ترفع الرصاصةَ القاتلة من مخْزنها إلى ماسورة السّلاح الذي سيزهق كلّ أحلامِه

وعلمَه وأبحاثَه التي كانت حياته تموجُ بها، بصوتهِ العسكري الصارم الخالي من كلّ انفعالاتٍ نادى عليهم قائدُهم بالتصويب، ودون سماع أصواتٍ دالةٍ عليها أبصرَ عصام كذلك سواعدَهم المشدودة وأعينَهم المدققة على رأسِ وجسمِ الهدف الذي ما خطر بباله لحظةَ مواجهة هذا المصير ولو بأبشع كوابيسه، مرّت ثوانٍ كأنها الدّهر قبل أن يصرخَ القائد قائلًا:

- اضرب.

ليرتعد عصام رغمًا عنه وهو يترقب تلك اللحظة الغامضة التي ستكشف له الحقائق، لقد وصل أخيرًا إلى الباب المغلق، بعد الألم ماذا سيتكشف له؟

هل سيزهق وعيَه وينمحي فجأةً إلى العدم ويتبخر كلّ شيء، أم سينتقل به لمنطقةٍ جديدةٍ ذات معالم وأبعاد وقوانين أخرى؟

ضغط الجنودُ على زناد أسلحتِهم مُطلقين رصاصاتٍ ثمنها لا يسوي علبةَ سجائر أحدهم، ولم يتساءلوا أبدًا إن كانت ستجني ثمنًا أقلَّ أم أكثر، ولم يشغلهم يومًا مصيرُ الضحية أو عدالة الحكم، تنفيذُ الأمر واجبٌ، ومهمّتهم مقدسةٌ، والقادةُ هم المسئولون والمحمّلون بكلّ الواجبات المتعلقة بذلك.

وأخيرًا.. وبعد رحلةٍ طويلة تحمل ضحكاتِ عصام طفلًا عند مداعبته، وبكاءه شابًّا عند فراق أبيه، ونبضَ قلبه حبًّا برؤية سميرة، وارتعاد جسده شغفًا مع كلّ بحثٍ عمِلَ عليه ليصلَ إلى كشفٍ جديدٍ، وبعد لحيظةٍ ارتطمت الرّصاصاتُ به لتسيلَ دماؤه.

***

انطلقتْ سميرة مسرعةً مخترقةَ الزّحام عبرَ ردْهاتِ صالةِ السفر بمطار القاهرة الدولي حتى وصلت إلى الشباك الخاصّ بالرحلةِ الذاهبة إلى ألمانيا، وهناك رأتها متربّعةً على عرشها، وخلفها "عادل" زوجها يدفع الكرسي بيديه، بينما هي مسترخيةٌ عليه بكلِّ راحةٍ ووجهها يزداد تألقّها ببسمتها الرقيقة الحالمة، وقفت سميرة أمامَها وهي تلهث قائلةً:

– لم أتحمّل عدم توديعك بالمطار قبيل سفرك.

ارتفعَ حاجبا "منى" الدقيقان وقالت:

– هذا أروعُ ما يمكنني تذكّرَه في لحظاتي الأخيرة قبل السفر، ولكن كيف دخلت إلى هذه الصالة؟

ابتسمت سميرة وقالت:

– إنه ابنُ خالي وكيلُ النيابة.

قالت "منى" بحبور:

– لا حرمني اللهُ منك يا حبيبتي، أنتِ مصدرُ بهجتي.

نظرتْ سميرة نحو "عادل" المتأنق، والذي يرقبهما بوجهه الهادئ الوسيم وقالت:

– "منى" أمانة بين يديك، عِدْني أن تعود سالمةً ومعافاةً.

اتّسعت ابتسامته وقال لها:

– اطمئنّي، العلاج بالخلايا الجذْعية في ألمانيا في ظلّ الأبحاثِ الجديدة تطوّر لمدًى بعيدٍ، بإذن اللهِ ستعود راكضةً على قدميها.

نزلت دمعةٌ من عيني سميرة وهي تقول:

– إن شاءَ الله.

وأخيرًا، حان دورهما في الطابور القصير أمام شباك إنهاء إجراءات السّفر، فانطلقا مودّعين إيّاها، ولم تغادر سميرة حتى غابا عن عينيها، وأخيرًا.. سارت بخطواتٍ بطيئة وكتفين متهدّلين، وذهنُها يستعيد كلمات "منى" في لقاءٍ سابق، كانت فيه باكيةً بصورةٍ لم ترها عليها من قبْل، وسميرة تحاولُ تهدئتِها لمعرفةِ ما بها، وأخيرًا قالت لها من بين نشيجها:

– عندما أخبرني عن اسْتعدادِه للعودة والبقاء بمصر لأجلي، ألقيتُ له آخرَ ما عندي، وهو أنه تعامل فقط مع نصفي العلوي، ولا يدري شيئًا عن السفلي الذي يتّصف بالموات التام، اختفى بعدها تمامًا، وليومين كاملين نالني حزنٌ قاتلٌ، لأوّل مرةٍ أشعر بإعاقتي، لأوّل مرةٍ يكبّلني العجزُ هكذا، رغم ألمي بسبب الكثيرِ مما مررتُ به في حياتي إلّا أنّ هذه المرّة كانت أكثرَها تمزيقًا لي، ندمتُ على إعطائي الفرصةَ له، كنت قويةً بدونه، ولم أرَ الضعفَ والهوان إلّا بسببِه، فلمَ كلّ ذلك؟ مَنْ يحطم إرادتكِ.. مَن يربكُ حياتكِ؛ يجب عليكِ التخلص منه مهما كانت قيمتُه ومحبّتُه في قلبكَ، وقبل أن أستمرّ في ذلك إذا برقمِ جوالٍ مصريّ يطلبني بإلحاح، إنه هو.. وقدْ عادَ بعد أن أصبح أكثر تمسكًا بي، ما الحبُّ يا سميرة إلّا قتالٌ وتضحيةٌ لأجل نصفِك الآخر، لذا فقد كان يستحقّ الفرصة التي أخذها، فلا تتردّدي في منحِ الفرصة لمن يقاتلُ لأجلكِ.

كعادةِ سميرة عقبَ كلّ حوار مع "منى" أخذت العبارتان تتردّدان برأسها مرارًا حتى وصلت إلى سيارتها:

• مَنْ يحطم إرادتكِ.. مَن يربكُ حياتكِ؛ يجب عليكِ التخلّصُ منه مهما كانت قيمتُه ومحبتُه في قلبكِ.

• لا تتردّدي في منحِ الفرصةَ لمن يُقاتل لأجلك.

***

وبعد خمسة أعوامٍ..

وقفتْ سميرة بالمدرجِ الرئيسي لكلية العلوم بإحدى الجامعات الخاصّة لتُنهي محاضرتها، وخلعتَ نظارتها في حركةٍ عفوية، وهي تبتسم قائلةً:

– هكذا قد انتهت محاضرتي البسيطة، ومستعدّةٌ لأي سؤال.

أسعدَتْها مظاهرُ الانبهار والرّضا البادية على الطلبة، وطرقتْ أذنها كلماتُ الشّكر من بعضهم بالصفوف الأمامية، وبينما تجمع أشياءَها عازمةً الانطلاق إذا بأبرز الطلبةِ النّجباء يستوقفها قائلًا:

– لو سمحت يا دكتورة، قومُ عادٍ قيل بأنَّ أحجامهم قد تفوق أيَّ أحجام بشرية معروفة، فهل هذا يعني أنهم كانوا جيلًا من العمالقة غير الأجيالِ المعروفة بالأحجام الطبيعية؟

ابتسمت برقة وقالت:

– ما رأيكَ أن تقوم بعملِ بحثٍ عن ذلك، وفي حال نجاحكَ سوف أسعى لنشرةٍ باسمكَ في إحدى الدورياتِ العالمية المتخصصة؟

انطلق الشابّ وقد تملكه الحماسُ الشديد نحو هذا البحث، ابتسمت سميرة وهي ترى نتاجَ كلماتها له، وانطلقت إلى سيارتها بعد أن انتهى يومُها الدّراسي، وقبل أن تشعل موتورها إذا برنينِ جوالها يرتفع لتجده محسن- زوجها- متصلًا بها، فردّت عليه لتجده يطالبها بالعودة مباشرةً للمنزل فقد مرّ على ابنتهما بحضانتها وعاد بها.

شكرتْه أن أراحها من عنتِ الذّهاب بسيارتها في رحلةٍ طويلةٍ شاقة لأجل ذلك، وأخيرًا انطلقت بسيارتها لتستكملَ حياتها الهادئة والجميلة.

***

- شكرًا د. مارتن، سنستمرّ في عملِ متابعةٍ دقيقةٍ بشبكةٍ متكاملة في كلّ المناطق التي يمكننا الوصول إليها، والإعلانات المدفوعة المدعمة بالصّور تغطي أغلبَ مواقع شبكة الإنترنت بالفعل، وبهذا إن ظهر كائنٌ جديدٌ في أي مكانٍ ستكون فرصة العثور عليه كبيرةً جدًّا.

نطقَ عصام بالعبارةِ السابقةو وأنهاها بجملةٍ عن تمنى الخير لمحدّثه د. مارتن العالم الأمريكي المتخصّص في اللغات الميتة، وعاد بظهرِه إلى مسند كرسيّهِ الوثير ليسترخي بجسمِه تمامًا، وتنهّد بعمقٍ وأغمض عينيه ليسترجع ما فعله به هذا البحثُ؛ لم ولنْ ينسى أبدًا يوم إعدامه المشْهود، انطلقت الرصاصات نحوه لتحصدَ روحَه كما خُطط لها، وما بين صوت فرقعةِ خروجها من سلاحِها ووصولها إلى جسمِه أقلّ من اللحظة، ولكن كان

فيها حياته كلّها، في هذه اللحيظةِ فقط وحين ارتطام الرّصاصاتِ بجسمِه وقبيل اختراقها له تلاشت كلّ تساؤلاته دفعةً واحدة، ووجد كيانَه كلّه يهتف مستنجدًا باللهِ عزّ وجلّ، مثل طفلٍ تاهَ من أمّه في سوقٍ كبير، ولم يعد يرى نجاتَه ولا حياته إلّا برؤياها فلم يكفّ عن النداء باسمها، قد يكون لسانه عاجزًا عن مسابقةِ الرّصاص في النطق بكلمة "يـــا ربّ" ولكنّ قلبَه ردّدها مراتٍ بسرعةٍ تنافسُ سرعةَ الضوء، عمود النار الذي مزّق كتفه بألمٍ دفعه ليصرخَ بقوةٍ عقب اختراقِ الرّصاصة له، ولكن.. ما التغييرُ الذي حدثَ؟

ما زال يشعر بكلِّ شيءٍ، ملمسُ العصابة التي تُغطي عينيه كما هو لم يتغير، قدرتُه على تحريك جسمِه كما هي، الألمُ المتصاعد مع السائل الدافئ الدافقِ منه لا يمكن أن يكون ذلك أحدَ مقومات الحياة الأخرى؟ لا يرى ملائكةً ولا عالَمًا آخرَ بعد الموت، وأخيرًا طرق سمعه صوتُ القائد الأجشّ وهو يسبّ الجنود قائلًا:

- ألا تستطيعون التصويبَ على هذا الهدفِ الكبير أيها الحمير.

أدرك عصامُ بأنَّ الرصاصاتِ قد أخطأت المواضعَ القاتلة به، يا للبؤس والعذاب؛ ستُعاد الكرّةُ مرةً أخرى بنفس ألمِها النفسي قبل الجسدي!.. ولكن..

ولأنّ اتباعَ الإجراءات القانونية معه كانت واجبةً بشكلٍ تامّ، فقد تمّ تأجيلُ تنفيذ حكم الإعدام حتى يحدّد القاضي موعدًا جديدًا للتنفيذ، والذي

لن يكون قبلَ التئام جروحِه، وكأنّ مشهدَ هذا الجرح سيكون مشينًا لهم أمام دودِ الأرض!

وكمْ كانت دهشتُه- فيما بعد- عندما علمَ تقنيات تنفيذ الحكم بالإعدام عليه، في الأحوال العادية وبلا مراعاةٍ لأيِّ قوانين سيكون هناك ثلاثةٌ أو خمسةُ أو سبعةُ جنودٍ وخزينة كلّ منهم مذخرةً بالعددِ الكامل من الرصاصات، ولن ينصرفوا قبل التأكّد من إصابتِه في مقتلٍ والإجهاز عليه، ولكنْ مراعاة للقوانين الدولية في تنفيذِ هذا الحكم معه لوضعه الخاصّ؛ فقد اتّبعت القواعدُ بحذافيرها، ثلاثةُ جنود فقط بسلاحِ كلّ منهم رصاصةٌ واحدةٌ، اثنان منهم رصاصاتُهم فشنك وغيرُ حقيقية، والثّالث فقط هو مَن يحملُ الرصاصةَ القاتلة، ولم يعلم أحدُهم مَن هو الحاملُ لها، وذلك كي يقلّ شعورُ الإثم أو تأنيبِ الضّمير عندهم إن وُجد. ولهذا كانت فرصتُه في النّجاة عظيمةً وأخطأ الجنديُّ التصويبَ لتستقرّ الرصاصةُ في كتفِه بدلًا من قلبه، وتطوّرت الأحداثُ السريعة بعد ذلك قبيلَ انقضاء الشهر الذي تحدد لتنفيذ الحكم مجددًا، منظمات حقوق الإنسان في كندا مع الإعلام دفعت البرلمانَ الكندي بمطالبة رئيس الوزارء منحَ الجنسية الكندية لعصام إن كانت هي السبيلَ الوحيد لنجاته، فهو يستحقّها أكثرَ من ذلك الوليد الذي نالها لمجرّد أنَّ ميلاده كان داخل الطّائرة أثناء عبورها بالمجال الجويّ للبلاد!

تقدّمت السفارة الكندية بأوراقٍ تثبتُ منحَ عصام الجنسية الكندية مطالبةً بإعادةِ محاكمته في ظلِّ الوضع الجديد، وعلى الفورِ، وبدلًا من إعادة

المحاكمة تمّ إصدارُ قرارٍ جمهوري بعفوٍ رئاسي عنه بالحقِّ الدّستوري للرئيس في ذلك!

وتذكّر المشهد الأخير الذي رأى فيه سميرة؛ عندما وقفَ معها أمام صالةِ السّفر بمطار القاهرة الدولي حين توديعها له لسفرِهِ الأخير بعد نجاته ليقول لها:

– لن أعود لها أبدًا ما حييتُ يا سميرة.

لتردّ عليه بعيونٍ باكيةٍ قائلةً:

– لن أستطيع لومكَ في ذلك.

متسائلًا وراجيًا قال:

– كنتِ قد وافقت من قبلُ على السّفر معي.

– كان ذلك كمرحلةٍ حياتية انتظارًا لأملٍ قادم، أمّا الآن فقد تغيّر الأمر فلا يمكنني البقاءُ الأبدي بعيدًا عن أمّي القاسية.

– وهل ما زال لديك هذا الأمل؟

– يجبُ أن أشاركَ في صنعِه بنفسي ولا أنتظرهُ مثل الآخرين، إذا انتظرناه جميعًا فمَن سيضحّي لأجله؟!

– وهل ترين هؤلاء القوم أو هذا البلد يستحقّ منكِ ذلك؟

لم تستطعْ أن تمنعَ بسمتها وهي تقول:

- معذرةً إلى ربّكَ ولعلهم يهتدون.

بألمٍ قال:

- أنت بهذا تقطعين أيَّ أواصرَ بيننا بشكلٍ نهائي.

بألمٍ أكثر قالت:

- قد تستأصلُ عضوًا هامًّا بجسمكَ كي تستمرّ معكَ الحياة بشكلٍ طبيعي، حتى لو بانتقاصِ شيءٍ هامّ منها.

وكان الوداعُ الأخير بالمطار لتنتهي آخرُ جملةٍ بقصّة سميرة معه، ولينصرفَ كلّ منهما بكتفيْن متهدّلينِ وقلبٍ صريع.

عادَ عصام من ذكرياتِه البعيدة إلى سطحِ مكتبه ليجدّ كتاب "حوار مع صديقي الملحد" للدكتور مصطفى محمود متألقًا فوقه، فابتسم ومدَّ يدَه إليه ليكملَ قراءته.

***

كعكةٌ مستديرة بهيةُ الصورة، ويبدو عليها أنها شهيةُ المذاق تألقت بثلاثِ شمعاتٍ فوقها تتطاير منها شراراتٌ ملونةٌ وأنيقة جعلت الصّغيرة "أمل" تتقافز سعادةً وتصفّق بيديها، نفّذت أمرَ أبيها بالنفخ تجاههم لتنطفأ شعلتُهم،

وبعد إضاءة المصابيح ومنحِ كلّ فردٍ قطعة من الكعكة المشتهاة؛ جلست سميرة جانبًا ترقبُ أملَ وأباها في سعادةٍ حقيقية، بعد أن حملت الصّغيرة هداياها وانصرفت لغرفتها، جاء محسنُ ليجاورها في جلستها مصفقًا بيديه ليفيقها من شرودها قائلًا:

- أين ذهبت الباحثةُ الفذّةُ؟

ابتسمت وقالت:

- أتفكّرُ في تصاريف اللهِ للأقدارِ وحكمته عزّ وجلّ.

ثمّ اعتدلت في جلستها واستطردت قائلةً:

- لم يكنء يخطرُ بخيالي يومًا أنّك ستكون مصدرَ سعادتي الحقيقية.

ضحك قائلًا:

- وأنا من اليومِ الأوّل الذي رأيتك فيه عندنا بحديقةِ الحيوان علمتُ أنّك ستكونين سرَّ سعادتي الأبديّة، لهذا تحمّلتُ وصبرت وقاسيت معك حتى فزتُ بكِ.

ابتسمتْ سميرة وهي تردّدُ بعقلها قائلةً:

- بالفعل.. الحياةُ لا تتوقّف على فردٍ مهْما كانت أهميتُه.

***

في أحدِ المراكز البحثيّة الكبري، وبمدينةٍ شهيرة بمفاعلها النّووي لدى كيانٍ على حدودنا الشرقية، ارتفع أزيزٌ من أحدِ الأجهزة الإلكترونية ذي الشاشة الزرقاء التي تحملُ منحنياتٍ كثيرةً، وأسفلها أرقامٌ عديدة تتغيّر مع صعودِ وهبوطِ المنحنَيات المستمر، وتخرجُ من الجهاز عدّةُ مُوصلاتٍ تتّجه نحو الخوذةِ التي يرتديها ذلك الممدّد في سريرٍ فحص تخرجُ منه الكثيرُ من المُوصلات الأخرى، والتي ترتبط بأجهزةٍ عديدةٍ تحيطُ به من كلّ جانبٍ، وتمّ إحكامُ وثاقه بهذا السّرير رغمَ أنه يغطّ في سباتٍ عميقٍ على إثر الأدْوية التي يتمّ حقْنُه بها بصفةٍ شبه مستمرّة، وعند صدره المشوّه على إثر حريقٍ قديم وُضعت لاصقتان متقاربتان يتألّق بهما ضوءٌ خفيف بمنتصفهما مع كلّ نبضةِ قلبٍ لترسلان رسمًا قلبيًّا بشكلٍ لاسلكي إلى شاشةِ عرضٍ أخرى تساهم في رصد كلّ تغيراتٍ وظائفه الحيوية.

خرج أحدُ العاملين من القاعة بثوبهِ الطّويل اللامع ونظارتهِ الكبيرة التي تصنع قناعًا شبهَ كاملٍ مع الكمامة التي تُغطي فمَه وأنفه بحذائه المعقّم، والمخصّصِ لهذه القاعة فقط، تخففَ من بعضِ وسائل الحماية والتّعقيم، ودخل مكتبًا ملحقًا ليستقرّ على كرسيه خلفَ مكتبه، ويمدّ يدَه إلى هاتفه طالبًا رقمًا مختصرًا ليردّ عليه الطرف الآخر متسائلًا:

– أهلًا ديفيد، هل من جديدٍ؟

قال ديفيد بمنتهى الهدوء:

- ترجمةُ وإشارتُ مخّه وشبكتِه العصبية مع تناغمِ بقيةِ وظائفه الحيوية منحتنا الكثيرَ، يمكنك القول إنّه من السّهل الآن التواصلَ معه عبرَ إشاراتٍ مماثلها نقوم ببثّها عبرَ خوذته الفائقةِ هذه.

قال محدّثه باهتمامٍ:

- رائعٌ، رئيس الوزراء نفسُه يترقّب هذه النتائج على أحرٍّ من الجمر.

ابتسمَ ديفيد وقال:

- لنْ نُخيبَ أملَه أبدًا.

تمّت بحمدِ الله

شكر خاص

• شكرٌ جزيل، وعرفانٌ بالجميل، وتقديرٌ لَمن كان لهم رأيٌ سديدٌ، ومساعدةٌ كبيرة لتخرج الرّوايةَ بهذا الشّكل الذي وصلت إليه، مع حفْظ الألقاب ومراعاة أنّ الترتيبَ أبجديٌّ:

• أسامه الوحش.

• حنان لاشين.

• دعاء عبد الرحمن.

• سامية أحمد.

• عمرو خليل.

• محبوبة محمد سلامة.

• محمد سعد التهامي.

• منى سلامة.